بنسالم حِمِّيش

من ذكر وأنثى

رواية

}} وَاللّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى {{

(قرآن كريم، سورة الليل)

سموتُ إليها بعد ما نامَ أهلها سُمُوَّ حباب الماءِ حالا على حالِ

فقالت سباكَ اللّهُ إنكَ فاضحى ألستَ ترى الناسَ والسمارَ أحوالي

فقلتُ يمينَ اللّهِ أبرحُ قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

المتنبي

لن تكون حياةُ الناسِ عادلة إلا إذا كانت بالجمال مفعمة.

رامبراندت

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

من باب شغفي بالإعلام الثقافي وإجراء الرُّوبُرتاجات والحوارات، استخلصت من مذكراتي القديمة أسماء مثقفين، سبق أن أعجبتُ بهم في سنوات خلت من القرن الماضي، كان لهم فيها حضور وشأن، ثم أضحوا اليوم لا أثر ولا ذكر. وللتأكد من أنهم ما زالوا أحياء، استخبرتُ عريفة بالتراجم ودليلِ من أسأل عنهم، فعلمت منها أن أغلبهم التحقوا بالرفيق الأعلى، والبقية من منتظري ملَك الموت. زودتني مشكورة بعناوين ثلاثة أحياء، وحاولت التوسط لي في أخذ مواعيد معهم، فلم تتوفق إلا في حالة واحدة.

على رأس القائمة الأستاذة خناثه الوردي، تحبو نحو الثمانين، كانت أيام صولتها تقرض الشعر وتنشط في نشر المقالات والدراسات عن الثقافة وما جاورها، وتُلقي المحاضرات الجماهيرية الناجحة، احتفظتُ بواحدة منها مطبوعة، إذ راقتني كثيرا. عنوانها: من ذكر وأنثى، ومما ورد فيها:

[...] وتفعيلاً لمنهجي الاستحساني، عليَّ بدءًا

باستحضار نصوص مفاتيح كموادّ أولى نفكر رفقتها وننزع إلى استبانة الطريق؛ ومنها في المقام الأرفع بعضُ ما رُوي عن نبي الإسلام الأكرم من أحاديث بليغةٍ شيقة، منها: «سووا بين أولادكم في العطية، ولو كنتُ مفضلا أحدا لفضلتُ النساءَ على الرجال »؛ «لا تكرهوا البنات. إنهن الغاليات المؤنسات»؛ «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء» (أيّ عائشة أم المؤمنين)؛ «ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهنَّ إلا لئيم»... وكترجيعات جديرة بالاستشهاد والتحجج في هذا الشأن، يحسن أن نتذكر أيضا ما قاله أبو الطيب المتنبي شعرا: «ولو كان النساءُ كمن فقدنا/ لفُضِّلتِ النساءُ على الرجالِ // وما التأنيثْ لاسمِ الشمسِ عيبٌ/ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ»؛ ولي أن أحيلكَم إلى ما سطره الجاحظ بعبارات بيّنة نيرة حول الموضوع ذاته في الرسائل، وإلى ابن رشد في تلخيص كتاب الجمهورية لأفلاطون، فضلا عن نصوص للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، وقد أحدثكم عنهم في محاضرة قادمة؛ وكلها شهادات ضمن أخرى تزداد وهجا وقوة إذا ما قارناها بأفكار عن المرأة واردة عند بعض أقطاب الفكر الغربي، كأرسطو الذي اعتبرها مجردَّ مادة

خام يمدها الرجل، العلة الفعلية، بشكلها وصورتها، ولم يكن سبينوزا وشوبنهاور ونيتشه وغيرهم في هذا الشأن من المحدَثين أقلَّ شراسة وتنقيصا من «المعلم الأول». لكن هذا لا يلزم أن يحجب عنا أفكارا أخرى عادلة عند أقطاب سواهم، كاعتبار وضع النساء في المجتمع معيارَ حكمٍ له أو عليه (كارل ماركس)، أو أنهن يرفعن نصف أعمدة السماء (ماووتسي تونكَ). وسيكون لهذا الموضوع ما بعده، إن شاء الله، على ضوء الآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}} الآية؛ كما على ضوء أخرى متضمنة لقسَم إلهيّ سنيّ علوي: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى {{.

استقبلتني السيدة الأستاذة في شقتها بالحفاوة والترحيب، كما لو أني موفد من أهل القلم والكتاب الذين بعُد عهدها بهم، إذ هلهلوا الصلة بها ثم قطعوها. أجزلتُ لها الشكر على قبول مثولي بين يديها. استفسرتني، وهي تملأ كأسي شايا، عن سبب زيارتها، أجبت بكثير من الحياء والتقدير: -خير إن شاء الله... سعيي ليس أكثر من التملي بطلعتك البهية

والاطمئنان على صحتك وحالك...

أبدت ابتسامة عريضة، زاد في إشعاعها بياضُ شعرها الحريري. استأذنتها في تسجيل حوارنا فلم تمتنع. سألتْ:

- ثم ماذا؟

ـ أنا سيدتي لست من زمرِ العقوق وصحافيي الفلي والنبش، ولا من كُتاب بل كتبة ونقاد مزيفين، رياضتهم المفضلة الغيبة والنميمة، يمارسونها وهم سكارى أو صاحين، لا فرق.

- صحّ ما تقول... ثم ماذا؟

- كنت من قبل أنشد مع نزار قباني: «كلُ الدروب أمامنا مسدودةٌ/ وخلاصنا في الرسمِ

بالكلماتِ»، فصرت، وأنا أناهز الأربعين، أشك في هذا الخلاص نفسه، مدركا محدوديته

وقصوره.

حدجتني الأستاذة بنظرة رقيقة، وعلقت بما فاجأني:

- شممتُ هذا من كتاباتك الأخيرة...

- تقرئين لي، مولاتي!

- توقفت عن الكتابة منذ سنين، لكن بلوى القراءة لم تفارقني... ديوانك «ثورة كلِّ الفصول» راقني لما فيه من أفكار جريئة وصور بديعة، وكذلك افتتاحياتك في مجلتك «الصلصال» اعتنيت بها...

- تذكّري سيدتي أنكِ، قبل إجهاز السلطات على المجلة بالمنع، تفضلتِ بقبول طلبي اقتباس اسمها من كتاب النقدي «الصلصال»، الذي أوَّلت ضمنه معاني هذا المصطلح في القرآن الكريم، كما ناهضتِ بقوة الحجة وبلاغة اللغة آفات ثقافة التوقير والتقديس، وذلك باسم سُنة التحولات والتغيير، التي يعمل فيها الصلصال عمل المحو المقرون جدليا بالحفاظ على كل ما هو، عبر الأحقاب و الأجيال، من قبيل الثمرات المقوية والحقائق المضيئة.

- صح... ثم ماذا؟

أحجمتُ عن التحدث في شأني، فعرجتُ على ما أتوخاه من زيارتي:

- منذ مدة وذهني منشغل بفئة من رموزنا الثقافية البارزة، مالوا إلى عزلة أحسبها

إرادية، بغية النظر في ذواتهم وفي أحوال الناس ومصائرهم أو لقصود أخرى.

أظهرت السيدة بعض الاهتمام بكلامي، قالت بلهجة التشجيع:

- وعن دعوى مجيئك؟

- فكرت أن بين رموز العزلة الاختيارية وأكابرها من طبقة مولاتي توجد وشائج قربى بينة وأخرى خفية، وقد يكون جميلا أن يلتقوا حول ما إليه ارتقوا، فتنبعث من احتكاك عقولهم ورؤاهم وتمازجها أفكار ومفاهيم شيّقة نورانية، تصير مع الوقت ذخيرة نافعة وزادا سنيّا.

- تريد إذن الدعوة إلى إنشاء حركة اعتزال جديدة؟

-لا، سيدتي، لا حركة ولا ما يشبه فرقة المعتزلة المعروفة، تقيم «علم كلام» آخر، وتخوض في غمار السياسة ومحنها. الأمر أبسط من هذا وأيسر... في مجتمع عشّش في أكثر مرافقه ومفاصله الفصام والفرقة، وتلوثت العقول والصدور بتأليه المال والعقار والأمتعة، وتدنتِ المبادئ والمثُل إلى درجات

مهُولة، ما أحوج شخصيات من طينتك، وهم قلة، إلى هدم صقيع التباعد بينهم، ورفع غربة البعض عن البعض في مجالس دورية، حرة طليقة، ولاؤهم الأوحد فيها لقيم الحق والجمالِ والعدل، يقلّبونها بالفكر الراقي والحوار الجادّ المجدي.

شملتني الجليسة بنظرات ملؤها الحنان والعطف، قالت:

- سعيك مشكور يا ابني، لكني كما تراني قد وهن العظم مني واشتعل الشعر شيبا. من بلغ سنّي يتحرك ويمشي وكأن له رجلا في القبر، تثقل خطواته وتتعثر، فيسقط أحيانا مكسّرِا بعض عظامه، كأنما الأرض تجذبه يوما بعد يوم إلى أجوافها. كل مشروع يتصوره يرجئه، كما لو أن الإنجاز موعده في عالم آخر... جاءني منذ سنة بعض الأحبة بفكرة إقامة نصب تذكاري لي في مدينة مولدي، فلم يُرخص لهم بذلك، بدعوى أن ديننا الحنيف يحرّم النصب والأصنام. ولما احتجوا بوجود النصب والتماثيل في معظم البلدان الإسلامية لتكريم أعلامها وحفظ ذكراهم، لا لعبادتهم من دون اللّه، قيل لهم: مذهبنا المالكي يحرّم ما تريدون، فلم يفلحوا، مع أنهم أنكروا بالنص

والأمثال ورود التحريم وصحته؛ ثم إن هؤلاء الأحبة عبروا لي عن عزمهم إنشاء مؤسسة تحمل اسمي، فنهيتهم عن ذلك وإن بعدَ مماتي، إذ أني أعلم من سوابق عديدة كيف، بعد مدة قصيرة، تصير مؤسسة هذا الفقيد أو تلك الفقيدة محارة فارغة ثم حبرا على ورق، تجعل من تسمت به يموت ميتة ثانية وأخيرة... وإذن أنا أعتذر عما تدعوني إليه، إذ اليوم شغلي الأوحد أن أُعدّ رحيلي، وأتخيل رحاب حياة أخرى تكون هي الأبهى والأقوم والأسمى... لكن من يدري؟ سأفكر في الأمر، وإذا غيرت رأيي أجيبك بنفسي، وإلا فاحسب بابي الموصد عليه تنبيه: الرجاء عدم الإزعاج.

بعيد مضي شهر على لقائي بالسيدة العجوز، جاءني نعيها من العريفة، فذهبتُ في جنازتها صحبة من أتوا لتشييعها إلى مثواها الأخير. وفي لفيفهم القليل تعرّفت على رجل ضمن قائمتي، مصطفى الطنحي، تقدمت نحوه معزيا وكاشفا عن اسمي. بدايةً ارتعدت فرائصه وانزعج، كأني آذيته أو فزعته. عبرت له عن رغبتي في لقائه، فأومأ بالرفض وابتعد. على بوابة المقبرة أعدت الكرّة، فوافاني بنسخة جريدته كتب عليها عنوانه ووقت لقائه محدَّدا في ربع ساعة مساء اليوم.

قدمت قبل الموعد بعشر دقائق، فتح الباب ثم أغلقه في وجهي قائلا: ليس الآن! نزلت من الطابق الأخير لعمارة قديمة وعيني على ساعتي، ثم صعدت متأنيا، حتى إذا وصلت وجدت الرجل خلف بابه الموارب، استقبلني من دون أن يصافحني، وهو ينطق بكلام مفاده أني لو تأخرت بدقيقة واحدة لألغى الموعد، وبرّر حرصه على الوقت بكونه من ذهب، وأن الناس في هذا البلد يعدونه من تبن أو حلفاء بل أقل. لاحظت، وقد أجلسني على كرسيّ، أنه لا يفتر عن مسح يديه حتى المرفقينِ بفوطة مبلّلة، مرددا غمغمات لا أفهمها. وبغتةً بلهجة العتب والحدة سأل:

- ما تريد... إيش تريد؟

أجبت مضطربا:

- لا شيء، سيدي، غير التشرف بمجالستك والتمتع بأقوالك...

قاطعني بحركة من يده، متناولا كناشا باليا، متفوها بألفاظٍ تكشف بعضُ حروفها عن أسنانه الخربة:

- اسمع هذا الكلام: من فيضِ الوحدة وشدّتها

عليّ، بتُّ أنظرُ من ثقبِ بابي، عساني ألمح زائرا ضالا فأدعوهُ إليّ. من فيض الوحدة وشدتها عليّ، بتُّ أطرقُ جدراني وأقولُ: تفضل...

شرب كأس مائه وفعلتُ مثله، سأل:

- تعرف صاحب هذا اللغو؟

أومأت أن لا، فعلق:

- شويعر نسيت اسمه. وأنا أمجّ هراءه وأربأ بنفسي عن قبول أيّ كلمة فيه... وإذن إيش تريد؟

غالبتُ ارتباكي لحدة طبع الرجل وللوقت الذي يداهمني. أجبته موجزا بما كنت عرضته على السيدة المتوفاة، وترجيته أن أسجل حديثنا فامتعض، ثم لانت قسماته وأذن. قال:

- هذا الكلام قد تكون عرضتَه على صاحبتي العجوز، اللي دفناها بالأمس. في الجنائز وحدها صرنا نلتقي، فتُعيد عليّ قصة كونها تكبرني وستسبقني إلى الرحيل، فأحاجها بعكس ذلك. والآن ترى أنها ربحت الرهان، كما زوجتي قبلها. لذا قد أعِدك اليوم بشيء وغدا

أخلف الوعد إلى أن يفاجأني موتي ويفاجئك... وعْد الحرّ ديْن، وأنا أفضّل ألف مرة أن أكون الحرّ بلا وعد ولا دين... لم يبق من أسباب وقوفي حيًا سوى سبب واحد لا ثانيَ له: إنه خوفي أو قل خجلي من أن أسقط يوما أمام أناس كجمل نازف، أنهكته الطعنات النّجلاء.

- أطال الله في عمرك، سيدي، وأبقاك ذخرا وملاذا...

قاطعني وهو يرمق ساعته:

- بلاش توشيات وخزعبلات. ثم من تكون حتى تدعو لي ويُستجاب لك؟ من تكون؟ حتى الأولياء بلت أدعيتهم وباخت...

ـ أنا فقط واحد من قراء شعرك القيم بالعربية والفرنسية.

سكت الرجل لحظات، تنفس واسعا كأنه يستعد لإلقاء كلامٍ ثقيل عليّ. قال بصوت متأرجح بين القوة والخفوت:

- هزُل الشعر وبار! صفحته عندي طويتها منذ زمان، ونفضت يديّ من عرض الشعر في سوق القحط والكساد... تجنّى عليه أرهاط كُثر

ممن لا شغلَ لهم إلآّه... أنظرْ عند كبيرهم أدونيس في خريف عمره إلى سيول هذياناته الجارفة ومواقفه الخرقاء في الفكر والسياسة، تختلط هاته بتلك، فيطلع علينا جاهرا بمثل ما ترسب في ذاكرتي: «سنقولُ البساطة: في الكونِ شيءٌ يسمّى الحضور وشيءٌ يسمّى الغياب نقول الحقيقةَ: نحنُ الغياب/ لم تلدنا سماءٌ لم يلدنا ترابْ/ إننا زبدٌ يتبخُر من نهرِ الكلماتِ/ صداً في السماءِ وأفلاكها صداً في الحياة...»؛ والمستخلص من شعره ومواقفه أنه يستثني من ذلك طائفته العلوية، فعليّ (ابن أبي طالب) عنده سيّدُ الأحزان والشهداء، وكيوسف الصديق «رموه في الجبِّ»؛ «وِ عليٌ لهبٌ/ ساحرٌ مشتعلٌ في كلِّ ماء/ عاصفا يجتاحُ. لم يترك ترابًا أو كتاباً/ كنسَ التاريخَ غطّى بجناحيه النهار/ سرّهُ أنَّ النهارَ جُنَّ...» ثم «ورأيت اللّه كالشحاذِ في أرضِ عليِّ/ وأكلتُ الشمسَ في أرضِ عليِّ وخبزت المئذنة...»؛ إلى أن يجهر: «سقط الخالقُ في تابوتهِ/ سقط المخلوقُ في تابوتهِ...» كيف لي ولغيري أن نقرأ مثل هذا الشعر المسعور وصوره المتخبطة في المس والرعونة: وخبزتُ المئذنة/ أعضاؤكِ نيلٌ يجري/ جبهةُ الحضارة قاعٌ طحلبيٌّ/ حواء

حاملٌ في سراويلي/ هذي الجرّة المنكسرة أمة مهزومةٌ.. بيت الداء ليس في فبركة مثل هذه الميتافورات السائبة التي تظل، على أي حال، دون ما أتي به السرياليون والداداثيون من حيث البلاغة والجودة، وإنما في تسخيرها لخدمة آرائه الثابتة العُصابية الكريهة لاستخواء أمة العرب بكل أطيافها ونحلها ومذاهبها - عدا طائفته- وتحقير مقدرات ماضيها وحاضرها...

ظل الرجل يهمس بصورٍ ومجازات أخرى عفوَ التذكر، حتى إذا صمت مصوبا إليَّ نظره سألته متهيّبا:

- هل أنقل، أستاذي، أقوال الشاعر وأحكامك عليها؟

- كلامه منشور، وكلامي عليه إفعل به ما تشاء، ولو أن وصوله إليه لن يتم، وإذا تم لن يفيد ما دام شعاره الطاغي: إذا استعصى عليك شعري فاكتفِ بتذوقه والتلذذ به، وإن عجزت فاتهم نفسك وازدريها... لدى الرجل يقين راسخ حتى النخاع بأنه الجوهر الفرد وفحل الخلق والإبداع، لا شريكَ له... نرجسيته المتعجرفة قلَّ مثيلها: ضخمة، كثيفة، ضاجه

وصادمة! ليس من باب التيمن فحسب انتحل علي أحمد سعيد اسم أدونيس إلاه الخصب وحياة النبات في الميثولوجيا الفينيقية، وإنما كذلك طمعا في تشخيص رمزية الأسطورِة ونقْلها باسمه إلى واقع شعري يكون واقعه هو! وهكذا تراه وتسمعه منفردا يخاطب الكون والخلق والأمم وعناصر الدنيا كلها، ويجول بأناة ويصول معلنا: «قادرٌ أن أغيّرَ: لغمُ الحضارة - هذا هو اسمي»، فيشرّع بوثوقيه قطعية أن لا منجاة ولا خلاص إلا بالتبني الحصري لنسقيْ اللائكية والحداثة اللي لا يعرف شيئا عن تاريخهما الفكري والواقعي ولا عن نظريات «ما بعد الحداثة»، فيحوّل كليهما إلى ديانة، وأيِّ ديانة! دوغمائية، فولاذية، عنيفة... ثم انظر في ديوانه الكتاب، المكتظ بالصور والمجازات الطائشة المعربدة، كيف يختزل تاريخَ هذه الأمة في كونه مجرد أنهار دماء تجري، وعهود زاخرة بالظلمات والقهر والطغيان... حقَّ الراحل سهيل إدريس حين نفر منه وامتنع عن نشره... شاهده أيضا في خرجاته الإعلامية كيف يتعدى حدود النقد المعقول للعرب (ومن قال يوما بعصمتهم أو كمالهم!)، فيبشر بانقراضهم هم وحضارتهم، على غرار الحضارات القديمة، التي لا يعرف

عنها شيئا ذا بال، هذا مع أنه لا يربأ بنفسه عن تحصيل فلوس العرب الأحياء وجوائزهم. ولو اكتفى بالقول إنهم لاحقون بالعرب البائدة، لكنْ مخلفين عربا جددا ومن دون موت حضارتهم، لهان الأمر وجادلنا فيه، إلا أن الرجل يظل متشبثا بكلامه الإستنقاصي السخيف، وهو من صنف ما لم يفه به حتى أشرس الأعداء وأخطرهم، من صهاينة وغلاة اليمين الفاشي، ويُستبعد أن يروق مؤسسة جائزة نوبل ذاتها اللي ما انفكَّ جاهدا لاهثا يتحبب إليها ويتزلف بشتى الوسائل والرسائل، منها بعض ما ذكرت، ومنها إمعانه في تجريد العرب والفلسطينيين من سلاحهم الديني والروحي، وفي المقابل سكوته المريب عن إقرار إسرائيل بيهودية دولتها هويةً وركنا ثابتا مؤسسا... إنه إذن لمن المنقرضين!

استسمحت جليسي في تحسين أداء مسجلتي، ثم حاولت الإدلاء بدولي في الموضوع ذاته، قلت:

- كلامك، أستاذي، يؤجج شكوكي في هذي السيول الهائجة للصور والمجازات السائبة المهلوسة عند صاحبنا، وأيضا في مرتكزاته الإيديولوجية منذ أطروحته الثابت والمتحول،

حيث برز تحيزه المهنّد للحداثة واللائكية، لا من باب البحث المعمق والتنظير الفلسفي، بل جرّاء توجه دعوي قائم على أسلوب القرارات والمراسيم، متوهما، خلافا لما يعلمنا إياه تاريخ الثورات والسياسات، أنه يكفي أن نقول للشيء كن فيكون، ومن ذلك دعوته المتواترة إلى هدم البنية التقليدية للذهن العربي والتخلص من المبنى الديني... وإلى هذا يذهب كثير من مثقفي التبرج والحذلقة والطبخات السريعة...

- أحسنت! ثم انظره أيضا كيف بعنجهيته المعتادة يجهر بعزوفه عن قراءة الروائيين المحدثين جميعهم، ولا يعترف إلا بشاعرين أو ثلاثة، هم على أي حال من درجة متواضعة بل أقل، وسوى ذلك من الترهات الهوجاء عنده كثير؛ هذا كلّه وذاك فيما زادُ الشيخ المعرفيّ بالغ الهشاشة، وتمكّنه النظري، دع عنك الفلسفي، موغل في الهزال والتدني. فلو أنه قرأ من أعمال الراحل إدوار سعيد ولو صفحات، لتوافرت لديه كلّ الدواعي والأسباب لكي يخجل من نفسه ومن تحرشاته المستميتة بالعرب وذمهم دون الغرب وإسرائيل، فيلتمس الصفح والمعذرة، وهذا أمر جدّ مستبعد...

انتهزت سكوت الرجل الثائر وانشغاله بإشعال سيجارته، فقلت:

- أحكامك هاته، قد تثير استنكار أزلام شاعرنا وحوارييه، ولو على قلتهم؟

صوّب الرجل إليَّ نظرة فاحصة، وأجاب بهدوء:

- هؤلاء مجرد صنميين مستلبين، أمام شعر طلسمي ملغز لا يفهمونه، تراهم يخزون أنفسهم لقلة فهمهم له وعجزهم عنه ويلعنونها، عوض إدراك العيوب والأعطاب في المنبع والمجرى؛ وبالتالي فهم إجمالا عديمو الحس النقدي والفطنة والبصيرة، وهم عبارة عن قردة وأقزام حين يقلدون ويقدسون، فلا تكن منهم بل ثرْ على شانطاج الشيخ وانسفه نسفا، ومع الوعاة هشِّم أصنام الوهم والبهتان... أما أنا فلا أعبأ بأولئك ولا بمعبودهم... إنما في المقابل اقرأ لكبار شعراء العالم، ومنهم فقيدنا العزيز درويش الذي ظل صاحبنا مريضا بغصصه إزاءه، مكلوما بفعل إقبال الجماهير على محمود وحبهم لشعره وفكره وشخصه... راجع مقالتيْ الشاعر الفذّ: «كثُر الشعراء وقلَّ الشعر» و«أنقذونا من هذا الشعر»، أيّ ما يسميه ابن رشد شعر

«الشعراء المموهين» و«شعراء الزور»!... مع هؤلاء يمسي اليوم العالمي للشعر مزحة بل مهزلة... مضحك هو ادعاؤهم لتبرير هذا الاحتفال السنوي بأنّ الشعر ينشر بين ساكنة الأرض قيم المحبة والجمال والسلام... حين أنظر في تصريف هذا الادعاء من حولي في سلوكياتهم، لا أجد له من الحقيقة والصحة نصيبا، ولو بمقدار، وأصعق بهول نفاقهم وتخبطهم... الشعر! ولمَ لا النثر أيضا، والتشكيل والموسيقى والرقص، وغير ذلك من الفنون والآداب؟!

أطرق الرجل مفكرا، مداعبا شاربه المبيض الكثيف، فاهتبلتها فرصة لمساءلته:

- وحال الثقافة في بلاد المغرب، كيف تراه؟

- كيف أراه! من جهة التيار الصلب وليس وقوفا على استثناءات فردية تؤكد القاعدة، أزعم – ولا وقت للشرح- أن النبوغ في بلادنا تضاءل حتى أمسى كأنه وعد عرقوبي أو كالزيزفون، فانكمش الإبداع وتدني. طبّعنا الاتباعية، وبها حتى الثمالة سكرنا. نعيش عبيدا للآخر الأقوى، واقعين تحته موقّعين، ونموت مهزومين مغمورين... هذي حالنا في وطن ما

زال مستعمرا لسانيا وثقافيا... لا تذكرْ لي حفنة أسماء صنعتهم أبواق الطّمْ- الطّم الإعلامي، وهم من الشبكيين وراكبي الكتابة المستقيمة الطيّعة...

ـ وعن علاقتك بالكتابة الشعرية اليوم؟

- شعري بالفرنسية نبذته وأحرقت ما عندي منه، وهذا أقصى ما استطعته للتعبير عن رفضي لفرنسا الغطرسة والازدراء، اللي ما انفكت لوبياتها المتنفذة تكيل لنا اللطمات والإهانات، وتحسب بلادنا مجرد مرتع للريع وسوق سهلة لاستهلاك منتوجاتها وسلعها، المادية منها والثقافية والإعلامية، لوبياتها المهيمنة تنتقي بمعاييرها التتبيعية الصارمة كاتبا واحدا (أو شوية أكثر) تسيده على الجميع كممثل شرعيّ ووحيد، وتُلقي بمتعبدي الفرنكوفونية الصغار وبمعارضيها في أتون دور نشر محلية هي في إصداراتها عبارة عن بالوعات بل مطارح للنفايات يديرها أشباه ناشرين أميينَ وتجار أخساء... وقرين رفضي أوجهه لخدام الأعتاب الفرنسية المدجنين، الحركيين الجدد، المعشِشين بيننا، معربدين مستأسدين... أما أثري بالعربية فعمّ! قريب يطويه الزمان طيّا ويطويني في لجج ظلامية

عظمى، فأنسى تماما كأنْ لم أوجد ولم أحيَ... وإياك تحسب أني أقول ما أقول من باب شعور عندي بالدونية أو بالإحباط، فقد نلت، كما تعلم، من شارات التقدير والتنويه ما يكفيني... لا، بل محفزي على ذلك إن هو إلا بلوغي درجة من الوعي والصحو، ومن انقشاع غيوم الأوهام الخادعة الغامرة، درجة أظنها لا بأس بها بل معتبرة، وسأعمل جهدي، ما حييت، للذهاب بها إلى ذروتها وتجليها الأقصى...

وقف الرجل بغتةً، ماسحا بفوطته يديه وعرق وجهه، قال وهو يشعل سيجارة ويشيعني إلى الباب:

- تعدينا وقت الحصة... مشروعك لا تعرضه على من مثلي حان موعدهم مع الرحيل والنسيان... وإذا أردت من يسعفك، اقصد من لهم بقية أمل في الحياة، فلعل وعسى... منهم ربما هذي الخمسونية... على أن تطلبها بعد غروب الشمس.

سلمني اسمها وعنوانها على ورق جريدة، وودّعني مصافحا.

في بيتي أعدت الإنصات إلى تسجيل صوت الشاعر مصطفى الطنحي، وذهب بي التفكير في كل ما قاله، متوقفا عند ما جاء فيه عن أدونيس، هذا الذي حتى لو سترنا كلامه، وسواه كثير في الحداثة واللائكية، تحت يافطة حرية التعبير أو «يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره»، فكيف لا تتصدع مصداقيته وتخور ونحن نقرأ مديحه للثورة الخمينية، ضاربا رقما قياسيا في التقديس والإنبطاح لم يبلغه حتى أشد المعجبين بها. وهذا بعض من زلفاه وارد في قصيدة احتفظت بها في إحدى كراساتي، يقول: «أفقُ ثورة، والطغاة شتات/ كيف أروي لإيرانَ حبّي/ والذي في زفيري/ والذي في شهيقي تعجزُ عن قولهِ الكلمات؟/ سأغني لقُمًّ لكي يتحول في صبواتي/ نارَ عصفٍ تطوفُ حول الخليج/ وأقول المدى والنشيج/ أرضيّ العربية ها رعدها يتعالى صاعدا خالقا/ وحريقا/ يرسمُ المشرقَ الجديد، ويستشرف الطريقا...» ومن لا يشتم في هذا الكلام نعرة تشيعية طائفية ضد عرب الخليج وعرب السنة أجمعين، فليجرب سمعه وبصره في ما هو أحدث وأفضح، أي حملته الشرسة المكتوبة وفي يوتوب على العرب قاطبة كقوم لا إبداعية لهم ولا دور في مجال المعرفة

العلمية والاختراعات التقنولوجية، وهذا من دون أيّ تقصٍّ في إسهامات عرب الداخل ولا في إنجازات عقولهم المهاجرة، وبالتالي فلا مردّ عنده من أن يؤولوا إلى الأفول والزوال. إنه إذن لمن المتدهورين. وكيف، والحالة هاته، لا نشفق على طوابير الأطاريحيين الذين سلخوا سنين طوالا منكبين على دراسة وفلي «المتن الأدونيسي» وحداثته «العظمى»، حتى عموا عن إدراك عبث مبناها وفراغ معناها، ونبذوا منتقديه، وسموا تناصا نحول صاحبها وسرقاته، فلم يفق من الغفلة والتخدير إلا قلّة، صرت منهم بفضل ذلك الرجل ذي الوعي الحادّ والجراءة العجيبة، وانضاف إليه، ولو بدرجة أقل، زميل كان حفاظا لشعره، جاءني يوما وقال: والله لقد صدقت، شعر أدونيس جعجعة لفظوية ولا طحن، وقراءته مضيعة للوقت والجهد. سايرته أيام غفلتي في أحكامه الاعتباطية على الذائقة العربية بما أسماه «الفردنة التجريدية والغيبية المطلقة»، خلافا لما في الشعر العربي من حضور لافت لمحسوسية الصور والمجازات بدءا من المدرسة الأوسية، كما لشيوع المنهج التجريبي عند العلماء والمفكرين المسلمين. أما دراسات خبراء عرب وأجانب في الموضوع

ذاته فلا علم له بها.. وكنت بنيت على كلامه الشارد مقالات أتبين الآن مقدار سخفها وجهالتها. هذا هذا وقد أعذرَ من نبّه.

***

مساءَ يومٍ غائمٍ مطير، تيسّر لي بعد لأيٍ لقاءُ المرأة، جمانة الحراق، في صالون فيلتها الصغيرة، المقفل النوافذ، الخفيض الأضواء. امرأة ميّادة القد، خمصانة، وضاحة المحيا جميلتُه، ترتدي فستانا أسود منقطا بالأحمر، تضع على عينيها نظارة شمسية، لو لم تكنِ تخلعها من حين الآخر لظننتها ضريرة أو معتلة البصر.

هذي المرأة من حيث قوامها وهيئتها خليقة بأن أجهر لها: إليكِ أهرعُ وأتوق، فاحمي جموحي بجاهكِ وهالاتك.

كنت على وشك إنبائها بما جئت من أجله، إلا أنها بادرتني بالقول بعد أن أشعلت غليونها:

- لا تعبأ بنظارتي... أنا قمرية، أحيا بالليل وأهرب من شمس النهار، عدوتي، راصدتي، المتربصة بي الدوائر. وعليَّ إذن باتقاء نبال

أشعتها شديدة البنفسجية، وذلك بالاعتصام بمربعاتي المغطاة، وإذا انتقلْت أحيانا إلى أخرى، حتى في الخريف والشتاء، احتميت بمظلة ونظارتي هاته... هذا مرضي العضال، أبذل جهدي كيلا أخسر في مقاومتي، وأُصاب بسرطان الجلد والعمي، وهشاشة العظام، واكفهرار النفس والكيان.

رأيت من العبث رفع عقيرتي بالدعاء لها بالبرء والسلامة، وسمعتها تقول كأنها حدست خاطرتي:

- إياك تفعل ما أكره: أن تشفق عليّ أو تمسسني بسيل مما لا يفيد: الأدعية... لعله باسكال القائل: «صمْتُ هذه الفضاءات اللامتناهية يرهبني»... أنا لا شأن لي بأي فضاء كوني، وما يرهبني هو فضائي الباطني...

فجأة هرولت المرأة نحوي صائحة:

ـ صحافي؟ أنت صحافي؟

- لا سيدتي، هذي مش بالضبط مهنتي.

أمرتْني بالوقوف وإفراغ ما في جيوبي على

المائدة، ثم شرعت بيديها تفحصني وتفتشني، فلم تجد ما يورطني، لأني لحسن الحظ نسيت حمل آلة التسجيل. اطمأنت فعادت إلى تهالكها على الأريكة، قالت:

- معذرة... غالبية الصحافيين في بلادنا فاسدون مرتزقة. مقابل أيّ دفع إعلامي عليك بالدفع المالي، وإلا فالغبن والطمس! يا ما عانيت الأمرين من سلوكهم هذا ومن عدوانية نقاد، سنوات وسنوات!

شربت من كأسها منشرحة، فاهتبلتها فرصة لالتماس موافقتها على نسخ كلامها الثمين. أومأت بالإيجاب ثم أردفت:

-ذكّرني... إيه... كنت من قبل إصابتي وبعيْدها أداري بالكتابة كربي ورعبي، حتى إذا غمرني شعور بعبثها وهوانها، لأسباب يطول شرحها، عزفت عنها تماما... الحق أن فطمي عنها لازمته آلام وأحزان، زاد في تسعيرها مرضي وانفضاض صديقات ومعارف من حولي. أعضاء أسرتي الصغيرة وقفوا إلى جنبي، وكذلك زوجي الذي لم أخلّف منه، وتوفي بسكتة قلبية تاركا لي زاد معاشي... أطباء الجسم والنفس لما أعيتهم عللي صاروا يبيعونني

الأمل بالتقسيط، ملوحين به عبر اختراع أدوية وعلاجات في آجال قريبة أو متوسطة... صادف تعاظم تعبي من وجوههم ووعودهم أن تعرفت على ولية صالحة، صارت منذ سنة في الرضى بالوحدة والصبر على المكاره مرشدتي، مدربتي، أميرتي، آمرتي، وبالتالي ناقدي من كل حنين إلى دنيا الركض والضوضاء، وحياة اللغو والسُّخف والهباء... كانت وما زالت تخصني مرتين في الأسبوع بسويعات في غرفة صغيرة ليس فيها، كما طلبتْ، سوى قنديل ومبخرة وقطائف. وهنا أؤدي خلفها صلوات، ثم تجالسني فتجوّد آيات قرآنية، وتتلو أحاديث نبوية وأخرى صوفية، ثم ينطلق لسانها وينزلق بأناشيد في السماع والأذكار، فأغطس معها، متأثرة خاشعة، فيما تسميه عالم الفيض اللدني والوهب الربّاني. وفي ختم كل حصة أشعر بتحسن مزاجي وتراجع أوجاعي، فتذكرني أنها إنما تسعفني على نيل الطمأنينة والتخفيف، لا على البرء والشفاء، إلا أن يشاء اللّه...

نظرت السيدة إلى ساعتها، أنبأتني أن موعدها مع الولية قريب، فاستقمتُ واقفا للانصراف. وعلى عتبة بابها صرحت أنها زاهدة في معرفة اسمي وموضوع زيارتي، لأن

الانشغال بمرضها يستهلك كلّ وقتها ولا يترك لها متنفسا، وألحت على وجوب تجنبها وتفاديها من الآن فصاعدا، ما عدا إذا دعتني.

مرت أيام وأعقبتها أخرى. وإذ اشتد تشوقي إلى القمرية وصاحبها الشاعر، ناشدت العريفة، بعد عودتي من سفرة، بالتوسط لي في زيارتهما، فنعتتهما لي. وعوضا عن هذا واستني، كما ادعت، بتمكيني من مخطوطة دكتوراه ألفتها عنهما وعن الست خناثة الوردي أيضا، ولم تجد لها ناشرا. وعند قراءتي للأطروحة متأنيا حينا ومسرعا أحيانا، لم أعثر فيها عما يفيد حقا الموضوع المعلن على غلافها، إذ يضيع بالكاد في نقول طويلة مملة وتلخيصات لنظريات أدبية ونقدية حول السيرة الذاتية والتخييل الذاتي، كما صاغها دارسون فرنسيون حصريا؛ هذا علاوة على هفوات وزلات لغوية فاحشة. ولمّا سألتني رأيي هاتفيا لفقته لها بمفاهيم جد مجردةٍ معصلجة، وألفاظٍ عامة تصلح لكل الحالات والمناسبات، فلان صوتها وتعسّل، وأجزلت لي الشكر على كلماتي الصادقة المطمئنة. وكيف لا تطمئن وتُسرّ وقد نالت لقب دكتورة بدرجة حسن، وولجت به التدريس الجامعي، محسِّنة وضعها الإداري والمادي! كيف لا

تطمئن وتُسرّ ولم يكلفها كل هذا سوى إتقانِ الشحن والحشو، وإجراء تزحلقات عجلي، والمرور مرَّ النيّام بل الكلبيين اللئام على نتاج كُتاب محنتهم الحياة حتى العظم، وأشقتهم العلاقات الساحقة حتى الموت، وكتبوا ما كتبوا بدمهم، ورحيق أحاسيسهم وانفعالاتهم، وعصارة آلامهم ومعاناتهم. ومثلها إجمالا مثل طوابير من الأطاريحيين والنقاد المتعيشين من أعمال مبدعين، يسطحونها تسطيحا ويعبثون بها كثيرا.

غداة مكالمتنا تلك، باغتني الدكتورة بالقدوم إلى شقتي معتذرة، معللة زيارتها من دون موعد بضياع هاتفها واستعجالية مطلبها. كظمت غيظي واستقبلتها بشايٍ وشيءٍ من البرودة لم يخفَ عنها.

سألتها عابسا:

-ماذا وراءك يا دكتورة ؟

مرّرت أصابعها في شعرها المخضّب أكثره بالشيب، أجابت بصوتٍ مرتبكٍ متلطف:

- رغبتي الأكيدة، أستاذي، أن أحظى بشرف تأليف كتاب حوارات معك حول حياتك الأدبية

والخاصة. أنا أسأل وأسجل وأنتَ تجيب، ثم أنا أفرّغ وأنت تصحح وتنقح.

استفسرتها نافرا:

- وبعدين؟

- نجد الناشر ونوزع حقوق التأليف بالمناصفة... فيفتي فيفتي.

- والموضوع الأهم، يا دكتورة؟

ـ دكتورة... سبحان الله! ما سمعت من ينطق بلقبي أحسن وأروع منك... فصاحة وليونة، يا سلام! يا سلام!

- والترجمات الكثيرة من الفرنسية في أطروحتك، من قام بها؟

- هل هي سيئة؟

- سيئة! بل زبل على زبل.

- اللوم مش عليّ...

- وعلى من؟

- ترجماني المحلف، الله يخرب بيتو كيف خرب

حسابي البنكي.

- ترجمانك المحلف! يعني ما عندك إلمام بالفرنسي؟

- شوية، كوم-سي كوم-سا...

- وبعدين يا مدام؟

- آنسة من فضلك... شرفتني بعبارات تهنئة وتشجيع في حق أطروحتي لنيل الدكتوراه، عبارات ما زال عبيرها حتى الساعة يغمرني ويسعدني... ما دمت يا أستاذي فُهْتَ بها صادقة صافية، فأنا أترجاك تزكي أطروحتي بتقديم يبرز أهميتها وميزاتها الأصيلة...

قاطعتها مستاءً:

- ما عدت أكتب مقدمات وما فيش وقت.

- ما دام أستاذي ما عندك وقت، فأنا ألتمس من كرمك وأريحيتك مساهمة في اكتتاب نظمته لي طالباتي من أجل نشر أطروحتي على نفقتي باتفاق مع دار لا بأس بها.

انتبهت الزائرة الثقيلة الظل إلى عزوفي وشرود ذهني. وفعلا كنت أطرق مفكرا في

خيارين لا ثالث لهما: إما أن أجبه هذه المحتالة المنتحلة، الحاملة للقب مزور مسروق، فألقنها في الخُلق والسيرة السوية درسا لن تنساه؛ وإما أن أرمز لها برغبتي عنها وإعراضي، وكان هذا ما فعلت وبه اكتفيت، مراعاةً لانتمائها، وإنْ عدديا فقط، إلى جنس تبخسه كمثيلاتها وتذله، بينما أنا أعزٌ الجنس الإناثي، أفديه بالغالي والنفيس، أرعى حماه وأخدم، ما استطعت، قيمه وقضاياه بعقلي وقلبي ومن عينيَّ الاثنين... وهكذا أغمضتُ جفني وتكومت في قعدتي، مقابلا كلماتها السخيفة بسبابتي أرفعها ناعتا باب الخروج. ولما علا هذيانها صحتُ صيحة مدوِّية، جعلتها تزهق مهرولة متعثرة، وهي تسأل: والمساهمة في الإكتتاب، متى المساهمة؟ وخلف بابي الذي تركتْه مشرعا، أخذت تشمّر عن ساعديها بطيّ كُمّيْ جلبابها الملوّن، متوعدةً إيايَ بمقالاَت لاذعة وعرائض ضد كراهيتي للنساء وعدائي لهن. ولم تهرب إلا حين قصدت الباب لغلقه، ولم ينته طنين صوتها في أذنيّ إلا بعد مغادرتها العمارة.

... وهذي امرأة، كم تمنيتها في البدء قرينة أسكنُ إليها ومعها تحت سقف واحد وفراش موحّد!

إنها حقّا ليست من اللائي يسقطنَ من الأيدي والأنظار، ككتبٍ أو أشياء مملة. حسناء من قربٍ وبعدٍ وفي كل الهيئات. ومن البهاء هي حتى الأظافرِ والأسنان، بحيث قد يُصاب رائيها بالخرسِ بل بانحباسِ الأنفاس.

منخرطةٌ وفية في موجات الجدة والموضة. كلَّ فصل هي في شأن، لكنها تظل دوما بألبستها وحليها ولون شعرها أنيقة، رشيقة، فضلا عن كونها شديدةَ العناية بصورتها وحميتها إلى حد الهوسِ والوسواس، إذ مع أيٍ وعكة صحية، ولو خفيفة عابرة، تناجي متنهدةً من يسمعها: ظننتُ أني سأرحل. الموت في عزّ شبابي، أيّ فظاعة وأيّ هول! أيّ جُرم في حق الجمال لا يُغفر!

إنما هناك عيبٌ في هذي الغادة، كنشازٍ عنيد، يزعج كثيرين في وسطها، ويحدو بالبعض إلى التحفظ بلِ التبرم. فحسبما يقال، كان لها

إيمان راسخ أنها ما خُلقت إلا لكي تحاط بأيات الإكبارِ والمدحِ والانبهار، وأن جمالها لا يزداد ويشع إلا حين تنفردُ به العيون وحدَهُ لا شريكَ له.

كحاجتها إلى الهواء كانت حاجتها إلى نظراتِ الغير الإعجابية وجملهم التنويهية. الحياةُ مع الناس عندها عبارة عن مسرحٍ شاسع، تمر فيه منفردة من خشبة إلى أخرى، لا ديكورَ إلا ما يروقها، ولا أضواءَ تُسلط إلا عليها؛ هذا وويلٌ ثم ويلٌ لمن رمقها مجانبا أو تغاضى عنها، فهو عندها إما لوطيّ أو جيكَولوِ نصّاب؛ والويلُ والثبور للنسوة اللائي لا يعبأن بها أو يشوشنّ عليها، فهنّ من منظورها مجردُ إناث تافهات وساحراِت حاسدات، يرمينها بالعين السيئة، ويتآمرنَ عليها في الظلام كما في واضحة النهار.

بطبعها الصعبِ جدا وتقلباتها المزاجية الغالبة وسلوكها النرجسيِّ السافر، ما كان لمحاولاتها امتهان المسرح ثم السينما إلا أن تبوء بالفشل الذريع والخيبة.

أما أنا وقد آثرتُ الاستزادة من بعض كرمها العشقيّ، ولو لأجل مسمى، فلم يكن لي من

خيار سوى مهادنتها ومداهنتها، هي ذاتُ الأفكار والأحكام والأوامر المربعة، كقَصّة شعرها المفضلة. كل مصاحباتنا -على قلتها- في أسفار أو مطاعم ومراقص كانت تنتهي بمشادات كلامية، لليلى قصب السبق في إثارتها وتسعيرها، تليها قطيعات تقصر أو تطول. وفي هذه وتلك كنت ميّالا إلى الصبر عليها ولزوم مربعي مسالما، عوضَ معاكستها مماحكا، وتلقّي غضباتها الفجائية الجارحة أو الدخول معها في صدامات ومشاحنات عبثية، لا طائلَ لها ولا مغنم. لكنْ يوم أقررُ هجرها، هي وطقوسَها الخرقاء، هِي وتفاهاتها المتناسلة الصادمة، هي وصقيعها الجنسي، فسأمور وأثور هاتفيا وأُخرجُ لها أثقالي، راميا إياها بحقائقها الأربع.

ذاك اليوم، لحسن الحظ، لم يطل انتظاره. فبعد احتجابي عنها أكثرَ من شهر، استجمعتُ شجاعتي وتوفقت، بعد محاولات عدة، في سماعِ صوتها على الخط. استشعرتْ ولا شك موضوع مكالمتي، إذ لم أتمم كلماتي المتأدبة حتى أخذت تفجُّر شتائمها القادحة في حقي، وتسبُّ بلا هوادة أصلي وفصلي وجنسي الذكوري كلّه، وتصفني بمفسد الأوكسجين في هوائها، وتعلنُ برنةٍ رسميةٍ عدوانية أنها

لم تكن تحسبني أكثر من بودي كووارد أو كوريلا في خدمتها ليس غير، وأنها تطوِّح بي الآن كخردل أو عودِ ثقاب مبلل؛ ثم تحدتني أن أقابلها لكي تُسمعني قرارها وجها لوجه. عند هذا الحد، سارعتُ إلى قطع المكالمة للتو. انتقامٌ صغيرٌ منها لنفسي، لكنه أحسنُ من لا شيء، وبعد ذلك بفترة عززتُه ببعث إميل إليها، هذا نصه:

عالمي من دونِك يا ليلي قد تسألين!

أنا في خلطة الآخرين لأتلهي عنكِ وعن تقلبات مزاجكِ المريض، لأنساكِ وأنفضَ الزمنَ

المقضيَّ في عشرتك الشائكة وتحت ظلكِ المرير، بين سندان جهالاتك الخانقة ومطرقة وقاحاتك القادحة.

عالمي من دونك: أن أطلّق فيه بلا رجعة حربك الباردة عليّ وسلامك الأبرد.

عالمي من دونِك: أن ألملمَ شتاتي، وأعيدَ اكتشافَ ذاتي بعد أن أتلفتُها معك في شِعاب اللامعنى واللهو العبثي...

بعد مرور أشهرٍ، علمتُ من فمِ أحد خلفائي في عشرتها، وكان بدوره على باب الانسحاب، أن خليلتي القديمة قبلت من مخرج سينمائي نزقٍ ماجن لعبَ دورٍ في أحدِ مسلسلاته، لكنها سرعان ما استنكرت الدور ومجّته حين فهمت أنه لحسناء هستيرية، وأكد لها المخرج أن هذا الدور هو الوحيد الذي يليق بها ويواتيها كقفاز يد؛ كما أنبأني خلَفي أنها رفضت عيادة طبيب نفساني، حتى حين أصيبت بالسقم والهزال وتوالت عليها الكوابيس والهلاوس. عرضت على هذا الخلف النظر معا في إمكانية مؤازرتها وإنقاذها بالتي هي أحسن، فختم متحسرا بعد أن عقدنا لقاءين تشاوريين: يا أخي، ما فيش فايدة... والله ما فيش...

نهاية قصة ليلى، وقد فقدتُ أثرها تماما، يجوز لي تخيلها لواحدة من شبيهاتها، وهنَّ في العالم بالآلاف المؤلفة بل بالملايين، بحيث يصبح كل تماه معها، ولو بشيء من التفاوت، مجرد مصادفةٍ عرضية ليس غير، سيما وأن جوانب من حياتها الخاصة ظلت بالضرورة خافية عليّ.

نهاية قصتها إذن أو قصة إحدى مثيلاتها، لعلها تكون قابلة لاحتمالات يجوز تصورها هكذا:

ـ عديمةَ الالتفات إلى الوقت الذي يمرّ وينخر، ها هيَ الآن تغوصُ في انهيارٍ نفسيٍّ حادّ، يتأرجح بين انفراجاتٍ خاطفةٍ وكثيرٍ من التشنجات والكبوات...

- مغالِبةً تقدمها في السن، ها هي تتزوج رجلا بليدا طيّعا، ثم تطلّقه لتعقد على آخر ثريّ في أرذل العمر...

. عاجزةً عن الإفلات من عُصابها الموجع، ها هيَ تعانق جو الإغراء الإنتحاري، فتنتهي بالقفز من نافذتها على نحو بهلواني، حتى تُظهر رفضها القاطع لعالمٍ رديء، عبثيّ، يفتقر إلى الهرمونيا والحياة الحلوةِ الرفيعة، ولا يستحقها... لا يستحقها.

على صديق مخرج سينمائي، كانت لي معه سوابق سينارية موفقة، عرضت تلك القصة بمقدماتها وأسباب وقوعها مع تحويرات وتكييفات، وشاورته في الاحتمالات المذكورة أو قل الفرضيات، فتحمس للعرض كثيرا وقال:

- أترجاكَ تحوّل القصة إلى سيناريو والفرضية الأخيرة إلى واقع تمهّد له كل فرضية أخرى وتصبّ فيه... الانتحار، سينمائيا، عملة قوية،

مثيرة للعيون المشاهدة اللّقاطة، وللتفاعل الكثيف السّاخن، خصوصا وأنه يحدث بالارتماء من نافذة عالية. وعليه، لا بد يكون التصوير بفنية كبيرة، بلا موسيقى أو أيّ عنصر يشوش على سقوط الجسم وارتطامه الضاج أو الصامت بالأرض، مع وضع الزوم على الفم النازف بالدم والرأس المهشّم وعلى ما نشاء من الأعضاء...

للتو برقت في ذهني لاحمة نافعة محكمة، وسرحتُ في تصور الحيثيات والتوابع، فإذا بجليسي يسألني عما دهاني.

ـ إنها اللاحمة! هتفت... للإتيان إلى الخاتمة المفجعة وتكثيف الدراما، لا بد من خلق حدث مفزع فاحش، متمثل في ضبط الزوج العجوز لزوجته متلبسة بالزنى مع سائقه على فراش الحلال.

اهتز المخرج طربا، وعيناه ترفرفان ابتهاجا، صاح:

- هو ذا المشهد الفرجة اللي حأنتظرُه بثلاث كاميرات، حتى أعدّ تصوير جريانه ملء الحقل والشاشة ومن كل الزوايا والجهات.

قاطعت الصديق المستنفرَ الهائج:

- أيّ فرجة تقصد يا حسّان؟

- الرجم يا عبده! رجم الزانية، كما يأمر القرآن ويؤكده طارق رمضان...

- لا تثر أعصابي أرجوك، وإلا ضربت بالمشروع عرض الحائط

- ليه ياسيدي ليه؟

- ما فيش آية واحدة تأمر بالرجم في حالة الزني، بل فقط بالجلد مائة جلدة للزانيين معا، بعد ثبوت الجنحة بالمعاينة من طرف شهود أربعة لا أقل، على أن يكونوا من رجال التقوى والعقل والعدل، وهذا شرط يكاد يستحيل تحقيقه... ترى إذن أن رمضان هذا ضلّ حقا وأضلّ في الغرب شرائح عريضة من الخاصة والعامة، كما فعل في حالات أخرى... لكن دعنا من هذا، وعد بنا إلى شأننا... نعم، الزوج العجوز لم يرض برفع دعوى ضد الزانية، حتى لا يتمرغ ذكره في الوحل، ففضّل تطليقها بإحسان.

- بإحسان ؟! أعوذ بالله. مش هذا اللي يخدم

الدراما...

- يا حسان، شوف لك قصة من غير هذي، تكتبها أنت وتخرجها.

- لا سيدي، ما فيش أقوى من قصتك وأولي! هاتِ تطوراتها ونهايتها، فأنا، كما سيكون

الجمهور، متشوق لمعرفتها.

- بعد مشهد الطلاق، تأوي ماريا هذا هو اسمها في الفيلم -إلى شقتها، ملكها الأوحد في الطابق الأخير من عمارة قديمة بلا مصعد. وهنا تستمد الدراما شحناتها من هذي العناصر: اضطرار المسكينة إلى الكفاف مع ضعف الزاد؛ نزوعها المتنامي إلى العزلة وهجر الناس؛ ضمور جمالها وهي على عتبة الخمسين... تكفيك هذي المآسي المؤدية إلى ما يعجبك وتريد؟

- يا عيني عليها! كل عدساتي تكون لها بالمرصاد... ذكرني بمن قال: على المخرج أن يضع الكاميرا في الجرح...

- كوسطا كَفراس... إذن نقف عند هذا الحد. أتفرغ أنا من الغد للكتابة. ادعُ لي ربك

يسعفني في تقمص شخصية ماريا وإنطاقها بما يعبر عن معيشها ووجدانها، ويخدم ما تسمية الدراما وتكثيفها...

ارتعدت فرائص الصديق، قال منبها:

- لكن أنت تعرف مطالب الأوروبيين والغربيين عموما، وإلا الفيلم ما يُسوّق عندهم... إذن لا بدّ من... حشيش وحتى العُري والجنس...

- يا حسان لا هذا ولا ذاك. أنت تعرف ما كتبت أبدا تحت الطلب.

- إذن فقط شوية تطرف ديني ودعارة...

قاطعته مقطبا:

- الآن كفاية! نمشي، كل واحد وشغلُه، وأنا اللي بالهاتف أكلمك..

في الغد، وقتَ السحر وهبوب أنسام طيبة ملهمة، كنت بين سريري ومنضدتي قد شرعت في تسويد صفحات، أولاها لوضع خطاطة أمشهد فيها زمانيا ومكانيا تدرج شخصية ماريا الهستيرية بين مراحل قصتها. تقنيتي في ذلك مراودة الحلول فيها بالتقرب

والتعاطف، وغايتي أن ألامس ما يعج به باطنها من حالات شعورية ووجدانية، وليدة احتكاكها بالحياةِ والزمانِ والخلائق، وبعد ذاك أن أصير لسانها الذي به تخرّجٍ وتعبر، والناطقَ والمنسقَ باسمها وأصالةً عن نفسها.

بهذه الغاية وتلك التقنية، وكلاهما مشكاتي وبوصلتي، هيّأت للسيناريو تسلسله المشهدي والحواري، تنسجه خطية محكمة، لكنها منفتحة على الاسترجاعات والحكي بالأوف، وغيرهما من تقنيات الإخراج الفيلمي.

بعد الانتهاء من هيكلة الخطاطة وتنقيحها، ظننتُ من المجدي أن أضع للعمل نقط ارتكاز، تكوّن في تقابلها وتواصلها مادة خصبة للسرد والحوار. وهذا أمر قد يسْهل عليّ، نظرا لأني أمضيت زمنا في عِشرة بطلتي الأصلية، مازحتها خلاله ومازجتها قبل أن تسوء الرابطة وتنصرم. ومن ذلك أني كنتُ كلما ألححت في السؤال عن سر صمودها أمام تصاعد المصاعب والعلامات المنذرة، اهتديت بعد لأيٍ إلى ما يشبه مولّدا حراريا في صدرها مشدودا بخيط إلى قلبها ورئتيها. لذا كان أخوفُ ما تخافه هو أن يتقطع هذا الخيط، إما بفعل اشتداد الضائقات، وإما بسبب تعاظم

شارات انطفاء المولّد ذاك. وهذا ما يشرّع لي تقويلها بالأون أو بالأوف ما يفيد أنها في أوقات الهمود والوهْن، تشعر وكأن بطارياتها الباطنية تفرغ تماما، فتتهالك على فراشها متأملة تدافع آياتِ العبثِ البليغ؛ أو طلبا للنجدة تتشبث بذكريات حلوة، كالرضيع بحصن أمه... ومرة أخرى، قد أقوّلها: لم يبق من أسباب وقوفي أمام الحياة إلا واحد لا ثانيَ له، إنه خشيتي المرعبة من أن أخرّ ساقطة كبقرة مبقورة مزبدة، مزّقها النهش الوحشي.

ثم بعيد فشل زواجها الأول من رجل بليدِ طيّع، لا أستبعد كونها أضحت تبدي تحديات: بهامة مرفوعة ونخوة عالية، وإشارات سيادية متأنقة، وإجراءاتٍ سواها تتصنّعها كيما تُظهر أن تقدمها في السن، هزيمتها النكراء، إن هو إلا أهونُ همومها القابل للسّتر.

نقطة ارتكاز أخرى تتفرع إلى مفصلين: واحد يعود إلى فترة زواجها الثاني بالعجوز الثريّ الآنف الذكر، فترة قدّرت مدتها بسنة، تمتْ بتلكم الواقعة الفضيحة. وخلالها تزايد إحساسها أن حياتها دخلت مرحلة العدّ العكسي بل الخطوِ الحثيث نحو ما تتوقاه وتكرهه: ترهل الجسم وانتقاص الملكات أو،

بكلمة جامعة، خريف العمر. هذا الخريف الذي أضحى الزوجُ الهرِم ينشر أوراقه الذابلة الصفراء وروائحه المنذرة بالفناء؛ وكلها تنزل على ماريا شؤما وقنوطا، وتصيبها بالدوار وضيقِ التنفس، فلا تليّنها أسباب اليسر والعيش الرغيد التي يوفرها العجوز لها ولا يقصّر.

أما المفصل الثاني فهو المتمثل فيما بعد الطلاق، إذ أشّر عندها على ميل متنامٍ إلى التوحد والعزلة، كما ذُكر، لكن - واعجباه! - من دون أيِّ تعبِّد أو انخراط في طريقة صوفية أو ما شابه. في هذا المنعرج الدقيق، ومن حيث ما قد يخامرها من مناجاة واعترافات، يحسن التذكير بإحساسها المتواتر أنها في مجال التأجيلات المتلاحقة وتضييع السوانح والفرص الثمينة –بسبب هستيريتها- قد حطمت أرقاما قياسية، وبلغت الدرجات العلا. وفي آخر المطاف، وطَّدت الظن على أن ذلك كله إنما كان طريقتها للتدليل على وجودِ حياة أخرى أجملَ وأجدرَ وأنقى، لا تشوبها أمراض وعاهات، ولا تطوف بجنّاتها كوارث وصدمات.

أزفت الآزفة، كل شيء ذي بداية وتدرج لا مناصَّ له من نهاية ماريا التي عانت، طوال

سنواتها الأواخر، من وعكات صحية وأخرى نفسية أبت إلا أن تختار موتها على النحو الوارد أعلاه في الفرضية الختامية، فليُنظر فيها، مع ما يمكن سبغه عليها من تعديلات وتنقيحات.

إنهاء العمل السيناري الحواري تم في ستة أيام بعد أن وضعتُ لمساته الأخيرة، فصار قلبا وقالبا مبعث اطمئناني ورضاي. بالمايل أرسلته إلى الصديق المخرج، وانتظرت ردّه أياما؛ لكنه تماطل في ذلك وتلكأ، حتى إذا وصله احتجاجي، أجابني بما مفاده أن السيناريو، بالرغم من جودته وتميزه، قد بدا للمنتج الفرنسي، بعد أن أطلعه على ترجمة موجزة، مفتقرا إلىِ عناصر الإثارة والتهييج، وبالتالي فلا حظوظَ له، لو حُوّل فيلما، في جلب الجمهور وتحقيق نجاحٍ تجاريّ مربحٍ ومريح. وختم مكررا عليّ نصحه بإطلاق العنان لقلمي في إدراج مشاهد تدور على الجنس والحشيش والتطرف، ومن دون إغفال مشهدِ رجم الزانية وإيلائه حقّه من الأضواء والتبريز؛ فكان كلامه الرديء سببا في قطع كلِّ صلة به، سيما وأنه أمسى من المدجّنين الجدد، المستلبين حتى النخاع، عبيدي الهيمنات الطاغية ومطبّعي التبعية الإراديةِ العقيمة.

من بين أولئك، في قطاع السينما، واحد ضرب في ذلك أرقاما قياسية، وصار نجمَ حسان بامتياز، خصوصا بعد أن أقدم هذا المخرج على تكييف وأفلمة رواية عنوانها «نجوم سيدي مومن»، وهو الحي الصفيحي الفقير الذي أنجب شبابا منحرفين، انخرطوا في عمليات إرهابية شنيعة، هزت فندقا وأمكنة بالدار البيضاء في ٢٠٠٣، وخلفت العديد من القتلى والجرحى؛ لكنّ المخرج هذا استبدل ذلك العنوان الأصلي بآخر يُرضي رعاته الأجانب، وهو «يا خيل اللّه»، مصورا أولئك الشباب الجانحين أحصنةً يمتطي الإله صهواتها، ويحرضهم على أعمالهم الإرهابية، جهادا في سبيله وتقربا إليه... أيّ جهلٍ أبشع من هذا وأحقر! والسينمائيون عموما في بلادي يعادون لغتها لفرط ما يجهلونها. الفرنسية، ولو وسطى أو مهلهلة، هي قرة أعينهم، أميرتهم وأمرتهم، مع تصريف الحوار بعامية مغربية هجينة رعناء. وتنتج عن ذلك أفلام سريعة الطبخ والعرض، سرعان ما تتلاشى ويطويها النسيان. هكذا حالهم، حتى إذا تمكن بعضهم من المشاركة في مهرجانات عالمية، ارتدت إليهم صور صغرهم وضآلتهم، ولكنهم لا يتدبرون ولا يعتبرون.

بعيدا عن ذلك الوسط الكريه الملوث، آثرتُ ترك نصي السيناري حبيس جارورة، تتعاقب عليه أشهرٌ تلو أخرى، فاستعضت عن انتظار مخرجه بتكثيف قراءاتي وكتاباتي الأدبية، علاوة على انشغالي بأنشطة إعلامية وجمعوية منتقاة، وعلى أسفارٍ تلبيةً لدعوات للمشاركة في ندوات.

الندوات!

في المحصلة، لعل فضلها الأول، عربيا، يكمن في إحياء أواصر الصداقات بين البعداء، ثم في المواجهة الحبية أو السجالية، وإذا أمكن في التفكير الجماعي حول قضايا معينة، وربما التمرن على الحوار الجاد المنتج... لكن ما قد يظل عالقا بالذاكرة هو بعض الطرائف والمغربات تحدث بين الجمهور أو حتى عند المتدخلين. ومثلا هذا واحد من هؤلاء إدعى أنه يتوفر حصريا على وثائق خطيرة لطه حسين، ويفكر في عرضها على البيع بالمزاد العلني؛ وهذا آخر يلْحن في ذكر آية من سورة سماها الرمز، وحين تعالت أصوات بالتصويب: سورة الزمر يا دكتور! اعتذر بسرعة ثم استرسل في هذيانه الزاخر، وغير ذلك كثير مما نسيته. لكن مهما أنس فلن أنسى في

القاهرة رجلا ضخم الجثة، طويل القامة، عريض المنكبين، جلس جنبي في انتظار افتتاح ندوة لا أذكر موضوعها، ومن دون سلام أخذ يطبطب على فخذي غير ناظر إليَّ، وحين شعر بتضايقي، التفت إليّ برأسه الأصلع المكور ونظارته السميكة وسألني جادا: كيف هو مخّك؟ أجبت: بخير، قال: أقصد حجم مخّك، أجبت: على قدو... فأطلق ذراعيه واسعا وقال: وأنا مخّي زيّ كذا! غادرت مقعدي للتو مرددا في نفسي: أجسام البغال وعقول العصافير!... وهذي طريفة أخرى: رئيس جلسة يغفو خلال عروضها، لما جاء دوري أعطاني الكلمة وغفا ثم انتبه فجأة معلنا انتهاء حصتي، فشهد لي الحضور بأني ما زلت في البداية، فسمح لي بالاستئناف ثم غفا...

آهٍ من تداعي الذكريات في هذا الشأن وفورانها! فعليّ إذن بإيقاف سيلها، خلا واحدة ما زالت تضحكِ سِنّي كلما عاودني ظرفها وسياقها. فهذا محاضر كان آخر المتكلمين في جلسة أدرتها حول موضوع «الأدب والعولمة». دعوته إلى تناول الكلمة، فبسمل وحمدل وشكر القيمين مطولا، مصرحا أن هذا عليه فرض، وحين نبهته أن الوقت يداهمنا مؤيدا من الحضور، أخذ يهرف بكلام متقطع، مفخم

بقدر ما هو فارغ ولا علاقة له مطلقا بالموضوع، وإذ ذكرته به متلطفا أرغي وأزبد، وألقي باللائمة على المنظمين الذين لو برمجوه في افتتاح الندوة لكان سبق المحاضرين إلى ما سبقوه إليه من أفكار وأطروحات، لا يريد الآن عرضها خوفا من تكرار يكرهه، ثم قام متأبطا محفظته، وانسحب على الفور للتعبير، كما صاح، عن سخطه واحتجاجه، ولاحقه بعض الجمهور بالترديد: «ذهب الحمارُ بأمِّ عمرو/ فلا رجعتْ ولا رجعَ الحمارُ»، وأطلق البعض الآخر العنانَ للنهيق، وجأرت امرأة: وإن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير، وقوي الهرج والمرج، فأعلنت رفع الجلسة الاستراحة مستحقة، مناجيا نفسي: اللعنة لا على الحمار، بل على من جاء بالحمار إلى المنصة.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

مضى عليّ زمنٌ اعتبرتُ فيه الحب بين ذكر وأنثى تلازما بالروح وحسنَ التلاحم، إلى أن صرت من بين المحبين الهاتفين: تلازمنا بالحواس والجوانح كلها وتلاحمنا حتى توحدنا؛ بل ادعيت أن محبَّين إذا اشتكيا من الرتابةِ والأضجار، فلأن حبهما أمسى لغوا ولهوا وهراء...

من ذلك الزمن احتفظت في كراساتي برسالة حبّ تعبق وَجدا ورومانسيةً إلى شابة نسيتُ اسمها ومتى وكيف عرفتها؛ ومما جاء فيها: حياتي يا حبيبتي تخسفُ حين تغيبين، ويشهدُ الباري والفتيان أني أتيت بفواكهِ الفصولِ كلها وبالزهور، وأنا أناشدك: تقبلي هباتي مشفوعةً بعباراتِ حبِّي العاطرِ، وتقبليني ليهتفَ الفؤاد ويرددَّ الحدائق والشطآن: تحيا الحبيبة ويحيا الحبّ! فقبليني إذن وقلِّبيني ليهدأ بالي وأرتاحَ إليك، يا ملاكي ومالكَ مهجتي! يا عنقودَ شذاي ونعمتي التي لا تُفوّت ولا تُشاع...

ثم أتى عليّ زمنٌ آخر، وقد اكتهلت، رأيت فيه

من الأصوب تعليق حكمي في الحبّ، والتحلي بالحياد حيال شأنٍ شائك ومتحوّل بحسب النوازل والحالات، وما تفعله بالقلوبِ والمصائر صروف الدنيا وتقلبات الوجود

أما عن حاضر حالي، فلي مع الشأنِ ذاك من الكبوات والخيبات ما يبددُ أو ينسيني ما عرفتُه فيه من لحظاتِ أنسٍ وألفة، مرت جميعها كما شاءت لها الأيام، ولاً داعيَ للإتيان على ذكر هاته ولا تلك، بسبب ضيق الوقت وانتفاء الرغبة، أو قل لأني أريد لنفسي الطمأنينة والراحة، خدمة لصحتي ورعاية. ومن ثمّ تدرعتُ بالتفاؤل ديدنا وقبلة، وجنحتُ إليه مدعيا أن الناهض من مهاوي التشاؤم هو من يلامس قيعانَ اليأس وعتماته، كما يحصلُ لي اليومَ؛ لكن لا حكمَ لي في أناسٍ من جرحى الحياة تحدث لهم تلكم الملامسة، فإما أن يثبوا لأجلٍ وجيز، وإما أن تنكسرَ حيوياتهم تحت وطأةِ المثبطات والأوجاع المستدامة؛ لا حكم لي ولاسعة سوى أن أدعوَ لهم بالصبر على الرزايا وبالفرج بعد الشدائد.

كذلك سننتُ لي سلوكا سلاميا لا استسلاميا، ومن تلقاء ذاتي لا تحت ولاية معلّم أو شيخ، ودأبت على ريِّه بأفعال، ككظمِ الغيظ، ولفظِ

الغصص، واستصغارِ الإذايات والمكاره، والتريض البدني، وتبني الحِمية في التغذية وضدَّ الشهواتِ الهوجاء والمطامعِ الجامحة والعلائقِ العبثية المهلكة. أما إذا شعرت ببوادر الوهن تدبُّ في أوصالي وخاطري، وتتهدد خطتي ونوابضي، فلا ترياقَ لي إلا في السياحة ما استطعت.

أسفاري: كنت أجريها إما وحيدا في رحلات منظمة، وإما رفقةَ أنيسة خيّرة.

عن أسفاري إبان عطلي في أرجاء الأرض الرحيبة، صرت أحكي لمن تبقى لي من أصدقاء، بعضهم كانوا بالكاد لا ينصتون، وآخرون يسخرون. ومن ثمَّة، حكاياتي أخذتُ أرويها لنفسي على انفراد.

لم تكن تنقص لوحة رحلاتي سوى واحدة إلى الصحراء.

آهٍ يا صحراء!

لكنْ، على عتبة عطلتي السنوية الجديدة، آثرت تجريب العزلة والتوحد قدرَ طاقتي، فليس من سمع كمن رأى، وليس من رأى كمن جرّب، فقرّرت قضاء مدتها الشهرية على

طريقتي في شقتي، ممتعا خادمتي بغيبة إضافية، مكتفيا من القوت بما اذخرته في مطبخي وثلاجتي، ومن خرجاتي بما قلّ ونفع ليلا أو وقتَ السحر.

ساحل البحر الأطلسي من مسكني على مرمى سهم أو شوية أكثر، لكنّ كتلَ العمارات المتراصة المزحومة تحجبه عن نظري تماما، إلا أني أشتمّ روائحه وملحه في حيطاني وخزائني جرّاء ما يُكرمني به من جلطاتِ رطوبةٍ متنوعة الأحجام والأشكال، يحدث أن تظهر لي في بعض نوماتي كائناتِ بخاريةً غريبةً راقصة، لطيفة حينا ومخيفة أحيانا.

إنما قد أجزم أن تحمُّل البحر وتبعاته أهونُ عليّ من ولوج غابة قريبة منّي تسمى الحزام الأخضر، مساحتها ألف ومائة هكتار على امتداد أربعة كيلومتر جنوب الرباط على الساحل الأطلسي بين حيِّ الفتح وبلدة تمارة، تحثُّ لوحات في مداخلها على تنفس هوائها النّقي؛ إنما المحزن حقا أن المستجيب، كما دلت عليه حوادث مروية، يعرّض نفسه في رحابها الشاسعة غير المحروسة لاعتداءات شتى، ليس أقلها خطورة الحلقيات والزحافات المتعددة أوكارُها

في أرض تغطيها غصون أشجار قصيرة، مورقةٍ متدلية، فلا يأوي إليها المتنزهون ولا حتى الحرافيش والمشردون، خوفا على أجسامهم من الوخزات والعضات السّامة المميتة. ولا ريب عند الرائي الفهيم أن عيوب الغابة تعود رأسا إلى قصور التصور والتخطيط لدى المهندسين الزراعيين وأعوانهم، فعموا عن الاقتداء بغابة تمارة القديمة المحاذية لها جنوبا، وذلك من حيث نوعية الأشجار المناسبة، وهي الصنوبريات إجمالا التي تتيح قاماتها السامقة أن تعرّش فوقيا وتنشر ظلالا ممزوجة بأوكسجين أوفر، وتهب للأرض من تحتها شفافية ومرئية. إنها إذن أراضي شاسعةٌ ضائعة، أفسدوا مراميها البدنية، وقد تصبح، لا سمح الله، فريسة السماسرة والمضاربين العقاريين.

وعليه، الأوفقُ لي والأسلم أن ألوذ بشقتي وأعتصم، والخيال على كلِّ حال، كما زعمت، قائم لكي نسخِره ونستثمره. فالحلاج حج إلى مكة على توهم، من دون أن يبتعد عن بيته ولو بقدم، هذا ما علِمته عنه من تسكعاتي في قراءة الكتب القديمة، عملا بإرادتي في تقوية فضولي المعرفي وزادي اللغوي.

فيما يخصّني، المهمة بالغة السهولة، إذ لا حاجة بي إلى أن أقطعَ بدراجتي النارية الرباعية الدفع مسافات ومساحات صحراوية شاسعةً رتيبة، متعرضا لمخاطر مميتة، كالزوابع الرملية المفاجئة، والتيه والعطش، وضربات الشمس، والسرابات والهذيانات، علاوة على لدغات العقارب والثعابين الرقطاء، ولسعات الحشرات الضارة، ومن بين هاته ذبابة تْسي تْسي في المستنقعات، تصيب الملسوع بالنعاس مدى الحياة (كما حدث لأرباب دول غابرة)، وإذا ما أفاق برهة همهم: من أنا؟ من أنتم؟ ثم تخبّط في لجج سباته المتصلِ السّحيق، يتقلُّب فيها ويفوت حتى يغيب تماما ويموت.

والواقع -أعترف- أن بقعا صحرائية توجد سلفا في باطني، وبالخصوص في نزوعي المكتسب إلى التأقلم مع الاعتزال والتخفي، تأقلم صرتُ معه عند اللزوم أقلصُ وسائلي المعيشية إلى الحدّ الأدنى، فأُلغي الحضور في المواسم والمناسبات الاحتفالية، وأمحو كل أثرٍ قد يدل على مأواي، متفنِّنا في إطلاق ألقاب متنوعة عليه، تلتقي كلها في معنى واحد: مأوى مراودة التأمل المعمّق.

مع مرِّ الأيام في شقتي، لكأني أخذت شيئا فشيئاً أتخلص من عبء جسمي، ومن سيول الكلام وزخارفه اللصيقة بمحيط قائمٍ على الفقاعات وللمجهول.

في ليلِ يومٍ مخصوص، رأيتُني فيما يرى النائم أني على حافةِ هوةٍ سحيقة، يصيبني النظر إليها بدوار حاد، فلا أبدده إلا بالرجوع القهقري والوقوعِ في هذيانٍ عنيدٍ كثيف، أراني الحميرَ ديَكة، والغربانَ حمائم، والأحجارَ جواهر؛ كما تظاهرت لي ليلا ونهارا رؤى أخرى غريبة، زئبقية، كانت كالفَراش المفتون تفنى سريعا في اصطدامها بيقظاتي المباغتة، مخلفةً لي ذكرياتٍ متلاشية، يربطها خيطٌ عنكبوتي واهن. إحداها: مُسختُ حشرةً سامّة تعيث وخزا في الأطراف الحميمية لذئبة تائهة، تشبه عيناها - واعجباه! - عينيّ زوجتي الثانية، التي ما زالت حية ترزق!

وعلى ذكر هذه المرأة، ذات الوشوم والخيلان والخلاخل الغريبة والأزياء المثيرة، عند متمّ شهر عسلنا متبوعا باستفحال أمرنا مدة عام، كان أن توافقنا على فسخ عقدنا بالتي هي أحسن. وغداة فراقنا بلا رجعة تسربت إليّ

إشاعات، أمضَّها أنها باتت تدعي لصاحباتها وخلانها، أثناء مجالس الخلاعة والنميمة، أن الحجة الوحيدة التي بها كانت تلقمني الحجر وتقمع مقاومتي، هي حين تصير كفيلةٍ هائجة في متجر للخزفيات، فتقلبُ طاولة الأكل، وتمعنُ بكثير من الدقة والإصرار في تهشيم الأواني والأثاث، وكلّ ما تصادفه يداها ورجلاها... وإذا ما سُئلتْ عن سبب فعلها التهشيمي هذا، تجيب على الفور: حتى أتجنب ضرب زوجي بحزمة حرير أو، إن لم أجد، بكمٍّ فستاني.

رسالتي الوحيدة إليها قبل طلاقنا، قلت فيها:

بعد التحية يا رقيه،

أسألك لِمَ تُشهرين دوما في وجهي شعلة إيمانك بالحداثوية المطلقة ووجوب قطع دابر الماضي، شعلة كأنها غرامية ملتهبة أو دينية متطرفة...

عبثا دللتك -كم دللتك! - على نظريات الفلاسفة في الموضوع، وعلى أقوال وشعارات رُفعت من قبل في أرجاء العالم وأضحت اليوم شظايا من الماضي وذرات...

عقيدتك التي ما فتئتِ تصدعين بها وتبرزينها لي، إن هي إلا هامش في جدول مهامي وهمومي، لا لأنها عديمة الجدوى ومفلسة فحسب، وإنما أيضا لكوني أنزعج وأملّ من كثر لغوكِ فيها، ومن إقحامك إياها عنوة في كل الطبخات والمقامات. وستهلكينها آخرَ المطاف إن لم تهلكِكْ من قبل. تغيير أسطوانات المشروخة ومحو حقدك الأهوج على الجنس الذكوري، الإنصات إلى موسيقى وأغاني مغايرة، السياحة في الأرض الرحيبة وفي القراءات الرفيعة الرافعة، هي ذي تمارين، ضمن أخرى، عليك بتعاطيها ملءَ وقتِك وأنفاسك، حتى تسعين إلى اكتشافِ حقولٍ وآفاق، أنوارٍ جديدة وأشواق، لم يخطر وجودها على بالك يوما، ولا تبدت لكِ حتى في المنام... وأخيرا تذكري ديوانا أصدرتِه وادعيتِ أنه سيكون قنبلة تهز أركان الأدب والسياسة في البلاد، وتكشَّف لكِ من بعد أنه مجرد فرقعة لم يصل صداها إلى أحد سواك. ومن بعد رميتِ به في مزبلة الأنترنيت ورجاؤك المعلن: قرصنوني قرصنوني! هذا هذا، فاتعظي وتواضعي، وعليك أهدي السلام.

بعد تلك المرأة المُرة الماكرة، وقبلها زوجتي الأولى المتوفاة، طيّب الله ثراها ونعّمها

بالجنتين، لم يتيسر لي العقد على أخرى جديدة، وذلك لأني في طوري هذا صرت متخذا موقفَ من يتعشقُ ما لا يوجد، وربما مدى الحياة لن يوجد.

وما هي إلا أيام معدودة حتى فارقتني رؤايَ المنامية المرعبة، فشرعت أقضي ساعاتٍ طوالا أثناء الأيام الأُخر في شرفتي، أستحم بدوشٍ بارد ثم بأشعة الشمس الساخنة. وتحتَ الأنوار المشعة التي يعجز أيٌّ كان عن بعجها أو نهشها، بحثت لحسابي عن تملك فضائلها وأسرارها، مستعينا في هذا بأفكار شعراء وحكماء مستنيرين، مسطَّرة في كتب بينة أحطتْ بها نفسي وآنست، ونهلت منها في شرفتي أو على فراشي.

كذلك مرت عطلتي الصيفية في فضاء شقتي. ولما استأنفت عملي في وكالة صحافية، رأى بعض زملائي متأسفين أني هزلت جسميا، لكنهم في المقابل هنأوني على كون جلدي تشمّسَ وتبرزن.

وهذي واحدة من أولئك، زميلتي في الدور، ذات الجلباب الملون والحجاب الشفيف، دنت مني في مكتبي، فباست على خدّيِّ سمرتي

المكتسبة، ثم سألتني عن سر ولعي بالأسفار، ففبركتُ لها عفوَ الخاطر تبريرات عصت إجمالا على فهمها، فلم تطلب توضيحات، واكتفت بتقويس حاجبيها وفغرِ فيها. وحين همت بالخروج رددتُ عليها بوستها، فانصرفتْ وهي تنبئني أن بعض الزملاء يفترضون أني قد أكون أمضيت عطلتي في إحدى الجزر اليونانية، أو ربما في ميامي أو هونولولو...

هونولولو، يا عيني عليها!

وميامي؟ أيضًا أيضا!

بعد مرور شهرين على تجربتي التوحدية، تم نقلي بل إعادتي من الرباط إلى الدار البيضاء، مدينة مولدي، للعمل في القطاع الإعلامي نفسه. وهنا، بعد قضاء مدة في التأقلم والإستئناس، دُعيتُ إلى حفلٍ راقصٍ مختلطِ الجنسين، بورجوازيِّ الجو والصبغة، في فيلا بأحد الأحياء الباذخة. وكدأبي في كل مناسبةٍ كهاته، تجمّلتُ وتأنقت، فاستجبت لربّة الدارِ والدعوة، التي كنت خليلها في أيام خلت، ولم تعد تلزمني منذ فترة بالحضور مصاحَبا، بعد أن أذعنتْ لدليلي المفحم: أنا مهلهل الإيمان، لا يحسن بي أن أتخلى للرهبان عن احتكار العزوبة، ولو أن أعدادا منهم يصرفونها على غير وجهها السّويِّ الخالص.

ملقيا نظرة إجمالية على الضيوف، استرعتْ اهتمامي امرأة رائعةُ الحسن، هي والمرحومة زوجتي على شبهٍ عظيم. رجُّحت أنها قد تكون مثلي وحيدة. بخطى ثابتةٍ وئيدة، تقدمتُ نحوها مستقيما، لكن بذهن لاهٍ ونظراتٍ شاردة. ومن دون لفِّ ودوران همستُ في أذنها:

ـ أنتِ سيدتي...

أجابت بصوت جهوريٍّ هادئ:

ـ آنسة من فضلك...

-عفوا آنستي... انجذبت نحوك لأتك، سبحان المصور، ذات جمال باهر!...

قاطعتني بضحكة ملائكيةٍ خافتة نفذت إلى حواسي وحشاي. متشجعا تابعت:

- باهر جمالك وأيضا مربك... انظري، إذا لم تدعميني قد أسقط على ظهري وأهشم بعض

فقراتي...

لما رأتني على وشك فقدان توازني، تأبطتْ ذراعي، فاغتنمتها فرصة لجذبها برفق إلى فضاء الرقص، حيث موسيقى Sexy Slow Together لفاوستو بّابيتي أهدتني لحظات رائقةً ممتعة، تنسمتُ خلالها شعرَ مُراقِصتي الأشقرَ الحريريّ وعطرَ جيدها وصدرها المنفرجِ البارز. ناجيتها بكلمات سكري من وحي جوانحي الملتهبة وشوقيَ

الهائج، فيما الراقصون من حولنا استحالوا في مدى بصري إلى أشباحٍ شاحبة، وأمست كَلا شيء نظراتُهم الفضوليةِ الرامقة.

طلبتُ اسمها، بثت في أذني: أنا من أم مغربية وأب فرنسي، سمياني إيزابيل أو إيزا عند الأحباء عبرتُ لها عن تفضيلي بيل لخفةِ لفظهِ وتناغمهِ البهيّ مع مسماه. كشفتُ بدوري عن اسمي: عبد الله أو عبدو عند الأحمّاء. جاوبتني أنها تؤثر تسميتي لاه. اعتزمتُ تنبيهها أن هذا تجديفٌ وشرك لمّا أن تغيرت موسيقى الرقصة إلى أخرى صاخبة، فاستأذنتني في التغيب قليلا لتسوية هندامها ومكياجها. ذهبتْ تاركةً لساني ينغلُ بأسئلة عن عنوانها وعملها وعلاقتها بالسيدة عواطف مضيفتنا.

معتصما بالبار، ترقبتُ عودتها على أحرَّ من الجمر. للتخفيف من قلقي جرعتُ مسكرا قويا، ثم أشعلتُ سيجارا ونفثتُ دخانه الكثيف بشيءٍ من النرفزة ونفاذ الصبر، فما لبث خادمٌ أن دعاني بلطف إلى إكمال تدخيني في إحدى شرفات الصالون. لبُّيت صامتا. ومن الشرفة حيث أقمت، كم ذُهلت لرؤية إيزابيل على بوّابة الفيلا تنطلق في سيارتها المكشوفة بسرعة فائقة؛ سيارة، عدا لونها

الرمادي، لم أتبين نوعها ولا رقمها، والليل يُرخي أولى سدوله. أن أقفز من الشرفة وألحق بها في سيارتي، بدا لي هذا جهدا ضائعا وفكرة خرقاء، فرجعتُ القهقري، وعبرتُ صالون الضيوف تحت نظرات مستغربة وأخرى حاجة. شكرتُ صاحبة الحفل على دعوتها الكريمة، ثم يممتُ باب الخروج باصطناع نوعٍ من الخفة والأنفة، تحمي ظهري ضحكات أنثوية ضاجة، وينتابني شعور حاد بالحرمان جراء إضاعتي غنيمة، وأيّ غنيمة!

بعد قضاء ساعاتِ من أسبوع في البحث عبثا عن فاتنتي الغائبة، قررت تقصي أخبارها من الست عواطف. لكن -والوعتاه! - لا باقتي الوردية الوفيرة إليها وألواح الشكولاتا الأثيرة لديها نفعت في تليين قناتها، لا ولا كلماتيٍ اللبقة في مدح شيّمها وشمائلها. غاضبةً أعرضت عن أسئلتي بالجملة، وأنكرت بعنفٍ كونها دعت آنسة عالية القدّ شقراء اسمها إيزابيل. وقبل أن تأمرني بالغروب عن نظرها لعلعت ساخطةً: ما كفاك رميي كخرقة بالية، واليوم ها أنت تظني كمدام كلود، أتعاطى القِوادة!

عابرا الحديقة نحو عربتي، تلقيتُ على رأسي

ورودي والشكولاتا، فتنازعها الخدم نشطين فرحين.

صورة متيمتي المختفية ظلت تداهم لياليَ ونهاراتي. أخذتُ في ارتياد الأماكن والدوائر التي افترضت أنها تحضرها، لكنْ من دون طائل. ومع تدافع الأيام وتزاحم أحداثها، كانت ذكراها قاب قوسين أو أدنى من التلاشي، لولا أني في صباح خريفي لمحتُ في منعطف زقاق امرأةً تشبه ضالتي المنشودة كقطرتيْ ماء. قاربتها متأدبا، ومن باب التحوط رجوتها في البدء أن تدلّني على ساحة سميتها وأعلم أنها بعيدة. رمتني بنظرة غامضة وأشارت إليّ باتباعها متباعدا قليلا. نفذتُ الأمر طائعا، فاجتزتُ خلفها رحابا وأزقة ملتوية فبابَ عمارة قديمة، إلى أن ألفيتُ نفسي معها وجها لوجه في غرفة من درجة متدنية، فقيرة الأثاث، ينير زاويةَ فراشها ضوءٌ أحمرَ باهت. تخلصتْ من معطفها وشالها وحذائها، ثم صوّبت نحوي كلماتِ مهددة:

- بستمئة درهم أو خمسون دولار فقط إن أسرعت...

شاخصا، دائخَ الذهن، ركّبتُ جملا بصعوبة

جمة:

- إيزابيل، أخيرا وجدتك! هل نسيتِ مَنْ أنا والسلوو اللي رقصناه عند مدام... ذكّريني باسمها...صحيح مرت شهور على لقائنا، لكن...

أطلقتِ المرأة زفرات متضرعة:

- يا رب، إيش ذنبي حتى تسلط عليّ هذا المهبول في عشي؟!

في شدة الارتباك، حاولتُ رفع اللبس مرة أخرى:

- إيزابيل، أرجوك، بعض الجهد... تذكري اسمي، عبد الله أو عبده، ولحظات رقص رائع جمعتنا... إيزابيل!

صاحت بصوتٍ قويٍّ أجشّ يجرح الأذن:

- أنا من بنات الرصيف، عاهرة. تريد تقدف أم إيه؟ والمبلغ على أيّ حال تؤديه، لأنك انتهكت حرمتي بقصد اغتصابي.

من دون أن تنتظر جوابي، أخذت تتعرى، آمرةً بالأداء مسبقا والإسراع. فاقدا صوتي ومرتعدا من فرط الهلع قصدتُ الفرار، إلا أن عملاقا

أصلع، موشوم الذراعين، مفتول العضلات، برز من حيث لا أدري، شدَّ على قفاي، جردني من ساعتي ومالي وهاتفي، وطوّح بي خارج الباب أمرا إياي أن أزهق. هل كان لي خيارٌ آخر سوى الرضوخِ حتى أنجوَ بنفسي وبقية كرامتي. لكني توقفت في منتصف الدرج وترجيته أن يرّد لي الموبايل صوّب إلى مطلوبي نظرة محقِّرة ورماني به. هرعتُ إلى التقاطه فسقطتُ أرضا بفعل التواءٍ في قدمي، ثم نهضت وغادرت المكان بخطى مترنحةٍ عرجاء. وحين ازداد ألمي من كثر ما مشيت، عرُّجت على صيدلية حيث التمستُ من صاحبتها الإسعاف، فسارعتُ مساعدتها إلى رش قدمي بكحول ودلكه بطلاء فلفِّهِ بضمادة لم تمنعني من انتعال حذائي. أردت رهن معطفي ريثما أعود للأداء، لكن المالكة امتنعت وأوصتني بزيارة طبيب إن لم أبرأ. أجزلت لها الشكر وانصرفت.

أثناء عودتي إلى بيتي، متكلفا رفع هامتي وتنشق الهواء ملءَ خيشوميَّ وصدري، عقدتُ عزمي على طيِّ صفحة امرأة اسمها الحقيقي أو المزور إيزابيل، ثم طردها نهائيا من أيامي وذهني؛ وسيكون شأنها كذلك بإقبارها تماما في سجل ذكرياتي القديمة،

وبين ثنايا عثراتي وضلالاتي.

اللعنة اللعنة على الأشباه والنظائر!

هي الدار البيضاء ذات الكثافة السكانية العالية، والتفاوتات الطبقية المريعة، والتلوث البيئي، صرت في ساعات اكتظاظ شوارعها استرق النظر، رغما عنّي، إلى وجوه النسوة المتدفقة وأبدانِ المتمايحات منهن. ومن حين لآخر، خلال جولاتي الحرة الطليقة، كنت ألمح هنا وهناك واحدة هي والمختفية إيزابيل توأمان، إلا من تمايزٍ اصطناعيّ في المكياج وقصة الشعر ولونه. غير أني في كل مرة، أبادر إلى لجم نفسي الأمارة باتباع الهوى والتقصي. ودأبت على هذا النهج، فلم أَحِدْ عنه مضطرا إلا صباحَ يوم ربيعيِّ بهيٍّ، تبدت لي فيه امرأة تمشي الهويني على رصيفِ شارع قليلِ المارة، امرأة هي والمدعوة إيزابيل كحبتيْ أرز، ولو أن شعرها الحريري كستنائيٌّ اللون. كانت تخرج من مخزن نسائي وتدخل آخر، ويداها تمسكان أكياسَ مقتنياتها.

كيف السبيل إلى مفاتحتها من دون أن أزلّ وأعل؟ وبأيّ كلمات تنأى عن الرائجة منها عند محترفي التحرش والغواية، أعوذ بالعقل

والعفة منهم؟

احترتُ في ذلك وطال تفكيري، وأنا على بعد أمتار أقفو خطاها، وبصري عليها لا يزيغ. ولما طال بنا المسار، استجمعت قواي، وتوكلت على فراستي وحدسي، فدنوت منها وهمست قريبا من جيدها العطِر: إيزا، فاستدارت دهِشة سائلة: كيف عرفت اسمي؟ سردت لها لماما، وأنا أمشي خلفها كما طلبتْ، قصة لقائي بها عند السيدة عواطف ورقصة سيكسي سلوو التي جمعتنا. أصدقتني القول بعد أن أبدت جهدا في التذكّر، بل ذهبت إلى الإعلان عن أن اسمي قد يكون أحمد أو عبد الله. أكدتُ صحة الثاني واستمررت في السير، فيما هي لائذة بالصمت، لا ترد على وشوشاتي وأسئلتي، حتى إذا بلغنا ساحة وسيعة أخذت تصرخ في وجهي، تلطمني بأكياسها وتُشهد المارة على تحرشي بها، وإذا بالتفاف بعضهم من حولي، وإذا بشرطيين يقدمان، فيتحريان في الأمر. طلبا منها مصاحبتهما معي لتسجيل شكايتها، فاستنكرتِ الطلب، وقالت متقززة قبل أن تنصرف: أنا أدخل المخفر! خذوه وهؤلاء شهود على فعلته... وبعدها لم يجدا أحدا يشهد ضدي بل صاح أحدهم: أصاب من قال للرجل

عورة، والمرأة عورة كلها... وصدع آخر: شوفو يا ناس المختالات المتمايحات المزوقات، شوفو المتحرشات نصف عاريات! {{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ}}، كما أمرهن كتابنا المبين... قال الشرطيان: لا شكاية لا متابعة، فانفض الجمع، فيما شباب يغنون: مانا إلا بشرْ/ عندي قلبْ ونظرْ/ وانتِ كلّكْ خطرْ/ ما تبقشي تْحقّقي فيّ...

في بيتي تهالكتُ على الكانبي، مفكرا فيما يحدث لي من مغربّات وورطات، ملتمسا المسك بأسبابها وخيوط تناسجها. وحين التبستْ عليّ عقدٌ دون أخرى، شغُّلت هاتفي والتلفاز طمعا في استراحة ذهنية قد تحسّن لي شروطَ الاستئناف وتعميقَ النظر.

ربّ قائل يقول: هذي أمور عصية، لا يمكن للمرءِ فيها أن يكون طرفا وحكما، فلا مناص معها من خبير نفساني درس طويلا وتعلّم، حتى تمكن من كسب مهارة فك ألغاز اللاشعور وتجلية مستغلاقاتهِ وغوامضه. وجوابي أُدلي به بمنتهى التواضع والتعفف، وهو: لكي أضع نفسي بين يديّ ذلك الخبير، يلزم أن أسلِّم أني مريض وعاجز عن الاستشفاء الذاتي فالتخلصِ من أحوال

تتسلطُ عليّ ولا أتسلّط عليها. فهل مثلا أسأل عن وفاة حرمي وابنتي في حادثة سير مروعة؟ وهل لي دخل في هروب المدعوة إيزابيل، شبيهة فقيدتي، وضياعها منّي؟ وهل قصدت الحصول في فخيْ عاهرة ثم امرأة هذا اليوم شبيهتيْ الهاربة؟

أعلم سلفا تفسير الخبير، يلقيه عليّ كأنه اكتشاف: أنت في ولعك بالنساء إنما تبحث عن زوجتك الميتة، وتتخذ الشبه تعلة وذريعة... وقد ينشدني الأديب: «أريدُ لأَنسى ذكرها فكأنما/ تَمَثَّلُ لي ليلى بكلِّ سبيلِ «...

لا... ما حكْ جلدكَ مثل ظفرك. والخبير النفساني لن يراني إلا إذا انكمشت طاقتي الحرارية وتلاشت، لا سمحْت، ولن يحلل نفسي بالتفتيش والفلي إلا أن تنكسرَ نوابضها فتهونَ وتخِرّ، لا سمحْت.

كوُّرت بضع ساعات بين ردود هاتفية تافهة والسبوح بالزابينك في قنوات قريبة أو بعيدة. ولما اعتكر الليل، تخليت عن كل ذلك وقصدت الحمام لتنظيف جسمي وإزالة جناباتِ هذا اليوم. على سريري الوثير المتسع لأكثر من عابرة، استعصى عليَّ النوم بسبب تلاطمِ

بقايا صورٍ وكلمات في ذهني، فاعتصمت برواية ظلّت فصولها الأخيرة في انتظاري، وأكملتها ولمّا ينتهِ سهادي.

عندئذ بلعت منوما لمغالبته، كما اعتدت.

حين أصبحت كانت ذاكرتي ما زالت تخفق برؤيا منامية، لا هي عادية ولا كابوسية، برز فيها رجلٌ متأدب أنيق، تشي كسوته ونياشينه بأنه موظف سامٍ في الأمن أو الجيش، وأنا في مكتبه الباذخِ الوسيع أجالسه حول طاولة مرطبات وحلوى، فأخذ يقرأ في جذاذة: عبد الله المانوي، أرمل، موظف بوكالة المغرب العربي... شكرته على لطفه وحفاوة استقباله، بينا هو يردد بلهجة النصح: «في أيِّ شيء، إن شئت لا تنضبط، إلا في الحياة العاطفية. فعليك إذن بحل كحلّي... «وعند هذا الحد اسوّد الشريط وانصرم؛ ثم أعقبه آخر أظهر لي زوجتي المتوفاة، وهي تجتهد في إقناعي بكلام كثير، لم يبق منه عالقا بذاكرتي حين يقظتي إلا ألفاظه الأواخر: أسكنْ إلى زوجة حية مريحة، أحبلها طفلا يعوضك عن سلوى، ابنتنا، فلعلَّ الحياة هكذا تصير حلوة نضرة...

لا لوم على خادمتي التي لبّت طلبي بحشو كمية هائلة من أوراقي ودفاتري القديمة في كيس النفايات. لكنْ بعد التخلص منها بيوم، وقعت عيناي على بقايا علقتْ بإحدى كراساتي، ففلتت بأعجوبة من عملية الإزاحة والرمي، وهي بعد تصليح الخروم وتنقيح الفقرات:

أأنتِ، وفي هذا الصباحٍ! تأتينَ مع التغريدةِ الأولى والعنفوان، محمّلةً بالبشارات وتمطرينَ عطاءات... أأنتِ! يا بهجةَ النفسِ والعين تفيقُ على رؤياك يا طالعَ سعدي، تَأتينَ يا زادي وحصيلتي وقد نفدت كلُّ ذخائري!... تاللّه ما أحلاك، يا عينَ الحسنِ والبراءةِ والطُهرِ وما أتقاك!...

وهذا نص شعري (إن صح النعت) نجا أيضا من التلف، ألفيتُ كلماته وحتى حروفه (من نصب وجرّ وعطف وإشارة) مشتتة على سطور ومنفردة بها سطرا سطرا، كما كانت الموضة أيام كتبتُها، بحيث يصير القولُ فيها مفخّخا ممطّطا، فإذا ما أنتَ أعدت تصفيفه ملءَ

السطر والصفحة، من باب الاقتصاد على الورق وتقدير ذائقة القراء على قلتهم، إذن لتحصّلتْ لك حوالي عشرين صفحة أو أقل، تُسمى عند النشر ديوانا. وهكذا أعدتُ تحبير النص ولملمتُ شتاته، فأضحى هكذا:

حلّ المغيب يا غادتي واشتعلَ الشفقُ / فيا فسيحةَ القلبِ والأوقات/ قادني إليكِ نجميَ المتالقُ/ وطائرُ الأشواقِ في الشرفات/ هوذا جسمكِ الغضُّ طاقةَ حُسنٍ وضيّاء، قد تسربلَ واسعا بالدفِءِ والبهاء/ وهأنذا ثملٌ بكِ، طافحٌ بالحبِّ والرغبات / فتعاليْ إلىِ كنفيِ ننشدُ النصرَ ونُرضي الحاجات.../ طلعَ الصبحُ علينا/ فاستقبليني شدوًا/ يا من ألهمتني فجوري/ وأتيتها بهوايَ حَبْوًا / من كيانٍ قلقٍ ولهان وأرضٍ رحيبةٍ يباب.

وهذه قطعة ناجية من رسالة إلى فاتنةٍ كنتُ علقا بها كلِفا، وطالبا يدها لو أنها بقيت حيَّة مشعّة:

إني وقعتُ فيكِ عاشقا، وأنتِ سوفَ تقعينَ تحتي حُبلى. عيوبٌ لغوية ولا ريب! فوحقِّ حبنا إني بكِ وأنتَ بي وقفنا وارتقينا، لا وقعنا... أمنيتي الأغلى، التي أنتِ بها أولى: ما إن

ننفض أيدينا من إكراهات الحياة اليومية وشواغلها، حتى ننصرف إلى قضاء أيام أسعد وأبهى، في بقعٍ من عدْنٍ ترسّبت بعد الانفجار الأعظم على كوكبنا الأرضي...

بعد قراءتي المتكررة لتيك البقايا الناجية، استبد بي ندمٌ شديد على تضييع نصوصها الكاملة، وتوقٌ أشدّ إلى استعادتها هي وأخرى كثيرة من طينتها وأريجها. لا يصحُّ ولا يليق أن تُلقي سطورٌ رومانسيةٌ غنائية في قمامة تِلحق بمطرح عمومي للأزبال موعودة للجرف فالطحن والتدوير.

هكذا في الغد بكرتُ إلى حيث مطرح بضاحية المدينة، فاستيقنتُ بدءا من شباب التنقيب أن التنقيل لم يلحق بعد أكوام النفايات الممتدة على مدى هكتارين أو أكثر، ثم كلفتهم جميعا –وكانوا أحد عشر فردا- بإجراء عملية بحث واسعة النطاق عن قطع أوراق بيضاء عليها كتابات خطية، وأن يأتوني بها لقاءَ مكافآت مغرية.

وفعلا انطلق الفريق إلى ما طلبته، وتربعتُ أنا على صخرة بتلِّ يهب لعينيَّ قدرة التتبع والمراقبة. ولمغالبة مرور الوقت وقلق

الانتظار، أخذت أدخن وأقلّب البصر في منظر المطرح الذي أصبح يتقاطر عليه كهول وقطط وكلاب ضالة، وأنواع من الطيور تتقدمها النوارس واللقالق. وظللتُ هكذا منصرفا بفكري إلى جموع المنقبين الذين اضطرهم شظف العيش وعنفه إلى البحث في مرميات القمامات وفضلاتها عن لقمة سد الرمق. وبين ساعة وأخرى كان بعض أعضاء الفريق يجيئون إليّ، فيُخرجون من أكياسهم العفنة قطعا شتى من الورق المتسخ، لا أجد فيها بعد الفحص ضالتي المبتغاة، فأناشدهم مجددا أن يركزوا التنقيب على أوراق مكتوبة بخط اليد دون المطبوعة أو المفصولة عن مجلات وجرائد.

في انتظار أن يعودوا إليَّ، ولو بنتف مما يفيد، علقتُ أملي أو بعضه على شاحنات ثلاث أقبلت وأفرغت حمولاتها في مدار المطرح، ثم غادرته. عندئذ ازداد عدد الوافدين والحيوانات، وقويَ الحراك والدبيب في هذا الفضاء المفتوح على السماء التي حرّت شمسها، وعلى التسابق والتنافس لاختطاف ما لم يستولِ عليه عمال الشاحنات من خردوات ومواد قابلة للمعالجة وإعادة الاستعمال. ورأيت من على تَلّي أن التنازع يحدث أحيانا

والشجار، فنزلت إلى الميدان التحري. لاحظت أن سبب ذاك أكياس صغيرة تحوي أجزاء صلبة أو بلاستيكية، كالعلب والقنينات، وأخرى متنوعة الأحجام من أجهزة إلكترونية فاسدة وأثاث منزلي مهشّم وأدوات المطبخ وسوي ذلك، علاوة على قطع خبز ورغائف قيل لي إنها تباع لأصحاب الدواجن. حاولت الفصل فالتحكيم، وقد أقول توفقت، إذ عوّضت هذا المتنازع أو ذاك بقدر من النقود وكلام النصح والتهدئة، ثم رجعت إلى موقعي تتبعني روائح القاذورات وحشرات طيّارة يتقدمها الذباب الممعن في الإزعاج والمناوشة، فقاومته بما استطعت.

وفيما عاودت إنشدادي إلى المطرح، وقد تحول إلى مسرح تغمره وتتحرك فيه كائنات شبحية ولو أنها من لحم ودم، إذ أقبل عليّ شاب من الفريق، لعله الأكبر، أعور من عين بسبب شظية زجاجية صدمتها، كما قال، فعرض عليّ أشياء قال إنها أهم غنائم هذا اليوم ويهديها إليّ، وهي كانبي صغير وسخٌ مفككُ الهيكل، ومروحة وكاسكيط. قبلت الهدية شريطة أن يِقبل مني نقدية، فامتنع. وحين ألححت، أخذَها خجلا وانصرف وهو يجيبني عن سؤال حول حياته: لو حكيت

شوية منها والله تبقى هنا تشهق حتى يطيح عليك الليل، وأنا يا عمّ ما أحبّ أبكيك...

وبعد الشاب الجواد الممتنع عن إبكائي بذكر قصته، جاءني آخر عارضا عليّ حزمة أوراق ممزقة، ميزتها أنها مخطوطة. فتشتها من كل وجه، لكن من دون أيِّ طائل، فشكرته. بسط أمامي كيسا واستّل منه زوج قفاز وهبني إياه، فقِطّا قال إنه فارسي سرقه من عجوز يساومها في استرجاعه بالثمن الذي يريد؛ ثم أخرج كليبا من نوع كانيش قال إنه دوكازيون حلال أي مستعمل وغير مسروق، وعرض عليّ شراءه بثمن حبِّي سرعان ما أديته ومن دون تسلم البضاعة. تعجب للأمر فصرفته هامسا: هدية بهدية...

وبعيد انصراف الشاب أقبل عليَّ تباعا فتيان آخرون، كلٌّ يكشف لي عما وجد. لا شيء عندهم مما أبغي. طالبتهم بالكف عن البحث، سيما وأن أحدهم أبلغني أن تنقيل أكوام الأزبال قد يتم مساء اليوم أو غدا. دعوتهم إلى التخلص من أكياسهم ومجالستي قليلا. لاحظت أن أغلبهم يشمّون صررا بلاستيكية رهيفة. سألتهم ما هي؟ ظلوا سكوتا إلى أن أخبر أحدهم: إنها الشّمة من طلاء الأحذية.

أبديت إيماءة استفسار، فقوّس حاجبيه وقال: الشمان يا عمّ يدوخنا وينسينا هموم النهار والليل... بدا لي من العبث تأنيبهم ووعظهم بالإقلاع عن ذلك، فسمعت شابا آخر يردف: هذا أرخص ما في السوق. أما الخمر فما عندنا منّو غير المزور، وحتى حشيشة القرقوبي مرة مرة نقدر عليه... وعلّق آخر: ادعُ لنا ربّك ألْحاج يعفو عنا ويعطينا باش نكون...

على خشبة صلبه، ساءلَ المسيح ابن مريم الربَّ متألما: لماذا يا أبتِ تخليتَ عنّي؟ فهل لي أن أسأل مثله في شأن هؤلاء الشباب المشردينِ التعساء؟ وما النفعُ من سؤاليٍ والجدوى؟ لكن لا أقلَّ من أن أقرَّ سرا وعلانيةً أن البؤس واللاعدل يلقيان على جمال الطبيعة لطخاتٍ كثيفةَ التلوثِ والقتامة، ولا أقل من أن أغليَ تمردا وغيظا ما دام قلبي يخفق وقدماي تحملانني على الأرض.

وبينما كنت أعدّ في خاطري طريقة لبقة لمتابعة الكلام، إذا بطفل في عمر الزهور يتشبث برجلي ويهمس لي: أنا تعبان أ عمّي تعبان، بغيت أنعس... نقلتُه إلى جنبي على الكانبي وأغمضتُ عينيه، ثم حاولت استدراج الشبان إلى حكْي قصصهم وأسباب

تشردهم، فنهض واحد لم يتكلم بعد، وقال بلهجة بطيئة متعثرة، كأنه محشش أو سكران أي بمصطلحهم مقرقب: أنا طردني بويا من الدار ... وحتى هذا وهذا وهذا... واللي ما زال ينعس عند والديه لا بد يجيب لهم في كل ليلة فلوس. البؤس البؤس، هذا ويسمينا الناس أولاد الزبل والطنابير والبوعارة... واسترسل آخر اليس أقلَّ من سابقه سكرا: حكينا حياتنا للعادي والبادي، واللي يسمعنا شوية يختم كلامو: يكون خير، ومن بعد لا هوَ شفناه ولا أي خير... ثم نهضوا كلهم وحملوا أكياسهم، هذا يقول: ما عندنا في حياتنا، أَ عمّي، ما نحكي؛ وذاك يضيف: وأنتَ ما تقدر تفعل لنا شيء. ومن غد نعود لطنابير الشوارع نأخذ منها بعض الرزق... بادرت إلى إفراغ جيوبي من النقود عارضا عليهم أخذها لقاءَ ما اشتغلوا به من أجلي. تناولها أكبرهم شاكرا، وأعطى إشارة الذهاب بمغانمهم المحمولة وبأخرى على كارو جرّار، ليبيعوها إلى وسيط بثمن بخس.

ظللت وحدي مع الصبي الغاط في نومه، أنقل نظرِي بين وجهه التَّعب البريء وبين نهار تعدى نصفَه بقليل وشمس بلهيبها يتلظى المطرح والرحاب كلها. حِرت فيما أفعل: أخذ الطفل معي وإلى أين؟ أم أتركه وحيدا فيأتي أشرار

ليسرقوه ويعبثوا به؟ قطعت الحيرة برفعه إلى صدري منتويا التوجه به إلى جمعية للأطفال الضائعين، ائتمنها عليه ثم أذهب إلى حال سبيلي. فجأة استيقظ الصبي، قبَّلني على وجنتي كثيرا، ثم عاد إلى نومه.

قريبا من سيارتي شعرت بذراع قوية تمسك كتفي، استدرت فإذا برجل خشن يأمرني بتسليمه ابنه وإلا كسَر أضلعي. استفاق الصبي مذعورا، سألته إن كان الرجل أباه، أومأ لي بنعم، لكنه صاح برغبته في البقاء معي. ملوحا بعقدة كفه صوب وجهي انتزع الأب الطفلَ مني بعد أن تجاذبناه وهو يصرخ ويبكي، ثم هرول متوعدا إياه بالضرب.

بعد ذاك عدت إلى تلي حيث شاهدت المطرح تفعل فيه الجرافات فعلها، ثم اشتعلت لا أدري كيف في جانب منه نيران أتت على أخضره ويابسه، وحوّلتهما إلى أرمدة تبعث أدخنةً دكناء وروائحَ نتنة. وحين قفلت راجعا، صادفت نفرا من الزبّالين، حدجوني بنظرات شزراء مستغربة ومضوا متضاحكين، إلا من واحد تأخر عنهم وخاطبني بلهجة مترددة:

-عفوا أمولاي... وجهك غير غريب عليّ. ربما

شفتك في التليفزيون أو في الجامع... إيه اللي جابك هنا؟ المزبلة مش من مقامك...

أجبت مخاتلا:

ـ هي أوراق عقود ضاعت منّي وجيت هنا أبحث عنها... أسكن حيّ مير سلطان...

قاطعني مستغربا:

-ضيعت وقتك يا أستاذ. مطرح أزبال هذا الحي مش اللي احنا فيه! وعلى كل حال ما تتعب نفسك. غدا تجي شاحنات شركة إعادة استعمال النّفايات بعد الفرز والطحن.

شكرته وذهبت إلى حال سبيلي.

في بيتي كم فكرت في يوميَ هذا وما عاينته من فقرٍ مذقعٍ شنيع وتعاسات حادةٍ بليغة، تحجب بؤرَها عن أعين أهل الدولة والمترفين أسوارٌ إسمنتية منيعة، وأحراسٌ مسلحون وتجهيزات بأحدث الأليات لحفظ أمنهم والذود عن أملاكهم وحماهم! لست أنا من أولئك، لكنني لأول مرة رأيت رأيَ العين جزيْئا من الشقاء الآدمي، الضارب أطنابه في تلفِ شبابٍ وصبيان، وفي بؤسهم ويأسهم، وفي

عيش تنتفي فيه أبسط شروط الصحة والكرامة. ثم وقد عاينتُ ما عاينت، كيف لا أستصغر ضياع نصوصي ذات اللغة الغنائية المقطَّرةِ المنمقة، والنَّفسِ الرومانسي المشحون بالشجو والأنين، وبالهتافات والآهات الغرامية الغامرة: أأنتِ وفي هذا الصباح! تأتينَ مع التغريدةِ الأولى والعنفوان... وهلم جرّا؟

لكن، رُبّ ضرة نافعة. فلولا بحثي عن تلك النصوص المفقودة لما تعرفت عن كثب إلى أولئك التعساء، فعنهم سأُنجز أحسن روبُّرطاج لي بالصوت والصورة، وأحدّث بإنجازي جهات مسؤولة

وجمعيات مدنية وطنية وغيرها، سأوزعه على الإعلام ومواقع إلكترونية، مظهرا أنه حجة مادية أخرى على تأخر بلادنا، ومؤشر ليس أقلَّ خطورة من مآسي البطالة والهجرة السرية والبغاء وتصدع القيم وتفشي الفساد، وكلها مؤشرات تمسخ الديمقراطية لعبا وهراء، وتبخس الحقوق الإنسانية على حد سواء... ولعل وعسى أن تنجم عن فعلي ذاك من المبادرات، في الشأن المذكور، ما يفرّج ويفيد أو يبعث من الأمل لمعا وبشائر.

مرّ شهران ولا جواب من السلطات المحلية على طلبي الترخيص بالتصوير. وبعد شهر من الكد والإلحاح، أتاني، من دون أيّ تبرير، جواب بالرفض البات، فمنيت النفس بمواصلة السعي واشراك الأعلام بكل انواعه ...

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

أنا الأرمل والمطلّق الطليق، سكنت منذ مدة شقة بالطابق الرابعِ الأخيِر في عمارة متوسطة الحجم والرتبةَ. قبالةَ بابي بابُ شقة تقطنها امرأة قد تكون أربعينية، فهمت منها في المصعد أنها عزباء ولا ولد لها. ومع كرور الأيام استنتجت من لقاءاتنا القصيرة المتقطعة في مقاهي الكورنيش أن لها مع الحياة قصصا ملأى بالثقوب والشذوذ، علمتُ نتفا منها بسبب شيءٍ من الصحبة.

وذات يوم، حدث أني في مجلة نسائية نشرتُ نصا نثريا متواضعَ القيمة، مما جاء فيه:

على مدى شبابيَ الموؤود، رجالٌ رجال، عيونهم زجاجٌ، صدورهم خرابٌ، رؤوسهم سوسٌ ووسواس. فُرادي كانوا يأتون، فيحطونَ فوقي الرحال، أدناسَ أوهامٍ وهموم، ويلوكونَ كلامَ القبحِ والمجون، حتى إذا هاجوا وماجوا، حتى إذا استباحوا أطرافي ونالوا القطاف، استراحوا ثم راحوا... جراح! مثخنةٌ يا ربّي ذاكرتي بأنكى الجراح، لازقةٌ بعينيَّ وجلدي صُورٌ كأشواكٍ تنهشني، وجسمي لو

خُيُّرت لأدميتُ عورتَهُ بأمضى الرّماح...

لا أدري كيف وقع عدد المجلة في يد جارتي، هي العازفة عموما عن القراءة. ومع أني بدافع التحوط صدّرت النص بالعبارة المعتادة: «كلٌّ تشابه مع شخص عينيّ إنما هو من قبيل المصادفة لا غير»، إلا أن المرأة (واسمها عفاف) على بابي ثم بالهاتف أكثر أقامت الدنيا ولم تقعدها، وأتبعت سورتها بكلمات نابية، بل هدّدتني برفع دعوى قضائية ضدي بتهمة هتك عرضها والاعتداء على حياتها الخاصة. جاوبتها متحديا قبل أن أقفل الخط: الدعوى ارفعيها ارفعيها...

في مساء الغد سمعت على بابي نقرا خفيفا. فتحته فإذا بالجارة تستسمحني على ما بدر منها بالأمس، وتترجاني أن تأخذ من وقتي قليلا. أشرت لها بالدخول، جلستْ وعرضت عليّ أن أصحبها في سيارتها إلى ضريح المولى إدريس الأكبر بفاس. أبديتُ استغرابي ودهشي، فقالت إنها تريد مني هناك أداء اليمين، ويدي اليمنى تلامس سياج القبر المنور، على أن كلامي في مجلة نون النسوة لا يعنيها قط. رفضت عرضها بشيء من السخرية وكثير من الحزم. عندئذ استأذنتني

في غسل كفيَّ من مزهرية فقبلت، وبعدها سحبت من حقيبتها مصحفا ووضعت كفي اليمني عليه لأداء ذلك القسم، ملحةً عليّ بشتى التوسلات. تنبهتُ إلى أن المصحف نسخة من ترجمة فرنسية رديئة، فسحبت من خزانتي نص القرآن العربي، ولبّيت طلبها كما شاءت وشاء لها حمقها. انشرحتْ أساريرها، وقفت شاكرة واختفت عجلي وراء بابي وبابها.

حينذاك تنفستُ الصعداء ووعدت نفسي بالكف عن الخوض بالكتابة في سوق النساء بأيّ نيّة كانت، حسنة أو سيئةً مبيّتة. وهكذا، حتى إشعار آخر، توخيتُ الحذرَ الحذر مما لا طائل تحته، بل مما قد يجلب لنفسي المتاعب والأكدار. والأسلمُ لي إذن أن أهادنَ الجارة وأسكتَ عنها وأختفي، وفاء لاختياري إراحة عقلي ووقتي، وهذا ضدًّا على صوتٍ جواني همس لي معاتبا: خانك يا هذا مع الجارة حسك السريالي، وإلا كنتَ سافرت رفقتها إلى ضريح المولى إدريس، فأديت لها اليمين وهي خلف ستار تسمعك، ويشهد لك أمين الصندوق؛ ثم على هامش ذلك تعيد معها زيارة أطلال وليلي الرومانية، وتبيت بجوارها ليلة أو أكثر في مكناسة الزيتون، الحاضرة الإسماعيلية، أو في فاس، العاصمة الروحية،

وبينهما مروج فسيحة خضراء، وغابات مورقة غناء، ورُبى بهية خلابة؛ وكلها تصلح للبيكنيك والنُّزه والجولات، وفيها تشنفُ الرفيقة سمعك بتغريدات طيْرية، وتلثمك مع الأنسام، وتغني لك أو معك أجملَ الأنغام...

نهرتُ الصوت الإبليسي المغرّر وأمرته بالكف والغروب الآنَ الآن.

بعد عودتي من عطلتي السنوية، كم سررت لما أخبرني حارس العمارة أن تلك المرأة رحلت وحلت محلها أخري!

لكنْ -يا لسوء الطالع! - هذه الأخرى، حدث لي ما لم أعشه مع الأولى ولا مع غيرها من قبل. فقد دأبت، بعد مدة وجيزة، على مناوشتي بشكل تصاعدي، سرعان ما شابَهُ بنحو جليّ ما يُشْبِهُ التحرش الغرامي، وصارت تعبر لي عن استبشارها خيرا بتجانس اسمينا ربيع ورابعة المثبوتين على بابينا، وهذا صحيح من جهتي، إذ نسيتُ وضع اسمي عوضا عن اسم المكتري قبلي، فلم أصحح لها قراءتها إلى أن أتبيّن أمرها... آثرت ترك بابي بلا اسم وحاولت معها الدفع بالتي هي أحسن، لكن لا نهيي لها عن سلوكها نفع، ولا إنذاري بتوخي

الصرامة والحزم في إلزامها بالعفة والحياء، بل ولا تهديدي برفع دعوى ضدها، أعلم مقدار استحالتها وفراغها القانوني، وما قد تجلب لي من سخرية واستخفاف، وربما من طعن في رجولتي وشكوك في فحولتي...

وبعد هدنة قصيرة لداعٍ لا أدريه، ها هي بالهاتف تنبئني أنها مريضة، وتتوسل لي أن أعودها قصد إطلاعي على أمر خطير، وذلك قبل أن تقيل عثاري وتخليَ من حسها وظلها تماما أمكنتي وممراتي، وأقسمتُ بالإيمان المغلظة على الوفاء بالوعد...

كيف لا أستجيب لاستغاثة جارةِ طريحة الفراش، وفي الحديث الشريف «ارعَ الجار ولو جار»؟

قصدتها إذن، حاملا باقة ورد وبعض المجلات النسائية. استقبلتني صبية قالت إن أمها تنتظرني في غرفتها، قادتني إليها ثم اختفت. لم يكن على وجه الست المتورِد سمات المرض، ولو أن النهوض لتحيتي صعُب عليها، فوضعتُ هديتي على طاولة وانحنيت مقبِّلا جبينها. أشارت عليَّ بالجلوس على كانبي بينها وبين مائدة زُينت بشتى المشروبات

والحلوى. فاتحتني بشكري على الزيارة والهدية. استفسرتها عن حالها فطمأنتني على تحسنه، ثم أنصتُّ إليها تقول بصوت متهدجٍ كلاما منقطعا، استخلصت منه أنها، لكي تتخلص من سمنتها ويخفَّ وزنها، تتّبع نصائح أحد أطباء التغذية وبعض العارفات، كالرياضة البدنية والحمية من الدهنيات والشحوم والحلويات والكحوليات، لكن من دون أيّ نتيجة ملموسة تبدو في الآن ولا حتى في الأفق. وهذا ولّد عندها شعورا أقربَ إلى اليأس والإحباط، وتسببَ في ظهور قرحتها. والحل الأوحد المتبقي لتحسين حالتها وإعادة الأمل إليها هو، كما ادعت وجربتُه ووفقت فيه إحدى صاحباتها، أن تهوى رجلا مليحَ الوجه، حسن القوام، طيبَ الخُلق، مَرِحَ الروح، وأن تدمن على حبّه حتى بلوغ مقام الضني والسَهدِ، على أن يكون المحبوب معها متأرجحا بين الإقبال والعزوف، مُخلفَ وعوده ومواعيده أحيانا، ناقلا إليها بالعدوى تفاؤله متى تيسر، وحكايا تشبه ما في الحياة من أفراح وأتراح، ومن أزمات وانفراجات.

سألتها مستغربا عن محلي أنا من الإعراب، وعن الخدمة المنتظرة مني، فضاعفتْ عجبي لما أن صرحت بكل وثوق أن صفاتي الخِلقية

والخُلقية تؤهلني وتعيّنني لأن أكون ذلك المحبوب على سبيل التمثيل والاستعارة، ولفترة تجريبية معلومة، وربما قابلة للتجديد مرتين عند الحاجة الماسة والضرورة القصوى. هذي ورقة هي في زعمها الأخيرة تصرّفها، فإما ربحٌ فعودة وزنها إلى الاعتدال، وقدّها إلى الرشاقة، ومحياها إلى الإشراق والنضارة؛ وإما خسران فتركُ أمرها يستفحل ويعصى؛ أي إما حياةٌ حلوة هنيئة تستحق أن تُعاش؛ وإما أخرى نخرةٌ خربة، شبيهة بالموت البطيءِ الموجع.

علاوة على ما ذكرتْ، طالبتها بتدقيق دوري فيما تريده وتسعى إليه، فقالت لا أكثر من أن أكون للجارة رحمة، كما أوصى رسولنا الأكرم، ودققتْ أن عشقها لي لن يستلزم عشقي لها ولا مثابرتي على زيارتها. عشقها لي يقنعُ بما قلَّ من حضوري وتسمح به رغبتي، وذلك حتى لا يتحول إلى عشق افتراضي مطلق.

في حدود معرفتي، لم أسمع من قبل بمثل هذه الحالة ولا رأيتها عيانا. استأذنتُ صاحبتها في الخروج لسبب لفقته، ووعدتها بالتفكير في الأمر متمنيا لها الشفاء العاجل.

مضى شهر كصفحة بيضاء، لا خبرَ عن العاشقة العجيبة، لا نداءَ منها ولا إزعاج. قد تكون من ميكرو ليزر بابها تنظرني على عتبة بابي داخلا أو خارجا، لكني من جهتي لا حس ولا حسيس يأتيني منها.

خلال الشهر ذاك، في شأن بدانة الجارة من دون ذكر هويتها، شاورت إحدى زميلاتي، الحاجة غزلان، الآنسة الشابة، نجمة الأناقة والرشاقة والموضة في وكالتنا، والخبيرة، حسبما يشاع، بسيكولوجيا النسوة وبنونهنَّ طولا وعرضا وعمقا. أشرق وجهها بضحكة مغرّدة وأسنانٍ ناصعةِ البياض، وهمست في أذني: زيادة على الحمية انصحْ صاحبتك بالرياضتين. سألتها عنهما، فزقزقت في أذني الأخرى قبل أن تغادر الممر متهادية متمايحة: أقصد الرياضة البدنية... والرياضة السريرية... ارفع عنها الكبت يا زميلي، ولكَ فيهِ أجرُ مجاهد، ومُرها برُكيعات في جوف الليل.

في بيتي فكرت مطولا في كلام الحاجة غزلان، وحشّيت به على حالة المعنية السّاري عليها، ملاحظا أن هاته أمست في جهة دماغي الأمامية تشغل خلايا لا بأس بحيزها وعددها. معرضا عن هذا التطور، قررت

عدم المبادءة في استئناف العلاقة مع جارتي، لأني راغب في إراحة خلاياي بتغيير وجهتها إلى ما هو من القضايا أشمل وأهم، كالاختلالات والتلوثات المستشرية برا وبحرا وجوا، وفي مختلف منظوماتنا وسلوكياتنا... رُبَّ قائل يقول -وقد تكون هي- إن التحقيق في العامّ الكلّي لا يقوم ويصح إلا بالانكباب على الخاص الجزئي، القابل للمعاينة والمعالجة، كما هو بالذات حالها. وليس هذا المنزع المتأرجح بين الأخذ والرد هو ما يدفعني إلى تمديد الاهتمام بتلك الحالة المخصوصة، بل محفزي الأقوى هو إشباع فضولي في معرفة هل صاحبتها صادقة

في وصف علّتها وعرْض حلّها، أم أنها في كل هذا إنما تلعب كوميديا ذكية، ناسجةّ خيوطها حولي حتى أقع فيها عاشقا. إدراج غوامضها، ما أمكن، في دائرة الضوء والكشف، هذا ما لا مناصَّ لي منه اليومَ ولا مفرَّ.

ذات مساء، راجعا إلى بيتي، تناهى إلى سمعي أنينٌ متصل منبعثٌ من باب رابعة. طرقته فإذا بالصبية تستنجد بي، وإذا بي أمام امرأة شاحبة الوجه، متشحة بأعراض مرضٍ بيّن. لامستُ في الحين جبهتها فتيقنت من

علامات بيّنة حمّي تنتابها. عرضت عليها استدعاء طبيب أعرفه، فامتنعتُ تماما. جذبتني من يدي للجلوس حذاءها على فراشها، ثم بثت في أذني كلاما اعتبرتُه من فرط ما أذهلني إفرازات هذيانية، لا حرج على الناطقة به رغما عنها؛ منه: أنتَ دائي ودوائي... مريضة أنا بك... أنتَ يا ربيع طبيبي... لا طبيب لي سواك... لهوتَ عنّي... أكثر مما يلزم... لا اعتصامي في بيتي غيّب عني وجهك الحبيب ولا توالي الأيام... حرمتني من ظلك الأمن... عد إذا شئت إلى غيابك... وأنا هنا أتقلى صابرة على حالي...

كنتُ وأنا أنصت إليها أشتمُ من إزارها وبعض أطرافها البادية رائحةَ المسك وماء الزهر. لمحتُ قريبا من السرير على الأرض ميزانا إلكترونيّا، فكرتُ أسألها عن وزنها أين وصل فأحجمت. وعوضا عن عودتي فورا إلى غيبتي، آثرت محادثتها قليلا كيما أقيس درجة الوعي في كلامها وصورة أمرها. استفسرتها عن أشياء تفصيلية ملموسة، فعلمت منها أنها عملت سكرتيرة في مؤسسات خصوصية، واضطرت بعد وفاة زوجها إلى قبول تسريحها والاكتفاء بمداخيل شقة مكتراة وضيعة زراعية ورثتهما عن المرحوم، وذلك حتى تتفرغ للحياة

ولرعاية بنتها، تساعدها في ذلك أحيانا خادمة أمينة وفية... هذي المعلومات الجديدة رجّحتْ عندي أن قدم المرأة قائمة على الأرض، وأنها ليست حمقاء بالحدِّ الذي افترضت. فماذا أفعل؟

بادرتها بسؤال عن حِميتها وفي ذهني آخر عن وزنها، فوقفتْ على ميزانها وأعلنت فقدانها ثلثَ ما تريد وتعويلَها عليّ لبلوغها الهدف المرجوّ. هنأتها على إنجازها داعيا لها بالمزيد، فعقبت أن الوجد لم يشفّها بعد بما فيه النوال. متهيّئا للخروج، سألتها إن كانت تريد مني شيئا. أخذَ صورة لي، أجابت، وإدامة غيبتي عنها شهرا آخر. وافقتها بإيماءة، انحنيت عليها مقبلا جبينها، وقرب الباب لاعبت الطفلة قليلا ثم انصرفت...

انصرم شهر كما طلبت رابعة، وفي بداية الذي تلاه اختفتْ كليةً من شقتها حيث منها لم يعد ينبعث صوت ولا أنين... كم مرة طرقتُ بابها متهيبا وجلا وناديتها بالهاتف، ولا من مجيب! مع مرور الأيام زاد استغرابي القلق حدة ومضاء. استثقلتُ مرور الوقت، ذهلت لاستفراد المتغيبة بفكري وجوارحي، وافترضت أنها قد تكون مستمرة في تمثيل

قصتها بنسج فصلٍ آخر منها. وحين أشرف الشهر الثاني على متمه، استخبرت حارس العمارة، الممنون لي بكرمي، عن اختفاء الجارة، فنفي معرفته بالسّبب، وأضاف أنه قلما يراها، لأنها تدفع المستحقات عن مجموع السنة.

استمررت في تصريف أيامي كما اعتدت. ولتحجيم تفكيري في امرأةٍ لغز، أكثرتُ من المخالطات واللقاءات في أندية ومقاهي أو في منزلي، ومن القراءة ومشاهدة أفلام في قاعات السينما أو في صالوني. وعند أواخر الشهر الثالث، تلقيت مهاتفة من المتغيبة، طمأنتني، بعد سلامها الحار، على أحوالها، أنبأتني أنها تُمضي عطلتها في ضيعتها وتتمنى زيارتي إلى عنوان أملته عليّ. تظاهرتُ بالفتور وعدم الاكتراث واعدا إياها بالنظر في الأمر.

كيف أعرض عما لا أستطيع عليه صبرا؟

كيف أترك على قارعة الطريق قصةً صرت رغما عني طرفا فيها، أعرف مبتداها وبعض وجوهها، وأنا الآن دون خبرها ومرساها؟

لا يهمني أن يكون لي مع صاحبتها غدٌ أو علاقة ما، بقدر ما يعنيني رفعُ الغطاء عنها واستجلاءُ خفاياها ما استطعت... أجَّلت جوابي على تلك الدعوة أسبوعا كاملا، حتى إذا حلّ يومُ سبت، هاتفتُ مرسلتها أخبرها أني في ظهره قادم إليها، فهللتْ ورحبت وقالت إنها تنتظرني على أحرَّ من الجمر.

عنوان المقصودة ببادية مدينة المحمدية طويتُ مسافته في أقلّ من ساعة. كانت رابعة فعلا في انتظاري واقفة صحبة أسرة فلاحين. ركنت سيارتي جنب أخرى رباعية الدفع، فتوجها لىّ الجمع بالتهليل والزغاريد، ناثرين الزهور عليّ وعلى مرافقتي في ممرنا إلى منزل جميل من طابق أطلعتني على بيوته. وفي الصالون حيث اختلينا جددنا السلام باليدين، فتعدته إلى الضم واللثم، ثم طفقت تغدو وتروح أمامي سائلة:

-بالله عليك يا ربيع، من دون مجاملة، كيف تجدني الآن؟

- رائعة يا رابعة! وفي تمام الحسن والبهاء...

- لا، أقصد وزني؟

- في أحسن حال، كما تمنيتِ. لكن...

- لكن ماذا؟

- قفي عند هذا الحد أرجوك، وإلا صرتِ نحيفة كعارضة أزياء.

أجلستني قبالتها في الصالون حول مائدة زاخرة بالمأكل والمشرب، وقالت وأنا أقتات بما تعرضه علي:

- سامحني. هروبي إلى هنا كان لا بدّ منه حتى أتفرغ لنضالي ضد سُمنتي... وربما لغرض آخر...

- لقياس مقدار صبري على غيابك... كل غيبة تزيد هيبة. صح؟ وبنتك أين هي؟

- بنتي بالتبني لأني عاقر، هي عند أمي في الخميسات تعتني بها أكثر منّي.

ساد صمت اغتنمتْه لتشغيل موسيقى ناعمةٍ خافتة، ثم عادت إلى قعدتها وسألتني بثغرٍ أحمرَ باسم:

- وهل صبرت على غيابي؟

- وهل في كل حال من خيار غير الصبر؟

- عاتبني إن شئت... من علامات الحب العتاب.

لم أعقب، فتركتها تردف وتعبر.

- حقا، غبت مضطرة، لكنك في غيبتي ملات عليّ كل ساعات يقظاتي ونوماتي. صورتك

الفوتوغرافية صارت إيقونتي المفضلة. بها وبأصلها اللي هو أنت نما حبي وازدهر، فأدى إلى ما ترى: اتزان وزني، اعتدال مزاجي، عودة الفرح والبشرى إليّ... حتى أقسى أمراضي البدنية والنفسية أخلت سبيلي وهجرتني، أتمنى بلا رجعة...

انتهزتُ سكوتها المفاجئ لمحاولة إيقاف اللف والدوران، ووضعِ النقط على الحروف، وتجليةِ مكامن اللبس والغموض. قلت بصوتٍ وسطٍ بين الحدّة والرقة:

ـ أقصر طريق، يا رابعة، بين نقطة ونقطة هو الخط المستقيم، وواحد زائد واحد يطلع اثنين، وواحد مضروب في واحد واحد، وإلا فلا تعريفات ولا معادلات ولا حسابات... أقصد أن دوري، حسبما أفهم، انتهى كعاشق افتراضي

ووسيط عابر، ما دمتِ أحببتِ عبري حالك كمُحبة، وبلغتِ غايتك من التقويم الجسمي والنفسي. وعليه، الآن انتهت صلاحية عقدنا، ودقت ساعة الفراق وعودة كل واحد إلى سبيله ومجراه... هل ما أقول حقّ؟

المعت عينا جليستي بدمع أضفى على محياها رونقا شهيا. ألزمتُ نفسي، كما من قبل، بالإمساك عن أيِّ مبادرة تماسية من أيِّ نوعٍ كان، فاكتفيتُ بالنظر إليها منتظرا ردّها.

- حقا ما تقول. إنما الحب عندي كالخير، لا أميز فيه بين الغاية والواسطة. وأنتَ كنت حبل الحب الأبيض الممدود إليّ من منابع النور والخلاص... حقا ما تقول. إنما في الحياة صفحات تُطوى وأخرى تُفتح إلى أن يطويها الموت كلها... الشكر لله أن هداني إليك، والشكر لك فيما حصل لي من خير... صفحتنا الجديدة أعرضها الآن عليك، ولك في قبولها أو رفضها واسع النظر والأجل... تسمع عرضي؟

- سمعي معك وكلّ حواسي.

استلّت من حقيبتها ورقة، وقالت بمنتهى الوضوح والجدية:

- هذا ميثاق إعلان مبادئ، هي ذي عناوينه البارزة:

أولا: لكلا الطرفين الموقّعين، ربيع ورابعة، حريته والحق في حديقته السرية؛

ثانيا: لا عقد نكاح بينهما يبرم؛

ثالثا: تظل رابعة قائمة في عشقها لربيع، دفعا للسّمنة ولعواقب عودتها الوخيمة؛

رابعا: الرابطة الوحيدة بينهما في العمارة هي المودة والتراحم، لا تتعداهما؛

خامسا: الضيعة ملاذ الطرفين الأمن، في منزلها يكون لهما عش عشقيّ، وفيه تكون بينهما أشياء بحسب الميل والرغبة؛

سادسا: ينتهي العمل بالميثاق بمجرد زواج ربيع أو حدوث مستجدات قاهرة لأحد الموقّعين...

بعد تلاوتها أردفت حبيبتي المبدئية معلِّقة:

ـ فكّر جيدا في عرضي، وإذا وافقت نوقِّع ونؤدي القسم على احترام البنود والوفاء لها.

بالطبع استغربتُ الأمر في نفسي، وعدلت عن أي عجلة أو تهافت، ولو أني ملتُ مسبقا إلى قبول المغامرة من باب التجريب وكسر ما في الحياة من عادات سالبة واجترارات مملة. تسلمتُ من رفيقتي نسخة الميثاق واعدا إياها بالنظر فيه جديا، ثم استأذنتها في الذهاب، واليومُ دانٍ من غسقه. لم تدعني للبقاء. أردت تقبيلها لكنها امتنعت بدعوى غياب التوقيع، فتلاثمنا، وأوصت وهي تشيعني إلى الباب: لا تترك الموبايل يرنّ ولا يحنّ.

في أقلّ من أسبوع، هتفتُ لها بنعم من دون تلعثم أو تردّد، والشيطان يوسوس لي: بل الحق أنك أميل ما تكون وأشوق إلى تفعيل البند الخامس وهو، حسب تقييمك الخفيّ المتحمس، قطب الرحى ومحور المحاور... فناداني منادٍ جواني: لا هرولة ولا إلحاح ولا لجّ... بعد ذاك عبُّرت لها عن استعدادي للتوقيع والقسم متى شاءت، لكنها واعجبا! ـ قالت كلاما يفيد أنْ لا رسميات بيننا وقد حفظنا الميثاق في ذاكرتينا وصدرينا. وختمتْ بما يعني تقريبا: نكون حَرّيّين بالمستقبل إذا ما تركناه مفتوحا لحريتنا ولشتى الممكنات...

صدقتِ يا رابعة! مغامرتنا خليقٌ بها أن تقوم

على رهان: إما حبٌّ واقعٌ ملموس، يقوى مع الزمن ويدوم؛ وإما فراق ضروري لا مناص منه، يكون لي بعدَه، كما في الميثاق، حِلٌّ في القِران والتأهل، لربما أجد فيه راحةَ قلبي وعقلي ويُسْرّ انسيابِ عمري سلسا ليّنا...

رجوعا إليها.

مرَّ شهران تخللت أيامَه لقاءاتٌ ثلاثة في الفيلا، اتسمت بقصر المدة وانعدام أجرأة البند الخامس، والأسباب هي هي كما تتقن رابعة تلفيقها؛ وتلاها لقاءان في شقتها سارعتُ إلى تقليصهما متذرعا بكثرة مهامي ومواعيدي. هذا وإن امتناعها عن زيارتي في شقتي بررتْه بكون وجودها فيها لا يصح ولا يليق. قلت لها مازحا: حضورك في بيتي قد يورطك إذا ما داهمنا بوليس الآداب العامة، أما إذا حصل هذا في بيتك فمن السهل أن تصرخي مدعية أني هجمت عليك بقصد اغتصابك... فانتزعتُ منها ابتسامة ملتبسة وعلقتْ: حاشا حاشا...

أما في آخر مرة هتفتُ لها، رمزتُ إلى استحسان التقدم في العناية بميثاقنا، ففاجأتني بالقول أن لا حاجة إلى الإصرار ما

دامت شروط الجوّ الجيد والصحبة اليسيرة لم تجتمع بعد.

الشروط؟! كأنما الأمر، كالقضايا الشائكة المصيرية، يستوجب إعدادات وترتيبات ومفاوضات معقدةً عسيرة!

يا هذا: كفاية!

لا فائدة ترجى من امرأة غريبة الأطوار، متقلبة المزاج، ممعنة في التمنع والدلال، هي

والزيزفون سيان، تزهرُ ولا تثمر، وتعدُ ولا تفي. فافرضْ حلَّ الفراق، واقطعْ حبلَ الترقب ولغوَ الكلام... وهكذا قررتُ العزوف عنها والإضراب. وفورتي هاته لن تكون قط زوبعة في فنجان. فلا لقاءَ منذ الآن ولا اتصال بأيِّ شكلِ كان.

كذلك صار. ومما زاد قراري حدةً ومناعة أنها هي أيضا سنّت سلوك المقاطعة والجفاء. ووافق كلَّ هذا تكاثرُ بطاقات في صندوقي البريدي وتحت بابي، تتهمني بالزنى وتهددني بإبلاغ البوليس عني وعن الزانية جارتي، كيما يُجلد كل منّا مئةَ جلدة أو تُطبق علينا عقوبة ردعية أنجع وأقسى. وأعقبت ذلك مكالمة مقنّعة من صوت نسويّ لم تخفَ عنّي نبرته،

تساومني في الكف عن التهديد بالإبلاغ، مقابل مبلغ مالي حددتْ قيمته ومكان دفعه، فخاطرتُ باتباع حدسي إذ نطقتُ باسم الهاتفة التي اشتغلت من قبل في بيتي، وزعمتُ أن لي صورا تثبت زناها مع رجل في إحدى غرفي، وكان هذا سببا في طردها من خدمتي. ومن ثم توقفت المهددة عن مساومتي وإزعاجي. وبعدها تعاقبت على الخدمة فتاة غرة عابثة ثم سيدة فاضلة ترجتني وهي تُحتضر أن أشغّل أختها عوضا عنها. استجبت فكانت هذي الأرملة الخمسونية، خدوج، أمهر من عرفت، وأقوم سيرة وخلقا، وأخفّ ظلا. تعمل ساعات في أيامها الخمسة، أكاد لا أراها إلا إذا طلبتها. وكل من ابْتليَ بالبحث والكتابة يقدر مزايا مثل هذي الخادمة وفضائلها.

أضربتُ عن رابعة وحشرتها في مربّع معتم آيل للزوال، لكنها ظلت تلاحقني في بعض رؤاي المنامية، أشرسها وأرهبها واحدة أظهرتني معتقلا مقيدا من طرفها في كهف فيلتها، وتمارس عليَّ شتى ضروب التعذيب، تكللها بخصيي وفقئ عينيّ...

وبعد انصرام شهور، طلبني ضابط، كان زميلي

في الدراسة، أن أرافقه إلى مطرح الموتى للتعرف على جثة امرأة اسمها رابعة الموسوي بصفتي جارها المباشر. قبلت الطلب، فأكدت بعد المعاينة هوية الضحية للطبيب الشرعي الذي أبلغني أنها ماتت منتحرة، إذ بلعت كمية هائلة من المسكنات. استأذنته في رفع إزارها زيادة، فلمحتُ بدانة جسمها وقد عادت وزادت بشكل لافت، لكن ما راعني أكثر هو وقوع بصري على صدرها ذي الثدي الواحد، كأنما الثاني تم استئصاله جرّاء عملية جراحية. وبعدها وقّعت على محضر وقصدت الخروج، فيما الضابط يسألني مازحا إن كانت علاقتي بالمرحومة علاقة جوار فحسب أم شيئا آخر، همست في أذنه: لو كان شيء آخر لقلته لك أنت، لكن والله ما جامعتها قط، ولو أني فكرت مرات في الزواج بها... ابتسم الضابط مصدّقا، وزودني بمعلومات عنها لم أطلبها، مفادها أن لها بعض الأهل في العرائش سيأتون لنقل جثمانها صباح الغد، وأنها كانت تعمل قيّمة على شقة وفيلا في ملك سيدة إسبانية تقطن في غرناطة. أما سبب انتحارها، كما أضاف، فلا يعلمه إلا الله. وختم متعجبا: «إنما طريقة قتل نفسها بحقن المنومات أصبحت شائعة،

اتّبعتها واحدة من قبل، اسمها إن لم تخنّي الذاكرة عفاف التازي كانت جارتك في نفس الشقة اللي سكنتها المرحومة بعدها». خبر أفجعني، فأخفيت تأثري وترحمت في نفسي على امرأة عرفتها لوقت وجيز، وليس لي اليوم أن أذكرها إلا بالخير.

ودعت الرجل وذهبت إلى حال سبيلي مكفهر الوجه، كسير الخاطر، مفكرا في هول الرزايا التي أصابت رابعة، وحدت بها إلى وضع حدٍّ لحياتها: السرطان والعقم والعزوف الجنسي، وعلل أخرى لا أعلمها. لعل الموت أراحها وطوى صفحتها، كما طوى وسيظل دوما يطوي صفحات ذرية آدم وحواء، فيذهبون ويُنسى سوادهم الأعظم كأن لم يوجدوا أبدا.

غداة زيارتي لمطرح الموتى، تذكرت حين فطوري نتفا من حلم مزعج حول جارتي الراحلة وثديها المقطوع. ومن عجيب الصدف أني إذ فتحت حاسوبي طالعتني دعوة من جمعية المؤنث السالم للمشاركة في ندوة مغاربية تيمتها «الثدي في كل أحواله». استغربت الدعوة والموضوعَ معا. استوضحت رئيسة الجمعية السيدة زينب التي كانت زميلتي في الدراسة، فزاد عجبي لما أنبأتني

أن أغلب المشاركين جراحون مصلّحون تجميليون وأطباء متخصصون في أمراض السرطان، وضمنها سرطان الثدي. إذن ما محلي أنا من الإعراب بين أطباء وجراحين؟ جاوبتني الرئيسة أن نافذة من الندوة فتحتها للإطلالة على خطاب الأدباء في الموضوع، وذلك من باب الاستئناس وتعدد المقاربات. نفيت معرفتي بهذا الشأن، فذكرتني بمقالين ادعت أني نشرتهما ونحن طلبة، الأول: «عن ديوان طفولة نهد لنزار قباني»، والثاني «التعريف برواية النهد لفيليب روث». كنت على وشك إنكار نسبة المقالين إليّ لمّا فاجأتني بخبر توفرها على نسخة منهما وإمكانية إرسالها إليّ.

وفعلا، حين اطلاعي عليهما عاودتني ذكرى اهتمامي أيام شبابي بالنهد وليس الثدي، لانطباق هذا اللفظ على البالغات سن انقطاع الحيض، وإطلاق ذاك على من دونهن سنّا. وحشّيت على ذلك بلفت النظر إلى اشتراك عضو الثدي ووظيفة الإرضاعية بين الجنس اللطيف (أو الحُوائيات نسبةً إلى حوّاء) وبين الحيوانات الثدية اللبوية. وكان هذا مدخلي في الندوة، إذ حصرت مجمل كلامي في النهد دون الثدي (مع أن المرض الخبيث لا يميز

بينهما)، فأبرزتُ طابعه الإيروسي، وعززت التبريز، كما يجب، باستشهادات شعرية من الغزل الحضري السافر ومن النزاريات وغيرها، محاولا شرحها وتأويلها. والعجيب أن عرضي المرتجل لقيَ استحسانا وتصفيقا، ربما لأنه كان عبارة عن استراحة أو متنفس قياسا إلى العروض الطبية الجادةِ الجافة، شأنه، مع وجود الفارق، شأن عرضٍ عن «النهد السياسي» كسلاح احتجاج فيٍ حركة Femen الغنية عن التعريف، المثيرة للجدل كما للأعصاب والغرائز. حركة لم تتورع عضواتها، كما علمت من إحدى المناقشات، عن اقتحام كنيسة نوتر دام دي باري عاريات أثناء إقامة قداس ديني.

أثناء حفل الشاي هنأتني الرئيسة زينب وصاحباتها وبعض الجمهور، ثم شيعتني إلى باب الخروج، وهي تعلن عن نيتها في نقل الندوة إلى مدن أخرى وتعويلها على مشاركتي. أبديتُ ابتسامة ملتبسة وانصرفت، ثم أخذت أغنّي تحت جنح الظلام ومن وحي الحدث وعفوَ الخاطر:

عوّلي عليَّ يا رايْسه عوّلي

الليلُ نازلْ

والبدرُ كامل

والنجمُ ثاقب

والطُّقس هائل

والهوى غالب

والوصلُ غائب

والحالُ حالي

والنهدُ ليسَ لي

عوّلي عليَّ يا رايْسه عوِّلي...

سمعت صوت مارة تجوزني هامسة: الرجل يتكلم وحدُه. الله يبقّي السّتر!...

أجبت وقد اختفت: كلامي مع نفسي من بنات خيالي، وربما يأتيك في يوم تامًا على الهواءِ

مباشرةً، يأتيك باللحنِ البديع والصوتِ الرخيم والعزفِ الرائق، ومعه ارقصي طربا أو ولولي...

لم يمض شهران على دعوة الست زينب رئيسة الجمعية، حتى بعثت لي أخرى في موضوع «التحرش الجنسي إلى أين؟». أجبتها بالاعتذار لعدم الاختصاص. عرضت عليّ ملكة الاكتفاء بإدارة الجلسة فقبلت، مردِّدا في نفسي: عوّلي عليَّ يا رايسه عوّلي...

قاعة الندوة هي نفسها، بسعتها المتوسطة وزواياها المضاءة، وطاولتها المزدانة بباقات ورود، وحيطانها بألواح زيتية ما بين التجسيمية والانطباعية. وجدُتني بين جمهور أغلبيته نساء، عرّفتني الرئيسية على بعضهن فضلا عن المحاضرتين، وعطفت بي على رجال سبعة ممن لبوا الدعوة، واحد مشارك في الندوة، وآخر رئيس جمعية المذكر المسالم والباقون صحافيون.

بعد الانتهاء من حفل الشاي وما تيسر من التعارف، بدأ اللقاء. قدمتني داعيتي بكوني غنيا عن التعريف وذا قلم لامع لا يشق له غبار، وثقافة واسعة تشمل الموضوع القائم، مؤولةً زعمي بعدم الاختصاص فيه من قبيل

تواضع العارف لا غير؛ ثم بكلمات موجزة عرّفت بالمشاركين الثلاثة ونوهت بمقالاتهم المنشورة في الشأن الذي يجمعنا ونضالهم من أجل إنصاف المرأة وصون كرامتها وحقوقها.

في كلمتي التمهيدية شكرت السيدة الرئيسة على ما تفضلت به في تقديمي، وخالفتها في كوني ما البيت الدعوة الكريمة إلا للتحصيل والاستفادة، كما سيتبين... حسب البرنامج المسطر دعوت الأستاذة حسناء السبتي إلى التفضل بتناول الكلمة، ولاحظت وأنا أرمقها أن اسمها الشخصي على غير مسماها، ولله في خلقه ما يشاء.

بصوت أجش شكرتِ الأستاذة الجمعية على اهتمامها بموضوع التحرش الجنسي بالنساء، ولو أنه أتي متأخرا، ثم توجهت إلى الرئيسة باللوم والعتاب على إسقاطها نون النسوة في ديباجتها، رغم أنهن في القاعة كما في المنصة يشكلن الأغلبية الكبرى لا المسحوقة؛ ثم إنها خاضت باندفاع وعصبية في قراءة أوراق معَدّة، وكلما تقدمت قالت «وقبل الدخول في صلب الموضوع»، وحين دخلت كانت قد استوفت حصتها الزمنية، فتلت

إعلانات كثيرة بعضها يدعو إلى تجريم التحرش الجنسي كعنف معنوي لا فرق بينه وبين العنف الجسدي، وسوّغت التجريمين بالتنصيص عليهما قانونيا وربطهما بشرط أكيد لا مناص منه، هو دسترة المناصفة بين الجنسين والانخراط الجدي في تفعيلها بالسلطة الجزرية وقوة القانون، وهذا في جميع أجهزة الدولة والمؤسسات والقطاعات العمومية والخاصة، كما في المجتمع المدني بأحزابه ونقاباته وجمعياته...

مالت عليّ الرئيسة وهمست لي أن أوقف المتكلمة، فرددت عليها همسها بأن تفعل، ثم داهمنا صوت الأستاذة محتجا:

- بلاش وشوشات، بلاش تشويش... ما زال عندي الكثير أقوله، ونظرا لدقة الموضوع وخطورته، يلزمني أخذ ثلاثين دقيقة زيادة الوقت عادةً نصرفه كتبن أو حلفاء، وهنا في الأمور الهامة المصيرية يصبح بقدرة قادر من ذهب تعدون به عليّ أنفاسي. أنا أحتج...

راجت في القاعة تململات وتصويتات. استأذنتْ سيدة مهيبة في إبداء الرأي، اقترحت على الرئيسة جولة ثانية حول

الموضوع ذاته تُخصّص للآنسة حسناء وحدها لا شركاء لها، فأيدها الحضور بالتصفيق، فردت المعنية، وهي تجمع أوراقها:

ـ على أي حال أنا غير راغبة في الكلام الآن أو في أي مرة أخرى... بلاش بلاش... عندي قوائم مشتكيات من التحرش ومعطيات إحصائية... بلاش بلاش...

محاولا التهدئة، علقت:

- لا يا أستاذة، لا تحرمي الأخوات هنا من علمك. كلهن متعطشات إليك. في حصة النقاش أرجوك تروي عطشهن بالإجابة المفيدة عن أسئلتهن... أنا شخصيا استفدت من عرضك القيم، وربما إذا سمحتِ سيدتي الفاضلة يكون لي من بعد سؤال واحد. والآن...

استأذنتني السيدة في كلمة وعيناها تلمعان خلف نظارتها السميكة، قالت:

- يا أستاذ عبد الله المانوي، أنا أحيي فيك أولا غيرتك على نون النسوة وتخويلها المكانة الجديرة بها؛ وثانيا، أحيّي فيك أدبك معي وتقديرك الصادق لي، شكرا شكرا...

شعرت أني نجحت في محاولتي التهدئة، أردفت:

- والآن وقد صفا الجو، أعطي الكلمة للأستاذة ريحانة الحلوي. تفضلي سيدتي...

- شكرا سيدي الرئيس، والشكر موصول إلى الأستاذة زينب التوفيق التي تناضل جاهدة مصابرة ومضحية بالغالي والنفيس من أجل إيصال جمعيتنا المؤنث السالم إلى المكانة المتميزة التي تحتلها اليوم وتخدم حقا قضايانا المشتركة... الحضور الكريم، حياكنَّ الله ونعمّكنَّ بكل خير ... كلماتي إلى أخواتي أريدها موجزة، أبثها إليكن مباشرة من دون إطالة ولا تعصب...

صاحت الست حسناء مقاطعة: بلاش لمز بلاش!

إنقاذا للموقف قلت:

- أنت يا آنسة ما أطلت وما تعصبت، إذن لست معنية!

أجابت وهي ما زالت تزفر:

- هذا من وجهة نظرك الكريمة، أما من جهة هذه الغرة المغرورة...

سرت بين الحضور ذبذبات وهمسات. طالبتُ بالعودة إلى الهدوء وما كنا فيه مع السيدة ريحانة، فاستجابت المذكورة بابتسامة مشعة وبرودة أعصاب لافتتين، صفق لهما غالبية الحاضرات. لترويض انفعالي باستحلاء حضور المطلوبة، انكبت على نسخ كلام الست في رؤوس أقلامٍ، سيما وأنها أخذت تنطق به ارتجالا وعفوَ الخاطر، يطبعه صوتها الناعم بتناغم حيّ بين أفكار نيّرة ومعطيات محسوسة. اكتفيت بعناوين تلك دون هاته:

- المرأة، كما أجمعت عليه دراسات جدية كثيرة وتقارير دولية، معيار التحول التنموي والديمقراطي، وعليه من لا يؤمن من الرجال بهذه المعيارية وصدقيتها، يحط من منزلة المرأة ويسهم في جعلها عرضة لشتى السلوكيات المشينة والمهينة، ومنها التحرش الجنسي السافر.

- وجوب ارتقاء المرأة إلى معياريتها عبر مسالك الاستحقاق والتقوية الذاتية وكل ما يحميها من الضعف والهشاشة، فجواز

السقوط فريسة للتحرش والابتزاز والعنف المعنوي.

- تأهيل النساء معرفيا وسياسيا لنيل حقوقهن في المساواة (ولا أقول المناصفة) واجتناب الدخول مع الرجال في مواجهات صدامية بذهنية الإثئار والغلّ والحسيفة.

لم أستطع مجاراة الست ريحانة في عرض الدلائل والتفصيلات التي أغنت بها ما سجلتُه واعتبرته هي مفاتح محورية. وما إن انتهت في حدود وقتها الممنوح حتى ضجت القاعة بتصفيقات حارة، لو كان من حقي كرئيس أن أؤججها لفعلت، ولا شك أنها ألقمت غريمتها الحجر، فلم تبد الست حسناء حراكا ولا اعتراضا. وبعدها، بطلب مني أخذ الكلمة المتدخل الأخير، نبيل الزين، فيدا على الفور من إشاراته وتلفظاته أنه خنثى. حيّا الحضور كثيرا وأفاض في شكر الرئيسة وجمعيتها الطلائعية ذات الجرأة الكبيرة في طرح القضايا الساخنة الحساسة، ثم التفت نحوي بكلمات إشادة وتنويه ككاتب ألمعي ومسير حكيم، وكان سيوغل في كلامه لولا أن صوتا صاح: «خشّي في الموضوع يا نبيلة». وتبين لي أنه لرئيس جمعية المذكر السالم. عمّ القاعة

شيء من الفوضى سرعان ما أنهيتها داعيا الصائح إلى التزام اللياقة والأدب، وشجعت نبيل على الكلام، قال وهو يمسح عينيه بمنديل وردي:

- سيدي الرئيس... كم تأسفت لكوني ما حضرت الندوة السابقة حول «أسئلة الجنس أمام تحولات العصر»، اللي عندي فيه ما أقول، وجئت اليوم وفي نيتي أدلي بشهادتي اللي كلها حب وتسامح، ودعوة إلي قبول الأفراد كما خلقهم ربّنا، هذا ذكر وهذا أنثى، وهذا بين بين نقطة توافق والتئام بين الجنسين، كما هو حالي... كان في نيتي أقول لكم حتى أنا أتعرض للتحرش الجنسي... وشهادتي لها قيمتها إذا كنا نؤمن بالمساواة وحرية التعبير ... وكان عندي أشياء أخرى أكشف عنها، لكن هذا الصعلوك عديم الأخلاق أفسد مزاجي وغلّب عليّ دموعي... معذرة، أنا رايح بحالي، وأنت يا بغل اخرج برّا إذا أنت رجل حتى أفرّج فيك الناس...

وفعلا نهض نبيل وانصرف باكيا متعثرا. خلال حديثه المتقطع، سادت القاعة همهمات وضحكات خافتة، وبعده غصت في صمت غريب، ما فتئتُ أن كسَرتُهُ بفتح باب النقاش.

ذكرّت بأهم النقط في العرضين، ثم اقترحت تجميع الأسئلة، فجاءت كلها موجهة إلى الست ريحانة التي أخذت تجيب عنها بعد إذني، فيما علامات السخط والتذمر تغزو وجه الست حسناء، قالت وقد ازدادت تألقا وبهاء:

- شكرا على أسئلتكن الوجيهة، أرجو أن أتوفق في الإجابة رغم ضيق الوقت... كلمة المناصفة كمية وريعية، أفضل الإبقاء على مفهوم المساواة حتى لا يترجم تغيير الكلمات عجزنا عن تغيير الواقع... التحرش؟ أعرّفه اختصارا بكونه رغبة رجل في مجامعة امرأة ليست حليلته، ترفضه ويسخّر لبلوغ غايته أساليب غير أخلاقية كالإلحاح والمضايقة والمساومة والابتزاز والضغط المعنوي، خصوصا إذا كانت المرأة تخضع لنفوذه في الإدارة أو أي مجال آخر... هل الغزل تحرش؟ لا أعتقد. الغزل من أهم الأغراض في أدبنا العربي. لنا فيه تاريخ تليد منذ المعلقات ومداخلها بالنسيب إلى شعر نزار قباني وسواه، مرورا بأعلام عظام تعرفون لا شك قصائدهم المغناة. والغزل موجود في كل آداب الدنيا قديما وحديثا...

ارتفع صوت مغنيا: إمْتي حتعرفْ إمْتي/ إني

باحبكّ إمتى... وتابعت أصوات أنثوية أخرى: إمتي إمتى إمتى حتعرف إمتى إني باحبّك... وجأر صوت ذكوري: الكلام لكِ يا جارة... وتابعت المحاضِرة مبتسمة:

- حسنا حسنا.... سؤال: هل هناك مغالاة في الكلام عن التحرش؟ خارج التوصيف الذي قدمته، لا تدخل تحت طائلته كلمات طيبات مادحة، يقولها رجل بنية حسنة لامرأة يعرفها ولا تعترض عليه... هل هناك تحرش في الاتجاه المعاكس، أي من امرأة برجل؟ يحصل هذا لكن بنسبة مئوية غير دالة، وأستثني طبعا رواجه في ميدان الدعارة... أظن سيدي الرئيس أني أجبت عن الأسئلة ولو بإيجاز. أشكر السائلات الكريمات وكل الحضور.

تصفيقات حارة في القاعة لم تتضاءل إلا جراء وقوف الرجل المتسبب في خروج الشاب نبيل وإلحاحه في أخذ الكلمة. أذنت له، قال:

ـ أنا عمري ما تصادمت مع أيّ أنثى ولا حتى مع أي خنثي... عندي سؤال خارج الموضوع وآخر داخله. الأول: طلبت مرارا من السيدة الرئيسة زينب أن تقبل بانصهار جمعيتينا المؤنث السالم والمذكر المسالم في جمعية

واحدة ملتحمة، بناء على أن الاتحاد قوة كم نحن جميعا في مسيس الحاجة إليها، خدمة لغاياتنا المشتركة، وألتمس من الأستاذ المانوي أن يبدي رأيه في عرضي...

كنت أسمع الرئيسة تردد نافرة: لا انصهار لا اتحاد، فأجبت السائل على الفور:

- باسم الحق في التعدد الإيجابي، أرى من الأحسن أن تبقى كل جمعية على قانونها الأساسي وشخصيتها الاعتبارية، وهذا لا يمنع من العمل المشترك عند الضرورة... والآن بإيجاز سؤالك الأخير؟

- موجه إلى السيدة السبتي... هل سبق أن تعرضتِ لتحرش جنسي؟ ثم هلا أطلعتنا على معطياتك الإحصائية في الموضوع اللي يجمعنا؟

بدت المستجوبة مرتبكة، قالت، وهي تغلق محفظتها:

- معطياتي ليس هذا مكان عرضها... نعم تعرضت للتحرش، ولهذا أناضل ضده...

قاطعها السائل بلهجة متهكمة:

- اللي تحرش بك يلزم يُشنق لا بسبب فعلو بل لكونو أعمى وعديم الذوق...

بلهجة حادة أمرته بالسكوت وطلب المعذرة، فيما المهانة تقصد باب الخروج ساخطة مزبدة، فلحقتْ بها الست ريحانة وضمتها إليها مقبلة ماسحةً دموعها في مشهد مؤثر صفقت له الحاضرات، ثم حاولت إرجاعها إلى المنصة من دون جدوى، فصاحبتها، كما أخبرتنا حين عودتها، إلى مربض سيارتها، واطمأنت عليها، ثم أعطت أمرها: يا بنات، الآن هذا الوحش لا بد يخرج من القاعة... فوقفن كامرأة واحدة وطردنه شرَّ طردة. وبعدها تنفس الجميع الصعداء وتحسن الجو وراق.

كنت على وشك إلقاء كلمة ختامية لما وقفت شابة محجبة وألحت في إلقاء سؤال أخير، قالت:

ـ هناك نساء لا يفهمن ورود آية في القرآن الكريم تجوّز للرجل ضرب زوجته الناشزة...

قاطعتها الرئيسة قائلة:

- هذا أمر عالجناه في ندوة سابقة بالرجوع إلى تبيان ذلك في خطبة حجة الوداع لنبينا

الأكرم، إذ ينص على أن الضرب إذا حصل يكون غير مبرح، وقيل بحزمة حرير أو كم لباس، ثم إن الرسول عليه السلام، وهو القدوة الحسنة، لم يضرب أبدا إحدى زوجاته... راجعي فيديو اللقاء.

حان وقت الختم. زكيت ما ذهبت إليه الست الرئيسة في كلمتها الأخيرة، أجزلت لها الشكر على عملها الجمعوي الجادّ الموفق. ولم يكن بدّ من أن أخص الأستاذة ريحانة بكلمة إشادة وتنويه، خاطبتها وقد خلالي وجهها بعد أن خفّت المنصة، قلت:

- سيدتي، بشهادتي وشهادة جميع الحاضرات، لقد نجحتْ حقا هذه الندوة بفضلك، رغم ما عرفته من رجات، أي بفضل معرفتك المجيدة المفيدة، وأيضا بفضل رزانتك وحكمتك. إنك والله لتشرفين مقام المرأة في بلادنا، وتبثين فينا روح التفاؤل بتقدمها وبمستقبلها المعتبر. كثّر الله من أمثالك وجعلك قدوة مشعة تسري وتُحدي.

ارتأيت أن ألجم لساني عند هذا الحد، حتى لا ينذلق أكثر وينزلق إلى منطقة اللّبس والمتشابه. سمعتها تعقب:

- اللّه اللّه على هذي الكلمات الحلوة! شوفو وجهي يحمّر من تغزل أستاذي الفذّ بيّ، وهو غزل حلال ذو نية حسنة لا شك فيها. سأنقله إلى زوجي لأسمع رأيه فيه... شكرا للسي عبد اللّه ولك يا زينب ولكنّ جميعا...

أعلنت الرئيسة نهاية الندوة ودعوتَها إلى حفل شاي ما فتئت أن زينته بأغانٍ مسجلة للراحلة اسمهان. تحلقت الحاضرات حول الست ريحانة وبعضهن حولي، فمن قائلة إنها قرأت لي كذا أو كيت، ومن مستأذنة في أخذ صورة معي؛ أما حين تُطرح على أسئلة منهن أو من الصحافيين في التحرش الجنسي وما جاوره، فإني ألح على عدم الاختصاص مكتفيا بشجبه ورفضه، ثم أنعت لهم الست ريحانة؛ وإذ نعتتها مرة بعد سهو، كانت صحبة الرئيسة ورجل بهي الطلعة، أنيق المظهر، عليه سمت جانتلمان. تقدمت نحوي معه وعرفتنا على بعض، ثم قالت:

- يا أستاذ عبد اللّه، حكيت لزوجي سعد هذا بالهاتف شيئا من مغربات هذي الندوة، وغنيت له: يا حبيبي تعالى الحقني شوف اللي جرى لي من بُعدك... فلبى النداء وها هو إلى جنبي...

صافحني بابتسامة عريضة لا تفارق ثغره وربت على كتفي، قلت:

ـ المرء مع من يحب...

وللتو هتفت الست متحمسة:

- والمرأة مع من تحب!

قال الرجل وهو يحوش إليه زوجته:

- الله الله على الكلام الحلو اللي أسمعُه!... ريحانة قالت عنك كل خير، وأنا أعجب باللي هي يعجبها... ما قرأت لك أي شيء. عالم المال والبيزنس يأخذ مني معظم وقتي...

متعاطفا قلت:

- الخير بالخير والبادي أكرم. حرمك، والله، سيدة حبوبه ورائعة. مثيلاتها نادرات. جمال

متوهج، فكر متنور، أخلاق عالية... ما فيش راجل حقيقي ما يقول لك: يا سعديك...

قاطعني بلطف:

- ألله ألله، هذا بّوزتيشي هارَّسمت، زي ما

مارستُه مع الستات الحلوات، ومع اللي صارت زوجتي. ما دام يصدر عنا احنا المتحضرين، فما فيه عيب، هو غزل وغواية وبس... ستي زينب، إيش رأيك أعملك هنا محاضرة عن التحرش الإيجابي ويشاركني فيها الأستاذ لكن من دون زوجتي؟

أجابت الرئيسة دهشة:

- ما فيش تحرش سلبي وآخر إيجابي يا سعد!

- أللّه! والكلام عن الميز الإيجابي حلال؟

عانقت الست ريحانة زوجها وقالت:

- حبيبي دايما يمزح...

وأردفت الست زينب:

- ودايما، كثر اللّه خيرو، يدعم الجمعية ويرعاها.

ردّ بشيء من الحرج:

- مش اتفقنا يا زينب أبدا ما تفضحيني؟!

- الأستاذ هو الآن واحد منا، أجابت

ـ أعود إلى مسألة التحرش الإيجابي... لا أنا

جادّ... إيش رأيك أستاذ عبد اللّه؟

- الأمر يلزمُه تفكير، وأنا مش من أهل الاختصاص...

- وكيف عرفت زوجتك؟

ـ القصة قديمة وطويلة... وأنا اليوم أرمل.

- أرمل! لا بد نزوِّجك... هي ذي بطاقتي، نبقى على اتصال...

صافحني الرجل بحرارة، ومع ريحانة تلاثمنا، ودُّعت الست الرئيسة وذهب كلٌّ إلى حال سبيله. وفي الطريق إلى بيتي أمسي فكري، منصرفا إلى الستّ الحبوبة الرائعة، متعها الله بالمزيد من التألق والبهاء، وجعلها ذخرا وملاذا لزوجها وأهلها وجميع أحبتها إناثا وذكرانا...

***

بعيد أسبوع، جاءتني مكالمة فاجأتني بقدر ما راقتني من الست ريحانة، قالت بعد تبادل التحايا:

- أستاذي عبد الله، أخذت رقمك من صديقتنا زينب. معذرة عن الإزعاج.

- إزعاج! بل نوّرتني يا خيرَ هاتفةٍ. تفضلي، قولي ما عندك.

- زوجي وأنا نمضي عطلة في ضيعتنا بضواحي بوردو. فكرنا نعزمك ونأخذك معنا في طائرتنا اللي يقودها سعد. وثمة تكون لنا جولات ومحاورات... إيه رأيك؟

من دون أن أفكر، عبرت لها عن شكري وقبولي. سألتها عن موعد الرحلة، قالت: يوم الإثنين من الأسبوع القادم، ثم ودعتني بعد أن وعدتني بتجديد المكالمة لضبط بعض التفاصيل.

قبل الموعد بيومين هاتفني طبيب أعرفه، ملتمسا مني الحضور غدا إلى عيادته للقاء مريضة في حالة خطرة تطلبني، اسمها ليلى الغازي. أفجعني الخبر. لبيت الدعوة قلقا، فمثلتُ أمام العشيقة القديمة. ألفيتها متمددة على سرير ذي أسلاك وأنابيب تصل جسمها المقوض بآلات وبزجاجة المصل. وجهها الشاحب لم يبق من جماله سوى حروف.

إنحنيت عليها مقبلا جبينها. تعرفتْ عليّ وهمست في أذني بجهدٍ جهيد: يا سِيدي عبدو.. تذكرني... ما عندي... غيرك... يسهر على... دفني... أرجوك... ما تتخلى عنّي...

نطقتُ بكلمات مواساة وتقوية، أتبعتها بأخرى: كيف أتخلى عنك يا ليلى، وأنا من قبل تمنيتك زوجة أسكن إليها؟! لكن الراجح أنها لم تسمعني. أقبل الطبيب، أخذني على حدة، أسر لي أن محاولة انتحارها الثالثة خلف لها أضرارا فادحة في المعدة والقلب والجهاز العصبي. وختم قبل أن ينصرف: ابق هنا إن شئت، إنما لا تتعبها. ساعاتها معدودة.

ظللت جالسا جنب المتأرجحة بين الحياة والموت، أسترجع شريط عشرتي معها، متوقفا عند لحظاته الحلوة دون سواها. وما هي إلا برهة حتى قطعه رنين هاتفي، فكان على الخط صوت ريحانة محيّيا معلنا بحيوية غامرة وفرح حارّ: بكرة السفر يا عبده! انتحيت زاوية وأجبتها بلهجة لم يخف خزنها: والله يا ستي حظي سيئ. لولا عائق قاهر حدث لي لكنت أسعد الناس في رفقتك... أنت وزوجك الجميل... سألتني عن العائق ما هو، فطمأنتها وعيني على شاشة الذبذبات، وكانت آخر

كلماتها: بعد عودتنا يكون لنا لقاء إن شاء الله... باي باي.

أقبلت ممرضة، فحصت المتمددة، وقالت وهي تخلص جسمها مما علق به: تعيش أنتَ، آزرك الله. ثم أقبل الطبيب وعزاني بدوره معاينا الوفاة. قال لي والحسرة تعتصر قلبي:

ـ المرحومة قبلتْها إدارة العيادة بضمانة مني لكوني أعرفك. في قاعة الانتظار جدّتها كانت رافقتها إلى هنا ومعها نسوة. الفاتورة نتقاسمها إن شئت، والإجراءات الأخرى تعرفها.

ـ دكتور، أنا أؤدي كل شيء، إنما انصحني بواحد يشرف على إعداد الجنازة ومراسم الدفن.

ـ ما فيش أحسن من الحاج عروب، ممرض متقاعد يخلصك من كل المتاعب، وهو الآن في قاعة الانتظار ليعرض عليك خدماتو...

صاحبت الطبيب إلى قاعة الانتظار، عرفني على الجدة ناعيا لها حفيدتها وعلى الحاج الذي أوصاه بي خيرا، ثم نعت لي مكتب الأداء، وانصرف محيّيا. عزيت الجدة الخرساء

والجارات وأخذت معلومات منهن سلمتها للحاج مع شيك، طالبا منه الإسراع بالقيام بعمله، فطمأنني أن كل شيء يتم بخير إن شاء اللّه.

وفعلا، في منزل الجدة بحي شعبي، حيث عاشت الفقيدة سنواتها الأخيرة، جرت على أحسن وجه مراسم التأبين، وحُمل النعش إلى المقبرة رفقة ثلة من الرجال، فكان الدفن، تلاه إحياء ليلة الأذكار والترحم، وغير ذلك. وبعد أن أنهيت ما ندبت له نفسي في حق امرأة أعدُّها من كبار جرحي الحياة، وصلني من الرئيسة الست زينب خبر صاعق نعتْ لي به موت الأستاذة ريحانة وزوجها وبنتهما جراء سقوط طائرتهم في جبال الألب في ظروف لم يُكشف عنها بعد.

هي ذي مشيئة الأقدار إذن: مثولي أمام ليلى المحتَضرَة وقاني شرّ موتِ محقّق!

هي جنازة كبرى مهيبة حضرها جمهور غفير، يغشاهم حزن شديد، ساروا في مواكب رهيبة مخترقين بعض شوارع المدينة، مشيعين جثامين أموات ثلاثة إلى مثواهم الأخير. كنت بينهم دائخ الذهن، مصدوم الكيان،

أكبر مع المكبرين وأذرف خلف نظارتي السوداء دموعا غزارا. وبعد مراسم الدفن، قصدت أقارب الأسرة المتوفاة، المصطفين حذاء بوابة المقبرة، فعزيتهم واحدا واحدا مع المعزين، ثم قصدت بيتي في أسوا حال. أما الست زينب فقد أنبأتني أنها أوقفت نشاط جمعيتها، ريثما يخف هول الصدمة عليها، ولا ترى أنه في المستقبل المنظور سيخف.

بعد استئذان الست زينب، زرتها في بيتها. وجدتها في منتهى الكمد والأسى، وجه شاحب، عينان محمرتان من شدة البكاء، تومان بنظرات تائهةٍ حيرى، كأنها -أو هكذا أولت- تترقب من قوة غيبية جوابا على وجوب فناء أسرة برمتها لم يبق منها للدفن سوى بقايا أشلاء مفحمّة. زوجها الذي عليه سمات المرض لم يجبني على كلماتي المواسية إلا برفع سبابته إلى السماء. ودعت الست بكلماتي وترجيتها أن تطلبني متى احتاجت إليّ.

انتظرت هاتفها ما يقرب من نصف سنة، ويوم اتصلت بي أخبرتني أنها تسكن الآن في طنجة، مسقط رأسها، تهتم بشؤونها الخاصة، وتسهر على رعاية صحة بعلها، وأن هذا هو

الدّاعي الأهم إلى تعليق عملها الجمعوي، وليس ما يرد عليها من رسائل مجهولة تندد بإثارة جمعيتها لمواضيع تصفها بالخلاعة والمروق عن الدين والحياء، ويذهب أصحابها إلى حد التهديد بالردع والقصاص... ومن بعد انقطعت الصلة بالتدريج، فلم يعد من سبب أو مناسبة لإحيائها.

ريحانة يا ريحانة يا ريحانة!

لو قدرت لفديتك بروحي وكلِّ ما ملكت يدي. وعلى منوال لو ولو، كم لي من تمنيات حرّى أعلم هباءها الهائلِ تحت هولِ موت فجائيِّ واقع. لكن لا سلطانَ لي على زمام خيالي، إذ يسرح في تقليب صورِ علاقتنا الثلاثية لو قُيّض لها أن تكون. خيالي هذا، لي أن أكبحه وقت اليقظة، لكني أعجز عنه في رؤايَ المنامية التي تفعل بتلك العلاقة ما تريد، مخلفةً بعد عودةِ الوعي إليَّ شظايا ورواسب، سرعان ما أجهدُ في طيّها وطردها.

ريحانة يا ريحانة يا ريحانة!

آهٍ من تراكم الأيام ومصائبها! وآه من تكاثر أحداثي وتضاؤلِ أحاديثي فيها!

حداد جديد على حداد قديم! ولا أدري ما تخبّئه الأقدار في مستقبلِ الأيام، وهل سأفلت مرة أخرى بأعجوبة من حصّادات عزرائيل وكبساته، فالأولى بعد هذي الثانية كانت بسبب زكام حادّ الزمني الفراش، وحال دون مصاحبة عائشة زوجتي الفاتحة وابنتنا في سفرة تمت بحادثة سير مفجعة هلكتهما. واليوم، ماذا اليوم تبقى في جعبتي من حيلة سوى نشدان النسيان ورتق الفتوق ما أمكن وتضميد الجراح.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

عن واحد مثلي أمسي يُمضي ثلثي وقته في فضاءاتِ بيته الجديد، راغبا عن الوظيفة، ميالا إلى العزوف عن مخالطة الناس وكثرتهم، سيقول النفسانيون إنه مالنخوليّ أو مصاب بعصاب الإنتكاس وربما ببوادر الفصام، وسوى ذلك من العلل العضال.

إنما في حالتي الخاصة، ليُسمح لي بنفي ذلك الزعم ونقضه، إذ أن برنامجي اليومي، صدّقوني، حافل عن آخره، سواء تمددتُ أو بين جدراني تسكعت: تخمينات دماغية في المصائر وقضايا شتى، استيهامات خصبة متعددة الأشكال والألوان، مشاريع كثيفة، معقّدة وبالغة الفانتزيا والهذيان، وهلم جرّا.

وعليه، يخطئ حقا من يدعي أني إنسان لا تصاميمَ له ولا أجندا. والدليل بالمثال:

إني مذ أخذت أعي العالمَ ومِنْ حولي مِنَ العالمين، وأنا أشعرُ أن عليَّ أخذَ قرارات وإجراءات بالغة الأهمية والجراءة، منها على وجه التحديد:

أن أقاطعَ كل ما يضرُّ بصحةِ الجسمِ والعقل؛

أن أطهّر الوجدانَ والبال من الغلِّ والحسيفة، ومن الندامة وسوءِ الطوية؛

ألا أنامَ سوي سويعات هادئة، وأخرى لأحلام مبتغاة؛

أن أقرأ كل يوم في كتاب الدنيا ما تيسرَ من علامات وآيات، وأكتبَ على حواشيه ما تهيأ لي من دوارٍ وانطباعات...

غير أنّي بقدر ما ازددت شعورا بملحاحية تلك الإجراءات والقرارات، إلا وصرتُ أمرُّ في شأنها من إرجاء إلى إرجاء. لكني الآن، بالرغم من ذلك، عاقدٌ العزم على مغالبة كلام التسويف بتهييئ شروط الفعل والتحقيق.

أما حياتي فإني أؤثر سردها حصريا على نفسي، متقصدا لربما تضمين زبدتِها ذات يوم في كتاب لن تقرأوه، وإن قرأ البعض فبنظرات عجلى أو عيونٍ مستنيمةٍ كسلي. كان هذا خياري، فدأبت عليه زمنا إلى أن ضاقَ الطوق على سردي الذاتي وطفحَ كيله. إذّاك، تجنبا لموتٍ فجائي من شدة الكمد والغمّ أو الضحكِ القاهرِ المسيلِ للدموع، قررتُ كراء إنصاتِ

محلل نفساني لقصصي الحياتية، لعلي أراني في مرآة مقولاته وآلاته فأخفّ، وليس ابتغاء شفاءٍ مًّا لا أحتاجه.

بالقرعة توقفتْ سبابتي في سجل الهواتف على اسم محللة نفسانية وعنوانها. بعد أخذ موعد مع كاتبتها، كانت الجلسة الأولى معها تمهيدية، أبلغتُها في بدايتها أني لا أبغي منها أي عضوٍ عدا أُذنَها، رامزا إلى أني لا أقصدها مستغيثاً: حلّليني عالجيني! ولا أظن أن الشقراءَ ممرّضة العينين وعت رمزي، إذ سرعان ما كلفت مساعدتها بمصاحبتي إلى حجرة مغلقة، حيث عبأتُ استمارة تعريفية وأخرى استجوابية تركتُ بعض خاناتها فارغة.

على باب الخروج، سلمتني الفتاة بطاقة العيادة وتواريخ المواعيد القادمة، وذلك بعد أن أطلعتني على تسعيرة الجلسات ووجوب أخذ المواعيد واحترامها.

في بيتي اقتتُ بما أعدته خادمتي خدوج، ثم أبحرت في عالم الأنترنيت، أطالع بعض الصحف، كما هي عادتي، أجيب على رسائلَ دون أخرى، أبحث عن معلومات في غوغل، أزور مواقع يتقدمها موقع المحللة النفسانية

الذي دلني على أنها مغربية المولد والمنشأ ولو أن عربيتها لكناء، حاصلة في اختصاصها على شهادات عليا من باريس، ممارسة سابقا في مستشفيات الأمراض العقلية ببروكسيل.

الأمراض العقلية!

مختل عقليا أنا؟ أعتقد أن الطبيبة لا تحسبني كذلك، هي ذات الفراسة والحدس المكتسبين، والملاحِظة أني ما ألقيت عليها نظراتٍ شهوانية، ولا تحرشتُ بها أو طالبتها بتعبئة استمارتين، كما فعلتُ أنا.

أما أن تكون لي مشاكل نفسية مّا، فذلك ما ترجِّحه ولا شك، وإلا فلِمَ زرتها وقمت بالإجراءات المملاة عليّ!

*

في الحصة الشهرية الأولى، بطلب من المحللة، استلقيت على أريكة، وقعدت هي خلف رأسي، ناقلةً نظرها بيني وبين كراسة على فخديها، فيما أنا لا أستطيع رمقها إلا إذا وسَّعت حدقتيّ وقلبتهما. المنهج، كما أعلنتْ:

أن تُلقي عليَّ أسئلة قصيرة، وأجيبها إما فوريا وعفويا، وإما بالروية والتأني. وكان كلامها معي كما يلي، بعدما فرّغته من دكْتفون بثثته في كمي، ثم نقلته إلى العربية من الفرنسية لسانها الغالب؛ وقد أُجري العملية نفسها في الحصص القادمة إذا اقتضى الحال:

ـ من أي شيء تشكو؟ سألت.

- من لا شيء...

- لا شيء؟!

ـ إنما ألاحظ تدهور علائقي مع أناس كُثر في وسطي... سوء إقبال متبادل...

- كلّ الناس؟

- ما عدا نساء.

- والسبب؟

- معهن أصير أحسن.

- علاقتك بهن؟

- عاطفية وأحيانا... سريرية. وحتى هذي

العلاقة آخذة في التناقص.

- ليه؟

ـ تكاثر السحّاقات والساحرات والخبيثات، إضافة إلى مصاصات الصحة والمال.

- متزوج؟

- أرمل... زوجتي الأولى، حبّي الأكبر، ماتت مع ابنتي في حادثة سير مروعة...

- واليوم؟

- مطلق.

- والسبب؟

- سوء وئام وأيضا تلك العلاقة الفراشية أيام فيضها.

- وليه تمسّكت بهذي العلاقة؟

- هي الحاجز الأوحد دون انتكاسي.

- قلت علاقتك بالنساء تتناقص. كم العدد اليوم؟

- من دون العَرضيات والعابرات، هناك واحدة أعولها، وأخرى لي عليها ديْن.

- دين؟

ـ أنقذتها من شقاء...

- شقاء؟

لزمتُ الصمت، قالت:

ـ عدم الإجابة من حقك...

- ما فيش لزوم. أعنتها على طلاقها من زوج خنزير، كان يتلذذ بإهانتها والإساءة إليها...

ـ أعنتَها كيف؟

- حلمت بقتل الزوج، وعوض الفعل أديت أتعاب الدفاع.

- نومك عادي!

- لا بأس.. ما عدا حين تتسلط عليّ كوابيس. منها واحد يرعبني أكثر من مرة، أراني فيه مع ركاب طائرة على علو شاهق تتحول إلى حاوية من نار موصدة، فتتهاوى في البرّ قاذفة

أشلاء مفحمة...

حكّت سائلتي جبهتها، كأنها تبحث عن تأويل أو تعقيب، لكنها فاجأتني قائلة:

- حسب الاستمارة، تعمل في الإعلام...

-صح... لكن أنوي مغادرة مهنة لوثها صحافيون ابتزازيون مرتزقة وأفسدوها...

- عندك موارد؟

- ارث متواضع يكفيني، فضلا عمّا يأتيني من دروس في معاهد ومن قلمي...

- من قلمك؟

ـ أقصد من كتاباتي...

- كتاباتك؟ وتكتب إيه؟

- شوية شعر وسيناريات وبالأخص أبحاث وروايات؟

- وإيش تحكي؟

- أشياء وأشياء وأخرى!

سكتت الشقراء برهة، كأنها استشكلت جوابي الغامض وأخذت تُعِدُ سؤالا على أقوالي السابقة أو ما بدا لها، وكان ما رجحت وتوقعت: علاقتي بأمي. أعلم أن موضوع الأم وحتى الأب هو من مواضيع النفسانيين الأثيرة. أمي تُوفيت بالمرض الخبيث منذ سنوات، لكني قطعا لدابر السؤال لفقت جوابا، تاركا لمحللتي مهمة إدراك كذبه إن استطاعت. فلا عقدة أوديب عندي: لا غرام بوالدتي ولا نزوع إلى قتل أبي. قلت:

- أمي بعد خروجي من بطنها تُوفيت. ما تركت غير صور لها بالأبيض والأسود.

- واحدة من صاحباتك تشبهها؟

ـ لا أظن ولم أبحث في الأمر.

- وأبوك؟

- وافاه الأجل فلحق بالمرحومة أمي...

ـ هل لك إخوة؟

- كانت لي أخت واحدة هي الكبرى، ماتت تعسة من شدة ما عانته مع زوج أجلف،

عاشرته في مدينة بوجدور الصحراوية، ولم ينفع فيه نصحي له بإحسان معاملة حرمه ولا تهديدي بكسر أنفه وعظامه...

ـ هل أنت عنيف؟

- نعم، لمقاومة العنف وصيانة الكرامة...

- حتى الآن لم تذكر اسم الله ولو مرة!

ـ ما كانت لذلك مناسبة...

ـ أقصد هل أنتَ مؤمن؟

صمتُّ فجأة كأني أزن ثقل السؤال قبل الرد عليه. وأطلت صمتي طمعا في إرهاقها بتأويله، فأتت كلماتها متقطعة مرتبكة، مرددة السؤال نفسه. قلت:

ـ أنا والله... صفحة بيضاء... والدي كان يحسبني ممن نسوا الله فنسيهم، ويدعوه أن يشاء هديي، وما زلت أنتظر...

رأيتُ ممرّضة العينين تحك جبهتها وتمرر كفّها في شعرها، كما لو أن كلامي على اقتضابه دعاها إلى التأمل في معانيه؛ ثم ما فتئت أن تململت، وهي ترتب جذاذاتها في ملف:

- وأمراضك العضوية؟

- أهمها أيام شبابي الميناننجيت، التهبت سحايا مخّي وتحولت إلى سائل صلّب عمودي الفقري، فتعاون على استخراجه بالحقن ممرضون أشداء، محدثين لي من الآلام الصارخة ما لا يطاق. وحتى الآن مجرد ذكراها يوجعني... أحسب أني فلتت من عزرائيل بأعجوبة...

- وفيه وعكات أخرى؟

- شلل نصف الوجه حل بي وأنا طالب في باريس، أشاع على إثره بعض الأشرار أني مصاب بسرطان الدماغ. وأثناء عودتي لقضاء عطلتي، صار أصدقاء يتفرسونني دهشين من كوني أضحك كثيرا، كما عهدوني، وأحكي النكت والنوادر ... ما عدا ذلك، عانيت من أمراض وعمليات، لكنها أقل خطورة...

- إنما بنيتك تظهر جيدة.

- لا بأس... هذا من فضل الرياضة عليّ، أهمها الجري وحمل الأثقال.

- والبروستات... أقصد قدرتك الجنسية؟

- معتبرة!

- وميولك الجنسي؟

- ما دام إلى الجنس اللطيف فقط، فهو على ما يُرام...

- في الحصة القادمة نعيد ترتيب المعطيات، حسب مكوناتك كذات حية، بما نسميه في معجمنا: le ca ثم le moi ثم le surmoi، أي تركيب أناك بين الجنس والمجتمع. وحتى تغالب مقاوماتك قد أعينك، إن وافقت، بالإيبنوز أو التنويم المغناطيسي... إلى اللقاء.

الحصة الأولى قد تكون استغرقت حوالي ساعة إذا احتسبت دقائق الصمت. سلمتني المساعدة وصلا على المبلغ الذي دفعت، ما يعادل مئة دولار، وتذكرة للموعد القادم.

***

في الشوارع التي همتُ فيها على وجهي، انصرفتُ إلى التفكير في استمارتي وخصوصا منها خانة سني المشرف على خمس وخمسين، وخانات تركتها بيضاء حول أسرتي وطبيعة عملي وانخراطاتي السياسية

والمدنية. ولم تستفسرني الشقراء عن ذلك كله، لاعتبارها المهني أن سكوتي عنه حقٌ لي ويحوي عندها دلالات.

وفيما يممت وجهة التي أبيت عندها الليلة، إذا بذراع تلفُّ كتفيّ وينهال عليّ صاحبها بالتقبيل رغم تبرمي. كان الرجل من معارفي القديمة، وممن لا تنهضني أحوالهم ولا تشير إلى الصفاء أفعالهم. نسيت اسمه وأشياء أخرى عنه، عدا أنه نمَّام كذاب، يستلف مقادير مالية من كرماء مغفلين مثلي ولا يردها، فسُميَ بهذا المعنى السلفوي واشتهر. ادعى، كما توقعت، أنه في أمس الحاجة إلى مالٍ لم يحدده، إذ امرأته مقبلة على عملية جراحية ثقيلة، وشرع يدعو لي ولأبي الذي، كما ذكّر، ورّثني إرثا حلالا، تنمّي بركاتِه الزكواتُ والصدقات على ذوي الاحتياج والفاقة. أعطيته بعض ما كان عندي مشترطا عليه أن يغيّر الرصيف والوجهة ويغرب عن وجهي تماما. وهكذا تنفست الصعداء، إذ تخلصت من هذا المريض النفسي الأحوج إلى المتابعة الطبية العاجلة وأمثاله كثرٌ طلقاء.

وبعد ذاك اقتنيت باقة ورد وعلب شوكولاتا لخليلتي المفضلة، كلثوم، لكونها امرأة

مبشورة، شيقة الكلام، بوذية الابتسامة، وتصْدُقني أن حبنا اليوم ليس في التناظر بالعيون بل بتصويبها إلى الهوم-سينما، هديتي إليها، للتفرج على أفلام من الروائع العالمية، ومن حين لآخر أفلام الذعر أو الوسترن من صنف السباك

***

للحصة الثانية تهيأت في بيتي، فحررت كلامي مضمونا وشكلا وبلغتي، كما لو أن أكثره سيكون من وحي التنويم المغناطيسي، موشّيِا إياه بألفاظ ومعانٍ لا شك ستتشكل على محللتي وتصعب، وبالتالي تربكُ فهمها فتتأولني خارج نطاقي وسياقي. وفيما كنت أنقح جملي وأحفظها عن ظهر قلب، رنّ الموبايل فسارعتُ إلى اختصار جوابي بالإعتذار عن المشاركة في ندوة أعلم أنها ستكون مجرد لغو وثرثرة، ثم هببتُ إلى لقاء طبيبتي.

على الأريكة، طاوعت الشقراء في إجراء ليبنوز عليّ بإغماض عيني والنطقِ بكلماتٍ مهدِّئة ناعمة. وما هي إلا دقائق حتى انطلقْتُ بما حفظت:

«منعرجات صعبة في حياتي، أعترف أني أسأت تقديرها وتدبيرها. واللائمة عليّ وحدي، لا على غيري، ولو كان منْ ولدني وربّاني. وحاضرا، أرى أنْ لا شيءَ يضمد جراحي الظاهرة والخفية غير التطوع في إحدى الجمعيات المدنية المدافعة عن حقوق المقهورين المتروكين؛ وإلا فإليَّ بالهبّات الهذيانية والتثاؤبات الكليلة الكسلي، كيما أبقى على قيد حياة مضطربة، أجرها جرّا...»

بعين واحدة استرقتُ النظر إلى جليستي، فلم تدلّني صورةُ عينيها، كما خُلقت، على حالها: أيقظة هي أم غافية؟ آثرتُ الإستئناف فقلت:

«عن طفولتي ومراهقتي؟ لما يسهل إطلالي عليهما، أرى خطوطا عريضة غائمة، بعضها ينفلت دوما ويراوغ، وبعضها يقبل الانجلاء على ضوء التذكر. من هذه الخطوط الأخيرة أستشف بداية قصتي الثابتة مع الميل إلى الخجل والخلوة - عملت على ترويضه وتليينه في متم مراهقتي-، كما أستشف منها أيضا نشأة طعم الوجود عندي، يغلب عليه شيء من القلق وقلة الرضى والطمأنينة، وحتى ميلي إلى نوع من التشاؤم المعتدل اليقظ، قد

تعود بذوره إلى سني المبكر. وفي تماوج الذكريات تطفو صور لا أنساها: صورة معلمة فرنسية أغرمت بها في كامل الصمت والتستر؛ وصورة وجه بنت كنت بكثير من البراءة أطاردها في سطوح دور من أجل أن تهبني بوسة أو تعدني بها؛ وصورة وجه إمام مسجد أراني النجوم بلطمة قوية على خدي، لأني لطخت جلبابه الأبيض بقذفة كروية من رجلي أثناء إحدى المباريات بين أولاد الحيّ؛ صورة شاب استفزني، فانهلت عليه بالضرب، ثم سرعان ما أسعفته مع صحابي بعد أن تبين أنه مصاب بالصرع... كثيرة هي الصور التي تعلق بذاكرتي، عنونت بعضها، وبعضها الآخر هو مما يحسن أن يُستر...»

بدت المحللة مهتمة بأقوالي أو بنتفٍ منها، فأردفت:

«أعرّج الآن على ما يجوز قوله عن جانبي العاطفي... بفضل ليال سهادية ضاغطة متكررة، تقلدت مهمة شاقة، لكنها ضرورية: أن أغطس في أناي العميق بحثا عن نشأة فساد علائقي في وسطي مع أعداد من الجنس الذكوري. فلولا اللواتي عاشرتهن، لكنتُ منذ زمان أسلمت للأقدار أمري، وتوغلت في توحد

عميق، لا شكل له ولا متمّ... مع نسوة رائعات، كنت كثيرا ما أجد نفسي معلقا في بينَ بين. لكني مع ذلك، ميّال أنا عموما إلى الجميلات والمليحات، الذكيات المستحقات، وإلى اللائي منهن تُظهرنَ تفاؤلهن مشوبا بذبذبات حزنٍ رقيق، أو أخريات يكشفنَ عن تشاؤمهن بإطلاق ضحكات صاخبة ودامعة... إنما في مقابل ذكرياتي النورانية معهن، هل عليَّ الآن، من باب الشهادة الأمينة، بسوق عينة واحدة من العينات السيئة؟»

وبينا أنا أفكر في الحديث لماما عن حالة ليلى الممسوسة أو رقية المتشاعرة اللئيمة، لم يأتني من المحللة جواب، فأحجمت... هذي المرة لمحتُ كفّ محللتي يلامس وجهي، وهي إشارة، حسب علمي، لإيقاظ المنوَّم اصطناعيا، فاستقمت واقفا على إثر ما قالته: إلى اللقاء في الحصة القادمة...

*

الحصة القادمة، استشعرت أنها لربما تكون الأخيرة لدواعٍ ومسببات، أنتظر من الخبيرة أن تعرضها عليَّ وتقنعني بمنطقها وصوابها.

وفعلا صدق حدسي! فلقد اعترضتُ محللةٌ نفسي على تنويمي، فألححتُ عليها في طلبه، وإلا لا كلام ولا أداء. وبعد أخذٍ وردٍ وتهديدي بالانسحاب فورا، أذعنتْ شبهَ مكرهة، متعللة بكون خانة الأنا الفوقي يلزم ملؤها حتى تنال قاعدة المعطيات تغطيتها كاملة غير منقوصة. وهكذا استأنفنا عملنا، كلٌّ حسب دوره وهيئته، كما في السابق، فانطلقتُ ناطقا بما حفظت:

«في الشأن الماثل أمامي، كم مرة استجمعتُ قواي، وعبّأت وعيي وملكاتي لكي أنزل إلى عمق باطني بالتنقيب والفلي. لكن - يا لهفاه! - ما إن يتمّ لي ذلك، حتى يبرز عندي انطباع حادّ أني أحلّ داخل بؤرة، تحيل تضاريسها وروائحها على أرجاء الفضاء البراني، مسيجا بالسياسة ومشتقاتها والمجتمع ومطابخه... اجتماعيا، متعبٌ أنا، كواحد تضاءلت لديه نوابض الحيوية وحظوظ الخروج من النفق. وإذن، مأخوذا في موجات تشاؤم دبقٍ غالب، زهدت في البحث عن نفسي، ناهيك عن الناس جموعا وفردانا... لامست الفراغ المرعب في معنى الحياة، فلم أجد من حيلة سوى تمضية الأوقات بالإدمان على الأسفار الفعلية أو الذهنية، وممارسةِ

السياسة الخيالية؛ وبين هذه وتلك بثُ ألبي دعوات إلى حفلات زخرفية مسلّية بقدر ما هي سطحية سرابية...»

صمتٌّ لحظة منصتا إلى تنفس محللتي الخفيف، رمقتها خلسة، فألفيتها كما عهدتها، مغمضةَ العينين تقريبا، لا تبدي هذي المرة حراكا، كأنها سابحة في سياق غير سياقي وجوّ غير جوِيّ. رُمتُ إتمام كلامي بعد أن ترددت:

«أما السياسة، فقد انخرطتُ في حُزيِّب جد تقدمي، يذيّل به في المجالس البلدية والحكومات المخلّطة. حُزيّب صار لي فيه مناصرون وأتباع، أوصلوني إلى رئاسة جماعة بلدية في انتظار شغل منصب أعلى؛ فلم أتمم ولايتيِ، إذ لم أعلن للرئيس الجديد بيعتي. ومن ثمّ فُتحت عليَّ نيران حرب شعواء بلا هوادة. وعليه، بعد أن مجدني الناخبون وعصموني، ها هم اليوم يرمونني بالسِّباب وحتى بالطماطم والنعال والبيض الفاسد. صك الاتهام: كذابٌ محتال، يدهن من قوارير فارغة، مُكسّر ميزان الحرارة لخفضها، وهلم جرّا... سياسيّ راسب، هكذا زعموا، ومتقلِّبُ الأحوالِ أيضا بحسب هبوب الريح المناسبة،

حكم جائر هذا، سكتّ عنه وتناسيته؛ لكن أن يقذفوا بي في حلباتِ ثأرِ الأوباش، أن يقصوني إلى حيث أطيّبُ جراحي وألحسها، بل حيث قد أصاب بما ينقلني من الحياة إلى الممات، لا وألف لا. الأحرى بي أن أتلمّس منفذا آخر، منشدا الخروجَ والنجاة، سالما بروحي من أوساط السياسة المحكومة بالموانع والكوابح وسُنن العنف والمكائد؛ فكان عليّ إذن في دنيا الامكانات والتقلبات أن أظل كنار أسيء إطفاؤها، أو كجمرة متقدة تحت الرماد..»

قطعتُ فجأة تيار حديثي، فأجرت الطبيبة عليَّ لمسات الإيقاظ، وربما عليها أيضا، مرفقة بإشارة إنهاء الحصة.

*

في الجلسة الرابعة التي لم تنعقد، قابلتني المحللة بابتسامة صفراءَ عريضة، أنبأتني بفرنسيتها الطليقة أني إجمالا أعصي على طبها، حتى لو ترجمتُ لها كلامي إلى لغة عملها. ولتبرير أجرها على خدمتها، كما ظننت، وصفتْ شخصيتي بما يفيد أنها شائكة معقدة، لكن قوامها متين، فلا يستوجب أيّ تحليل

نفساني ضروريّ طويل الأمد، ولو من طرف طبيب آخر. وحتى أحلامي، أضافت، واستيهاماتي وفلتات لساني وما أسميتُه أنا غلطاتي وخساراتي لا تتمُّ جميعها عن أيّ أعراض باتولوجية مقلقة. وكلمة الختم كانت عرضَها على استعادة بعض مصاريفي على الجلسات الثلاث، فسارعت إلى القول: حاشا حاشا أن أقبل... وكان بعد ذلك الوداع.

على المبسط، أردت أداء سعر الجلسة التي لم تتمّ، امتنعت المساعدة ثم تقبَّلته لمّا أن سميتُه هدية متواضعة منّي إليها. وبعدها غادرتُ المحلَّ إلى الخارج حيث تجوّلت في الشوارع ولساني يغلي بأسئلة شتى، فيما الموبايل يرّن ويئن فلا أحنّ ولا أجيب. وحين حدا بي الفضول إلى مطالعة النداءات، وجدتها كلها لكلثوم، خليلتي التي قد تصير ذات يوم حليلتي، بعد أن أعنتها، كما سبق، على تطليقها من زوج أجلف خنزير، لو رويت مأساتها معه للزمني سفرٌ أو أكثر. هاتفتها أنبئها أني إليها قادم، ثم قصدتها راجلا، وفي نيتي أن أروي لها حكايتي مع الشقراء ممرَّضة العينين، التي لم تجد في نفسي ما يحلل ولو بتنويمي مغناطيسيا، فما نوّمتني وما أفادتني، وإنما رافقتني، ليس غير، بالإنصات

إليّ: أي إلى أجوبتي المقتضبة علىِ أسئلتها القصيرة، ثم إلى سيل كلامي المعِدِّ سلفا، كما إلى بعض قصصي. وستعقّب الخليلة بما أعرفه عنها: ترى إذن ما فعله الاستعمار بنا! أقام شروخا في هويتنا وهوّة تصيب الواعي بها والمطلَّ عليها بالدوار والهلع. متخصصة نفسانية من هذا البلد ولا معرفة لها بلغته! في المغرب كم أستغرب! كم أستغرب وأذمّ وأرفض القول المأثور: في المغرب لا تستغرب... وبوجه متوردٍ غاضب وبسمة لا تفارقها ستردف: لا بد لي معك يا عبده ومع غيرك من إنشاء مرصد للظواهر المرضية السالبة من إختلالات ومفاسد وعبثيات، نسميها، نشخصها وننفع، قدر الإمكان، ذوي الإرادات الحسنة بمعرفتها للتصدي لها والسعي إلى إصلاحها...

آهٍ من توالي السنين وتدافعها!

في الحديث عن نفسيتي ووجودي، تحاشيا لأناي الذي منه بعظمةِ الكون أعوذ، أؤثر توكيل أمره إلى من تفضلوا، وهم قلة، بالكتابة عني. ومما جاد به أحدهم كثَّر الله خيره ونعمّه بالجنتين: قد وصف كاتبنا من سجّل: «المستاء من الأخرين مستاء دوما من نفسه». ذلك أنه في شؤون الحياة الكبرى (الحب والحرية، العدالة والجمال، الكرامة والحقوق المرعية، الخ.) لا يتوانى في التحمس الفياض والتفاني في رفع سقفها دائما إلى الأعلى. غير أني أضطر إلى الإقرار أن انتظاراتِه وآمالَه تفقد على التوالي أحزمتها وحدودها. ومن ثم ينشأ استياؤه ونفوره من النسبية والنواقص والمكرورات، المعجونة بتوابل القدرية والمصابرة الدائمة. إنما لحسن حظه، هناك من يواسيه بالقول: «الأفضل أن تكون إنسانا مستاءً عوضَ خنزيرٍ مغتبطٍ فرحان».

وهذا آخر، ألحق الله روحه بالرّوْح والراحة، أبي بسعة إدراكه وخفة طبعه إلا أن يلمّح إلى

بعض فواجعي، فقال في إحدى فقراته:

تخيلوا ما قد يكتبه صاحبنا في صيغ أفكارٍ واعترافات، وهو ممدّد على فراشِ نقاهاته المتكررة، وجميعُها تشي بتدهوره وعيائه. وهكذا، أحسبه يناجي نفسه بوجوب تهوين إحساسه هذا وبلزوم خلوته، معتصما بالثبات والصبر، متغاضيا عن قلوب الحجر من حوله، وعن العلاقات النفعية المحسوبة بالدقة الصارمة، والمنحطة في سُلَّم القيم المُنهضةِ والحياة ذات الجودة والجدوى. أما إذا، بغتةً، عاودته حالة مّا من الحماس والحمية في ما يشبه تمردا غاضبا، فإنه وقتها يلجمُ نفسه، آمرا إيّاها بالإياب إلى مربعات عاطفتها الخصبة وصمتِها الخلاق، وإلا صارت واحدة من الأنفس -وما أكثرها! - التي يقسو في تعنيفها الزمانُ السالب وخرابُ الصداقاتِ الواقع...

وثالثةُ الثلاثة آنسة لبنانية، توقّع باسم سوزان الحِلو، حكوا لي عنها كلُّ خير، وحفظتُ فقرة نيرة من مقالتها عن إحدى رواياتي، جاء فيها:

صفحاته كأنما هي أوعية يرفعها عاليا، محاولا تصيّدَ الياقوت والمرجان في أمطاره الخيالية. وحين يحس أنه وُفق، يعانق الريح الطيبة،

ويبعث إلى الكواكبِ القبلات...

إن ما غاب عن أولئك النقاد وغيرهم، أو من باب العفة والتستر لم يذكروه، هو أني، لمواساة نفسي، أجْبَهُ أخصامي بالقول: سيضحك حقا من يكون آخرَ الضاحكين؛ وفي علمي المضمر، أنا البالغُ اليقظة، أن حظوظي شبهُ منعدمة في أن أصير ذلك الآخِر، إذ أسلحتي متدنيةُ المضاء، وقدرتي على الدّسّ والختلِ والمناورة ضعيفةُ الوقع والباع.

أمنية لامارتين كانت: «أيها الوقت، أوقف طيرانك!»؛ وأمنيتي أنا هي بالأحرى: أيها الوقت، أوقف استنزافكَ وطغيانك ... لكن ما الوقت الوجودي، وليس الكوني، سوى عدّاد عبورنا في الحياة وما يعتور سيلان هذا العبور من حالات شعورية وأزمات. لذا فمخاطبته كما لو أنه كيان منفصلٌ عنا، وعن نبضات قلوبنا ودورات دمنا، إنْ هي إلا تعبير مجازي أدت إليه العادات الكلامية ليس غير. والحال أن مرور الوقت بل مرورنا فيه لا يزيد الأعضاء والأطراف الحيوية إلا ضمورا وانكماشا فحشرا بين طيات الإنطفاء الخاطف أو البطيء المعتم، وهذا لعمري من لوائح العدم ومستهلاته.

نعم، الحياة في العمق مأساة، ومن حاجج في هذا لينظر إلى حشود الخائفين على أنفسهم من ضياع مسراتهم، فيعلم أن المأساة أصلٌ ثابت، وملهاةَ المسرات لحظاتٌ عرضية زائلة.

أما المواساة الجديرة بالطلب فهي، كما خَبَرتها، أن أعاشر ما استطعت من الإبداعات البشرية العظمى في رحاب الفكر والوجدان، وتحت ظلال النهل والتأمل وغواية الكتابة. ليس هناك غير هذه المدارج والمراقي لمغالبة الوجود وإعطاء المعنى للوعي الحادّ بمِحنه وهزاته.

حيث أنا من عمري، حياتي لا تُبقي لي في حنجرتي إلا طعما هو الماكثُ الغالبُ المتمكن... عنه ماذا أقول؟

إنه أشبه ما يكون بطين لزجٍ بارد، غريبٍ عن الحراراتِ الأخوية والأهْويةِ المطهِّرة، رمادٍ تزخَر بُقعه وذراته بعلامات المرارة الفائضة والفواجع الصادمة.

الإمبراطور نيرون وصِنوه، مع وجود الفارق، الخليفة الفاطمي، المتقلب بالحاكم بأمر الله،

في أوج سوداويتهما أحرقا للتلهية، الأول روما والثاني فسطاط القاهرة؛ أما أنا، خريجُ أنفاقِ البلايا والنكسات، البالغُ من الكمدِ أشدهُ، فلا أحرقُ إلا تبغي، ملوِّثا صدري وغيره من الأطراف.

أنْ يُرزأ المرء تباعا في أقرب المقربين إليه أمرٌ قضاءٌ وقدر، لا نقيس بسبّه والتمرد عليه سوى واقع عجزنا ومنتهاه. وعلى إثر أرزائي المتعاقبة، طبعٌ حِدادي تسلَّط عليَّ، فلم ينفع في تهوينه دعاءُ الغير لي بالصبر والسلوان، سيما وأني دخلتُ سنّ العد العكسي نحو ما لا مفر منه، ماثلا في دنوِّ الأعضاء والملكات من مخاطر الوهْنِ والإنتقاص. لن أنسى ما حييت موتايَ الأحباء، لكني أربأ بنفسي عن استدرار تعابير الشفقةِ على من قِبل الغير أو حتى من قِبلي.

الموت، نفكر فيه أحياءً قبل أن يصيبنا. ومن يدعي أنه يتعالى عنه ولا يعبأ به ويبالي، عليه أن يزنَ ويقدر دلالة هولهِ لدى أحبته المخلّفين بعد رحيله، أو لديه إذا ما فقد هو أحدهم أو بعضهم. هنا يكمن سؤال الموت الأوحد ومأساةُ أسبابه مهما تعددت وتناسلت.

إبكْتيت، المتوفى عبدا منفيا من طرف الامبراطور دوميتيان، كتب ما يلي: «ألا تعلمون أن أجسادهم عبيد الحمي والنَّقرس والعمى والحصبة والطاغية والنار والحديد، وكلِّ ما هو أقوى منها؟» ... في زماننا هذا المطبوع بأمراض أخرى عضال وأهوال، كيف لا يحمد الأقدارَ من لم يُصب (أو ليس بعد) بإحداها: السرطان والسكري والقصور الكبدي أو الكلوي، فضلا عن السكتات القلبية الفجائية، والعلل العقلية أو اليتيمة، والفواجع الطرقية والطبيعية، ومعاطب الهرم والشيخوخة، وغيرها كثير!

هذا هذا! ويقولون لك تفاءل واستبشر.

طوال سنوات تعلمي، لم أصادف أبدا تفاؤليةً أوفي تمامية وغلوا من تلك التي جسّدها أحد أخلاف بانكَلوس في كانديد لفولتير، المنصبَّة جهوده كلها في القول إن هرمونيا بالغة الدقة والإحكام تدير الكونَ والموجوداتِ والأشياء. وكنتُ إذا حدثته لماما عن بعض الأفاعيل القياسية للشر والعنف والشقاء، رأيته يزداد تشبثا بعمود مبدئه، مجيبا وقد توتر أن ذلك وسواه إن هو إلا أضرار جانبية، لا تغير من جوهر الهرمونيا مثقال ذرة. وظل شديدُ

التفاولِ فائضُه على تلك الحال، حتى إذا أتى عليه يوم ربيعيٌ بهيّ إنتحر بعد معاناة ممضة مع المرض جهلتُها، فأدركتُ أن العناد كان سلاحه الأثير والإصرارَ ترياقه الأنجع لتطويق أوجاعه ومكابداته، فوقفتُ على سُخف مأخذي وقساوتها، منها اتهامي له بتقليد الفيلسوف الألماني ليبنيز تقليدا أعمى، مع أنه لربما لم يسمع حتى باسمه. مات الرجل إذن منتحرا، ومن حريق أتي على غابة حيث كوخه لم تنج إلا رقعة فيها، عدا ما حفظته ورمزت إليه، هذه اللطيفة التي برزت كالتالي بعد أن صلّحتها: عزائي وسلواني في كربي وكبواتي أني لا أصرّف كل أوراقي، إما تحوطا وتوقّيا، وإما تواضعا وتعفّفا، وإما خوفا من فقدانها كاملة.

إن حالتي المتدهورة لَواقع، ولا أقولها من قبيل الميلودراما أو الركون إلى الشعور التراجيدي بالوجود، بل جرَّاء ما لا يعرفه أحد سواي، وهو أني، بُعيد مآتمي واتشاحي بحداد حادٍ، فقدتُ مخطوطة كنت كأني كتبتها بملكاتي وجوارحي كلها، وأجّلتُ نقلها إلى الحاسوب؛ مخطوطة أعمق وأقوى من أيّ عمل روائي حرّرته من قبل، إذ بذلت في وضعها جهودا قصوى ممتعة، وسهرت الليالي

قاهرا الأرق والإرهاق، مستثمرا ملكاتي كلها وما ملكت نفسي من تجاربَ ومعاناة، كما لو أني معها أُنجز نصيَ الأخير، الذي من بعده يجوز بل يطيب لي أن أسترخص الموت، جاهرا في وجه عزرائيل: الآن إن شئتَ تقدم.

في سالف عهده بما يسمى الإبداع الروائي، كتب صديق من الأباعد نصا فارسُهُ الفالح فيلسوفٌ صوفي من القرن السابع، ابن سبعين، إذ تخيل أنه في زحمة مآسي الأندلس المتصدعة، وأثناءَ هجراته الاضطرارية، أضاع مخطوطته التي هي عنده نصُّ نصوصه وأنفسها وأرقاها، فوصف حزنه الشديد لذلك وكربه المستعر. إنما الفرق البين أن ما تخيله الصديق في حالة الأندلسيِّ المغربي قد استحال في حالتي أنا إلى واقعٍ جليٍّ لا غبارَ عليه. والسبب في الإضاعة ماً أصابني به حدادي المذكور من ذهولٍ وشرود وحتى ثقوبٍ في ذاكرتي، أرجو أن تكون عابرة لا مزمنة. والثابت عندي أني نسيت محفظتي الحاوية للمخطوطة على سطح سيارتي قبل الانطلاق من مرأب مطار الدار البيضاء في ليلة مطيرةٍ عاصفة، فلم تنفع في محاولة استرجاعها طلباتي وتحرياتي. وكم مرة حلمت بمن يساومني في تمكيني منها مقابل

مبلغ مالي، فأوافق عبثا وأرحبّ! وفي المحصلة، فاقمتْ تلكمُ الإضاعة من سوداويتي وانطوائيتي، فلم أجد ما أواسي النفس به إلا في اعتبار فقيدتي قابلة للانبعاث، ولو بجهد جهيد، وبمقدار أدعو لي أن يكون وافرا، هذا على عكس أمواتي الراحلين من دون رجعة.

بناءً على ما تقدم وغيره قد يأتي، قلت: كيما أشرح صدري وأقبض ما استطعت على القدَر من ناصيته، والشيطانِ من قرنيه، يتوجب عليَّ حيالَ الموت تعلُّم سيرة التموين والتحدي، مقتديا في هذا بالفاتحين الأوَّل والغزاةِ البواسلِ الأشداء؛ لكنْ هيهاتَ ثم هيهات! فأنا لست من أولئك ولا من هؤلاء، إذ لا اقتدارَ لي إلا على تمثلهم وشحذ النفس بشيءٍ من قبساتهم.

حقا، فكري يمضي أوقاتا في تواجهٍ موجع بينه وبين ما يقاومه ويروم نفيه. فهل أنضم يوما، ولو بنسبة ما، إلى زمرة هؤلاء الذين كانوا يبحثون وهم يئنون: الحلاج، المتنبي، المعري، باسكال، فان كوك، أرسطو، وغيرهم؟ أستكثرُ هذا عليَّ وأستبعده، ولو بشيء من لكن وإلا...

الانتفاض المقرون بالتوثب أمسى عليَّ فرض عين، وإلا فدونه الانحدار إلى الدركِ الأسفل، حيث التردي مدخلُ الردي، وفقدانُ الإنسان لإنسانيته عنوان الاندحار.

بالروحِ بالجسدِ صرت أصارع ليلَ نهار، كي أتخلص من حاضري المليء بالخروم والكدمات، المستحيل بالتدريج إلى قطعة صدئة منفّرة، أو كيلا يكون له على الأقل امتدادٌ ومستقبل.

هكذا، تحت ركام أرمدتي ألفيتُ جمراتِ رغائبي وشهواتي تثوي، وما زالت إلى الحياة تشدني. لتزنيدها يحدث لي أحيانا أن أصيح، ملءَ صوتي، مرددا أناشيدَ ثورية، ومقولة نيتشه نعم للحياة، أو مع أراغون: «الدنيا الدنية، أُنشئها نشأةً أبهى!»

العقبة أمامي وعرةٌ كأداء!

اليس هذه أولَ مرة أقررُ صعودها، إذ سبق لي، زمنا بعد أرزائي، أن حاولت اجتناب ما يبعث على التجهمِ والكدر؛ لكنْ حين ملتُ إلى تحسين صحيفتي وسعيت، عاودتني علاماتُ الانتكاس، فتكاثرت من حولي تكاثرَ الديدان

في ولائم الجثثِ الطريّة.

إنما في هذه الكرّة، وطُّدت العزم على بذل منتهى جهدي لأنجوَ بذاتي من كبوتي، فأعودَ إلى هوايتي وهويتي، ثم لقاءِ بعض الناس بوجه مستبشرٍ ريّان. ووافق هذا هجري قطاع الإعلام الناخرِ المجهِّل إلى الاستزادة في أخذ عالم البحث والإبداع بقوة الشوقِ والجدّيه.

في معاودة صعود العقبة وطلب الفكاك من الانتكاسِ والغمّ، هل هناك إذن أفضل من الإياب إلى ملجئي الأوحد وقاعدتي الخلفيةً الأبقى: الكتابة كترياق استشفائي يهب متعةً وأيَّ متعة! فإن وجدتْ في القراء من يقطف قسطا منها فأهلا وسهلا، وإلا فإنها وحيدتي وأنا وحيدها، وفي هذا أجعل كفايتي وقناعتي، متوقيا ادعاء الألمعية والركضَ وراء سراب النجومية.

ومن جميل الصدف، وأنا أرتب محتويات جواريري وملفاتي، أني عثرت على جوابي عن سؤال في الموضوع لناقدتي اللبنانية المصانة، الآنفة الذكر، من أنسب ما ورد فيه اختصارا: المتعة التي أجلبها لنفسي من الكتابة هي ميزاني الأوحد وبوصلتي الأمثل.

بها تتمُ للحواس تطرية، وللمخيلة والذائقة ترقية. آخرون سواي قد يشاركونني إياها، ولو بدرجة أقل؛ أما المتخلون عنّي فلا أستطيع لهم شيئا، إذ لا وجهتي وجهتهم، ولا سكرتي سكرتُهم.

وإلى جوابي أضفت: كل كاتب أصيل، عليه أن يزهدَ في ذيوع الصيت ونيلِ «الشعبية»، إلا أن يأتيه ذلك من حيثُ لم يبحث أو يحتسِب، هبةً لا تُردّ ولا تُعمي الفؤادَ والبصيرة ولا تستلِب.

لا، لست من سلالة هؤلاء ولا من الذين يجلسون لاجتراح فعل الكتابة عن عمدٍ وسبق إصرار، تعلوهم سمات الاستكبار ومقادير فائضة من التصنع والافتعال في الحركاتِ والنظرات، يتشح بها طوائف من الناثرين والشعراء. هيئتهم، بصراحة، تنفّرني وأحيانا تضحك سني، وكذلك غنائياتهم وبكائياتهم وغرامياتهم، علاوة على محسناتهم اللفظية والجُملية وحذلقاتهم البديعية...

لا، الكتابة حملٌ جوانيٌّ مديد، واختمارٌ شائكٌ عصيب، تليه وقتَ الوضع هزاتُ وفوراتٌ وجدانيةٌ متناغمةٌ الانسكاب والإيقاع والكثافة.

لا يستحق اسم الكاتبِ المبدع أو الفنان إلا من تدرب على حرث حقولٍ ثقافية شتى، بين شعلِ الشوق ووهجِ الإشراقات، وأنجزّ فيها تحفا ذاتَ جمالية متجردة، نابضة بجدةٍ حيَّةٍ غيرِ مألوفة. إنه إذا ما واجهته المواد السريعة الطبخ والتلاشي، نأى بنفسه هاربا منها، كأنما هي وباء أو من طوالع الشؤمِ الجارح. ترياقه الأنجعُ والأبهي: فِكَرٌ نزَّاعة إلى بواطنِ الأشياء والمدي، تعشّق للأقواتِ الروحية في الإبداعاتِ المتحاورةِ عبر الأزمنة والأمكنة، إشتغالٌ فرحٌ بطعمٍ للمطلق ملءَ الحواسِ والرأس؛ هذا كله وسواه هو ما قد يحفّزُ المبدع على فعلِ الإجادة باطراد، وقياسِ قوةِ منتوجه بحيويةِ المفهوم وجذريةِ الرؤيا والأسلوب.

إذن، ميمما ذلك الخيّار والوجهة، أخذتُ كل يوم من السَّحرِ إلى المغيب أستعيد فعل الكتابة في مأوايَ الصيفي الجديد على الساحل الأطلسي، معطلا هواتفي وكل علائقي بالوسط الخارجي، مستعينا بخادمتي الأمينة الوفية، خدوج التي تدير، كما عودتني، شؤوني المنزلية بإتقانٍ وخفة متناهية. وكان أن علّمت أوّل ساعة لانطلاقتي بهبوبِ ريحٍ بحريةٍ منعشةٍ لطيفة.

ظللتُ على حالي ثلاثة أشهر ونيّف من فصل خريفي، أحبّر صفحاتٍ تلو أخرى، مستذكرا مستحضرا ما استطعت من عناصرَ ولحظاتٍ في مخطوطتي الضائعة. وحين أجفُّ وأعكل أمام بياضها، إما أقتاتُ بما تيسر، منصتا إلى موسيقى راقيةٍ ناعمة، وإما أخرج للجولان في الشاطئ بين الرِّمل والصخر، أناجي نفسي بشعرٍ أحفظه، أو أدردش مع صيادين اعتدت اقتناءً بعضِ سمكهم وفواكههم. وكان مما استخلصه من مجمل كلامهم يصب في شكاواهم من البرِّ وضيقهِ بهم ذرعا، حتى إن غلاء المعيشة فيه ألجأهم إلى تصيّد أرزاقهم على سواحل بحرٍ يجود مرة ويبخل مرات بفعل السطو الهائل لشركات الصيد الصناعي الوطني والأجنبي.

منذ زمن ولّي وأنا أعترف للبحر بفضله عليَّ كلما دعاني إلى حضرته، وحثني على التطهر من كُرَّبي وكاباتي بذبذبة تفوق سرعتها سرعة الموج... أما الموسيقى، فلي فيها معزوفات ألوذ بها كما الحبيب بحضن حبيبته، وذلك كلما ساورني قلقٌ مزعج أو تهددتني آفاتُ الأجلاف والمتوحشين؛ إنها وثائقُ رغبتي في عقد الموافقاتِ المفرحة، وأوراقُ اعتمادي لدى سلطان الأجنحةِ المحلّقة علوّا

أو قربا؛ إنها أيضا تلغي الرغبةَ في فكِّ الارتباط بالحياة أو تؤجلُّه إلى أجلٍ غير مسمى.

حين عدتُ إلى قاعدتي مسربلا بذرات النور الأبيض وأنسام الأمواج ولثماتها، جلست لاستئناف الكتابة، صحبةَ شاي ووسائل أخرى. ورويدا رويدِا امّحى ما بيني وبين صفحاتي من موانع وشوائب، وتحررَ القلمُ في مراودتها وملامستها ووطئها، فأتت عليَّ لحظات أُسرٌّ بدفقهِ وفلْحه، وأخرى أطلق فيها العنان للضحك المكتوم أو الضاج من مشاهدَ هزلية أصوّرها، أو من كلام بعض مخلوقاتي وأفعالهم. ولما يعُمٌّ منتهي الصمتِ فضائي، تبرز في سمعي خشخشات الورق وما أسْطُرة عليه، ثم سرعان ما تغيّبها نبضاتُ قلبي ونهضاتُ جوانحي، كما لو أني أكوّن كلماتي وأخطها بدمي، مؤديا صلواتٍ خشوعيةً مؤثرة، مسجلا إصاباتٍ نظيفةً لامعةً شيّقة في شباك المجهول، وأخرى بين طياتِ ذاكرتي ومنسياتي.

من تلك الطيات، صعدت فجأةً جمل متصلة في مقطعين من مخطوطتي المفقودة، فسارعتُ إلى تحبير نسغها ومعانيها، ولو بألفاظٍ مرادفة أو مغايرة، على أن أعود إليها لتشذيبها

وتنقيحها.

الأولى: في فصل العشق والوله، كما تثبته أدبيات العالم كله، لا فرق بين أبيضَ وأسود، ولا بين أمة وأخرى. وما من آدمي أُوتيَ قلبا رقيقا وحساسيةً مرهفة إلا وأُغرم وأحب. وأمثلُ عليه بصاحبٍ قديم لا أدري ما فعل الزمانُ به، كان قد حرر أيام شبابه رسائل عشقية مشبوبة باللهب، شاع عند العارفين مقطع منها، وهو بعد عبارات التعيين والهتاف باسم الحبيبة: هأنذا يا حياتي ومالكة مهجتي أسمو إليكِ، لأكتبَ طوالَ الفصولِ فصولا في أني أهواكِ حقا، وأحملكِ دوما في مركبي مع تجريدةٍ من بنات خيالي، ثم نبحر مجذفين ببعضهنّ صوب أَقاصي الليلِ لنلقى الفجرَ والإطلالةَ الأولى للشمسِ وأنوارها المباركة...

حدث أن ذلك الصاحب تزوج بمعشوقته طلبا للولد والاستقرار العاطفي، ولاختبار الحياة أفراحِها وأتراحها. لكن سرعان ما طغت هاته على تلك، إذ أبت يد المنون إلا أن تخطف منِ الزوجين ابنهما الأوحد، قرةَ عينهما وعنوانَ سعدهما... اشتاق الصديق إلى وليد آخر، لكن عقيلته امتنعت بدعوى أن هذا يعرّض حياتها للخطر، كما ادّعت طبيبتها الخاصة. ومن ثم

أخذت حياتهما الزوجية تدور بين مدٍّ وجزر، وأيامُهما تغشاها المنغصات والشائنات، تارة تقلّ وتخفّ وتارات تجور وتقسو. بذل الرجل قصارى جهده لرأب الصدع الصاعد بينهما، فعبّر عن قبوله بمشيئة الأقدار، وبتبني طفل يكون لهما عوضا ولو بكراء رحمٍ حاملة؛ وحاول كم حاول! - إمساك الزوجة بمعروف حول موائد أرقى المطاعم في المدينة أو على الساحل، لكنها تذرعت مجددا بإرادتها الهجرة إلى بلد لم تسمه، وترجته أن يسرحها بإحسان، فلبي. ومن ثمّ غاص في انهيارٍ نفسي حادّ، كنتُ شاهد أحلك لحظاته، لم ينفع فيه طبّ ولا صيدلية. وبعد أيام من المعاناة الممضّة غاب الصاحب تماما عن الأعين، كأن الأرض بلعته أو السماء لحسته.

أما الفقرة الثانية، فعن رفيق آخر، تزوج امرأة لتحِل لزوج طلقها ثلاثا، إلا أنهما معا غيرا المجرى وآثرا تمديد زواجهما إلى أجل غير مسمى، وذلك عبر تفاهمات وتواطؤات ظلت تفاصيلها مجهولة. وبعد مدة، والمرأة حبلى، جاءتهما عجوز مدعية أنهما أخوان من الرضاعة، وأن المرضعة هي نفسها، حال موت الوالدين المبكر المفاجئ دون إخبارهما بذلك، ودللت على زعمها بصور عرضتها أمام

أعينهم... وهنا انصرم عندي حبل الذكرى، فما سمِّيَ الإنسان إلا النسيه، كما قال الشاعر.

توقف القلم مستريحا فأطعته. صحتُ وأنا أجوب المطبخ جائعا: تلك إذن هي المتعة الآنفة الذكر. لا يهمُّ أي شيءٍ آخر سواها، هي الضالة المنشودة والمبتغى. قوامها لغتي، وعاءُ هويتي وذخيرتي الحية، هي بوتقة حساسيتي ومشاعري ومداركي. في عالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان، بها أسمي وأصوّر، بها أقطّع وأركّب، بها أحرّك وأوقّع... هذه اللغة المهدَّدةُ الجريحة التي تروم جهات مهيمنة وأخرى عرقية تبخيسَها وتحويلها إلى عُملةٍ قردة، هذه اللغة تظلُّ، رغم ذلك كلّه، لازقة بجلدي، منّي هي حتى النخاع وإليّ. والعلة أنها كانت في الماضي وحتى عهدٍ قريب لغةً ثقافة كبرى وذاكرةً وهّاجة ثرية، ولعللٍ أخرى عزيزةٍ شتى...

اللغة منك وإليك: إنها ليست مجرد وسيلة تعبيرية في خدمة غاية مضمونية مّا، بل هي فضاء في حد ذاته، شديد التعالق بعالم النفس والإدراك؛ إنها فضاءُ الكلمات التي تأتي معها الأشياء إلى الوجود، وحتى المقولات والمفاهيم الذهنية الخالصة؛ واللغة أيضا

ليست مجرّد أداة قابلة للسلف والاستعارة، فالإنسان لا يحب إلا بقلبه، ولا يواقع إلا بعضوه، ولا ينسل إلا بطاقته المنوية الذاتية، وفي كل هذا لا تفويض ولا إنابة. ومثلما الحال مع المنافسات في الألعاب الأولمبية، تجري الكتابات الإبداعية تحت ألوان لغاتها. لذا يشعر كل كاتب حقّ أن لغته هي موطنُه patrie ومستقره home ومأواه في الأرض residencia en la tierra ومحيط حياته Leben welt، ويتفرع عن ذلك مجمل الجوانب والانخراطات.

حين شعرت بقرب الانتهاء من الرواية، سللت يدي من نسيجها وتركت مخطوطتها، جريا على عادتي، في جارورة حتى تختمر زبدتها أكثر، فأُقْدمَ من بعدُ على مراجعتها بالتصحيح والتهذيب قبل أن أسلمها إلى كاتبتي فإلى ناشري.

شغلتُ الموبايل، فإذا فيه نداءات ملحاحة من صحافيي السياسة ومشتقاتها، لا أراني الله وجوههم، وأخرى لناقدتي اللبنانية تنبئني أنها حلت بالدار البيضاء لفترة وجيزة وترغب في زيارتي. ترددت قليلا ثم ارتأيت، وقد وضعتُ مجمل حملي، أن أضرب لها موعدا غدا على الرحب والسعة. وبعدها اعتكفت على قراءة

نصوص ظلت مدةً تترقبني.

في الغد قصدت الآنسة سوزان في سيارتي لأخذها معي إلى بيتي. غير أنها، وقد دعتني إلى غرفتها في الفندق، وجدتها تعدّ، قلقة مضطربة، شنطتها للإياب عاجلا إلى بيروت حيث أمها المريضة تطلبها. واسيتها وعرضت عليها خدماتي، فشكرتني واعدة إيايَ بالعودة إليّ ما إن تفرغ من مشاغلها.

على عتبة الفندق، ما إن ودعتني ناقدتي وركبت سيارة من سفارتها، حتى أقبلت عليّ فتاة محجبة لاهثة، ترجتني في أخذ وقت وجيز مني لأجيبها عن أسئلة سريعة لمجلة «حواء» التي تشتغل فيها. قبلت فجالستها في الصالون حيث تركتْ حقيبتها وأدواتها. شكرتني على الاستجابة وقالت:

- أبدأ، أستاذ عبد الله المانوي بأسئلة عامة... في سيرتك الثقافية أرى أن التنوع سمة أساسية: تنوع المشارب والاهتمامات، تنوع مجالات الكتابة والإنتاج... هل تصدقني هذا التوصيف؟

- ربما... وفوق كل ذي علم عليم...

- المرأة في أعمالك الإبداعية تحتل مكانة مرموقة...

ـ هل لك اعتراض.؟

- لا، أبدا...

ـ إذن مري إلى السؤال التالي.

- لغتك العربية، هي والله شيقة، جذابة، ذاتُ غني... ماذا أقول؟

ـ فاحش!

- بل ناعم... فمن أين لك موهبتها ونعمُها؟

- من حبّي لأدابها ولا شك... ومن أسباب أخرى خفية...

- كيف تقيم تلقي أعمالك الإبداعية؟ أقصد من طرف النقاد...

- كثر النقاد الأطاريحيون وقلّ النقد... وهذا شأن لا أضعه ضمن أولوياتي، فمعذرة.

- أنتقل إلى أسئلة خاصة: ما الوقت اللي تختاره للكتابة ولكم ساعة؟

- لا نظام لي... ما بين سبع وتسع ساعات.

- مكانك المفضل للكتابة، وهل تغييره يؤثر عليها؟

- مكتبي ولا مكان غيره.

- أداتك المستعملة، القلم أم الكمبيوتر؟

ـ القلم أولا وبعده الحاسوب.

- مشروبك المفضل وأنت تشتغل؟ وهل من موسيقى؟

ـ القهوة أو الشاي. لا موسيقى إلا وقت الاستراحة

- هل يحدث أن تعيد كتابة صفحات لا تروقك؟

- نعم، أعيد كتابة فقرات أو حتى صفحات.

- كيف تهيئ عملك وتعالجه؟

- أرتب خطاطة الرواية ومجراها في ذهني، مع إمكان إدخال تعديلات وتغييرات أثناء التحرير.

- شعورك الغالب خلال عملية الكتابة وحين

انتهائها؟

ـ الصبر والتأني وشعور بنوع من المتعة الذاتية قد يقاسمني بعضَها قراء إن هم وُجدوا.

تململت في قعدتي، فهمت الصحافية إشارتي، جددت لي الشكر، فصافحتها وانصرفت هامسا:

استجواب تافه آخر!

تغديت في مطعم على عجل. فاتحني جاري بالتحية وادعى أنه يعرفني ويقرأ لي. سألني عن

أحزابنا التي وصف وضعها بالمتردي والكارثي، دجنها النظام، كما قال، وأخصاها حتى أمست شماعة يعلق عليها ما شاء من المأزق والإخفاقات، بيد أنها لا تملك من السلط إلا الفتات ومن السياسة سوى الريع وقضاء الأغراض الضيقة... ظل الزبون يترقب جوابي، فقلت قبل الانسحاب: أنت تعرفني وأنا لا أعرفك. فهت بكلام فيه سؤالك وجوابك، وأنا ما عندي ما أقول إلا السلام عليك...

في الطريق اقتنيت كتبا وصحفا ومجلات

وأشياء أخرى، وأنا أفكر أن الرجل ذاك قد يكون من بوليس البصّ ونصب الفخاخ وجبذ الألسن. في البيت ألفيت خادمتي منهمكة في إخضاع الحجرات والممرات لعملية تنظيف واسعة النطاق: الأبواب والنوافذ كلها مشرعة، الشمس في نصف الفضاءات منتشرة، والماء والهواء يجريان فيها كلها. نهيت خدوج عما هي فيه، فذكّرتني أنها تقوم بعملها هذا مرتين في الشهر، حتى تنتعشَ الدار ولا تتمكن الرطوبة والحشرات منها. أجبتها: البيت بيتك يا حاجة، جولي فيه وصولي، ثم رجوتها أن تسدَّ الأبواب والنوافذ جيدا وقتَ ذهابها.

قصدت صديقة لي في حيّ آخر على الساحل، لأُكملَ اليوم معها، حاكيا لها نكتا وطرائف، اعتدت تمتيعها بها لرفع القنوط عنها، فضلا عن مد يد المساعدة إليها في حاجياتها كعانس مهجورة تجنّى الزمان عليها وقسا... ألم تأمرنا الأديان والنزعات الإنسانية بإغاثة الملهوفين ومن بهم عوزٌ وهشاشة!

زهرة الأربعونية، لم تتعد في الدراسة الطور الثانوي، تعيش من طلبيات مهنة الطرز والخياطة التي تمارسها في منزلها، لها موهبة العزف بالناي، تبث فيه لواعج حزنها

المقيم وتباريح أشواقها المكبوتة، فتشنّف سمعي بمقطوعات أنفعل بها وأنتعش، وبعدها نجري جولات على الشط ونتجاذب أطراف كلام يتخلله حين نقتعد الصخر صمتٌ زاخرٌ بأصداء أنين الناي وخرير موج رهوٍ مسالم... ونختم الصحبة بعشاء في المنزل أو أحد المطاعم.

في الغد، بكرتُ إلى مستقري، وكلي تشوف إلى الاطلاع على مخطوطتي. مفتاح الجارورة لم يعد في جيبي. كسرت قفلها مرتجفا، وتنفست واسعا ما إن ضممت إليّ مجموع أوراقي كاملا غير منقوص.

عند إنهائي عمل المراجعة والتصحيحات، خالجني شعور بيّنٍ أن المخطوطة الحاضرة لا تُعَدِّلُ الضائعة قوةً وروعة، ولا ترقى إلى إشراقاتها وتمازجِ شكلها بمعانيها في عرس لغويِّ فكريِّ عزَّ نظيره؛ إلا أني، رغم ذلك، أسبغت عليها عطفي ورضاي، لكونها فرّجتْ عنّي كربتي المقيمة، إذ أعادتني سالما إلى قاعدة اختياري الأساس وما ندبتُ له نفسي. ولا يهم في شيء أن أنشرها أم لا.

من قبل كانت شكواي: عيل صبري لما حيلَ

بيني وبين أغلى ما أريد وأشتهي. وإذ سألت مرة أناي: وما ذاك يا هذا؟ قلت: أن يخفَّ عندي عبءُ الذاكرة المكلومة وتنقشعَ عني حالة الحداد، حتى أنشرحَ وأتنفسَ الصعداء... وها إني أشعر بهذا حاصلا الآن، جرّاء ما نسخت وحرّرت. وبُعيدذاك عاودتني الرغبة في السفر وملاقاة بعض أصدقائي البعداء.

-10-

في خريف ٢٠١٢، بدعوة من جامعة الحكمة المارونية ببيروت، قمت بزيارة قصد إجراء مقابلات مع بعض أطرها وإلقاء دروسٍ لطلبتها. أسكن في فندق الحكمة، وبدا لي أنني أقطنه وحدي، وكذلك حالي في المطعم حيث لم أرَ سوى نادلٍ يأتيني بوجبة فطور ثم يختفي. وفي الأبهاء والممرات قلّما شاهدت نفسا عابرة أو سمعت أصداءَ نفرٍ يتكلمون.

حين استفسرتُ مرافقتي عن سرّ ذلك، متجنبا لهجة الشكوى، فاجأتني حقا بحثّي على حمد الله لكوني أتيت المسكن في فترة

لا تعرف عادةً قدوم قاطنين، وأوصتني أن أغتنمها فرصة للصلاة وتعاطي التأمل والتفكير. فطنتُ إلى أن الواعظة قد تكون من الأخوات المارونيات، ولو أن لباسها مدني. لذا ما أكملتْ برنامجها معي حتى شكرتها وأعفيتها من ملازمتي كيما تتفرغ لمسؤولياتها الأخرى وأتفرغ أنا للقاء بعض معارفي في البلد، فودعتني على أن أناديها إذا دعت الضرورة، ونعتت لي المستشفى الأورثدوكسي المجاور للفندق.

ببيروت، التي زرتها من قبل مرارا، قد أدعي معرفتي بها وبمعالمها العمرانية والثقافية والدينية، علاوة على أحياء وجهات وأيضا جبلِ الشوف أيامَ كنت أعد بحثا عن طائفة الدروز.. أما الأشرفية حيث أقطن لأول مرة، فلم يتمَ لي ارتيادها ميدانيا، فيما تبقى لي من إقامتي الأسبوعية، إلا بفضل بعض خلاني من أهل الكتاب والقلم، جزاهم الله خيرا ومتعهم بما يشتهون..

ومهما أنس من سفرتي تلك فلن أنسى كنيسة صادفتها عرضا وأنا أتسكع وحيدا، صبيحة يومِ أحدٍ غائم بين شارعي شارل مالك وشارل الحلو، إذ دخلتُ قاعتها الخاصة

بالمؤمنين من الجنسين، وقعدت في صفِّ قرب الباب. ومن هنا تابعت مشهد شعائر القداس التي تلتها خطبة راهبٍ في متوسط العمر، طاهر السّمت والهِندام، بليغِ الإشارة واللسان، فعجبتُ لمقاطعَ تنم عند كاتبها عن ثقافة واسعة، تشمل، علاوة على الإلهيات، الأدب والفلسفة. وحين انتهى الخطيب وحلَّ وقتُ المباركة، سألت جارتي عن إمكانية الحصول على نصّ الخطبة، فأشارت خلفي إلى طاولة محاذية لصندوق الصدقات. قصدتها للتو، تناولت نسخة وأفرغت في الصندوق ليرات، ثم تسللت خلسةً نحو الخارج. هنا جلست في أقرب مقهى حيث أخذت في سطحها أسطّر على الفقرات التي راقتني، منتشيا بها بين تدخين سيجاري ورشف سائلي المفضل، فكانت إجمالا كما يلي:

[...] أنقذُ ذاتك في هذه الدار، أنقذ روحك من أجل الأخرى؛ طهّر نفسك من براثين الوجود ولطخاته: خارج هذي الأوامر لا سعادة، لا خلاص! وغير ذلك من الأقوال القطعية المهدئة، ترِد في خطبٍ نمطية جاهزة، يشحننا بها دعاةٌ من أصناف متنوعةٍ عدّة. حيالها أقول والله أعلم: تلكم إعلانات وتصريحات، ما إن تتلاشى آثار بلاغتها

الترغيبية وما تثيره من انفعالات آنية، حتى تتركنا على قارعة الطريق، وحيدين أمام أنفسنا، أمام عجزنا الجريحِ الجارح عن جعلٍ الحياة على منوال ما يلزم أن تكونٍ: حلوةً نضرة، يسيرةَ الحملِ والقضاء، قويةً مصابرة حيال المخاطر المتربصة والمآسي النازلة، أو السارية زمنا مّا كقنابل موقوتة.

وعليه... يحسن أن نذهب ونحلّق فوق ذلك الكلام المسكِّنِ المنوّم، السريعِ الطبخ والزوال، فنتأملَ ونتعمق بحثا عما هو أصحُّ وأدومُ وأجدى، فأقول:

هناك علماء ومفكرون كبار تعثروا والتبسوا في أحاديثهم وأحكامهم اللاهوتية؛ فمن أنبههم وأنبغهم فريديك نيتشه المتوفي نهاية القرن ما قبل الماضي، صاحب المقولة الشهيرة عن موت الإله، وألبير أنشتاين القائل: «أريد معرفة ما يدور في دماغ الله، وما خلا ذلك مجردُ تفاصيل». وما يحقُّ لنا استنباطه منطقيا من هاتين الفكرتين أن الله في بدءِ البدء وأصلِ الأصل كان وكانَ الواحدَ الحيّ، وهو عندنا، خلافا لغير المؤمنين، ما زال كذلك لأنه الأولُ والآخر، والظاهرُ والباطن، هو السُّمو السرمد، المتجلي في روح القدس

وفي ابنه يسوع المسيح، بوركَ اسمه وجلَّ مقامه.

وحتى رهانُ باسكال فلي عليه تحفظات، إذ هو بالأحرى حلٌّ انتكاسي ينمُّ عن تقاعسٍ وتخادلٍ وعن إنتهازية فجة؛ ذلك أن من ربحَ رهانه على وجود الله يربحُ كل شيء، وإذا خسر لا يخسرُ أيَّ شيء. والحال أن العلاقة مع الخالق عزّ وعلا علاقة وجوديةٌ وجدانية، خياريةٌ إلتزامية، وبالتالي لا تمتُّ بصلة إلى كازينو الربحِ والخسارة.

من دون الإيمان بالله وبالحياة الأخرى، كم رجالٍ ونساء يموتون مكلومينَ تالفين، وملءَ صدور هم سُعارٌ مستعر وغصصٌ موجعة شتى...

وتبعا لذلك:

المعْرضون عن الإيمان الديني، إياكم أن تكرهوهم، فقد جاء في إنجيل لوقا وغيره الأمرُ بمحبة الأعداء؛ ذلك لكونهم لا يعلمون كم يخاطرون بمعاكسة الخالق جلَّ جلاله؛ وإلا فكيف لهم أن يواجهوا ويغالبوا كلّ ما من شأنه أن يُبرئَ الملحدّ من عزوفه عن ربِّ العالمين،

كالشقاواتِ المتعددةِ الأصنافِ والطعنات، وكضرباتِ الأقدارِ والأمراضِ العضال، وكالعياءِ من الأنا والذات، ومن الوجودِ هنا والآن في هذه الدار ...

تشكيل كَويا، كما قيل، يصرخ بذعر الإنسانِ المتروك من اللّه، ومعناه أن هذا الفنانَ الشامخ كان يؤمنُ بوجودِ التاركِ الفعّال. أما أن نكونَ نحنُ الأحياء متروكين من الخالق أو متفيئين ظلالَ أُنسهِ ورعايته، فأمر يؤولُ إلى مقدار الحبِّ والولاء الذي نُظهرهُ له سبحانه... وعلى الألبةِ الفهمّة أزكى السلام.

أثناء لقائي بأصدقاء ثلاثة في مطعم على الكورنيش، أخبرتهم بحضوري قداس الأحد الماضي واهتمامي بخطبة راهب في كنيسة نعتتها، وسألتهم عن هويته، فأطلعني عليها طوما مؤكدا أن القس يسوعي ذو ثقافة واسعة وقدرة خطابية فائقة، يغار منه زملاؤه، ويتحفظ على انفتاحه وسعة صدره بعض أكابر الهيرركية الكاثوليكية. عبرت عن رغبتي في لقائه مستقبلا ومحاورته في أمر نيتشه الوارد ضمن كلامه، وكذلك في أفكار كان بين الفينة والأخرى يرتجل إثارتها وعرضها. طمأنني منبئي أن ذلك ممكن خلال زيارتي القادمة؛ ثم

دار بيننا حديث ذو شجون، أعلم أنه يُستحسن فيه اجتنابُ أمور حسِّاسة خصامية، كان السبق في إثارة نقطه لجورج وعبد القادر، أهمها الحرب الدائرة رحاها في سوريا وآثارها على لبنان، وكذا الأوضاع في العراق المهدد بالتقسيم، وتجبر إسرائيل وغطرستها، وجيل المقاومة الفلسطينية الجديد، الذي ركزتُ على إبراز سعيه إلى تنمية قدراته الذاتية في التمكن من أسباب القوة الرادعة ومن التقنيات القتالية المنظورة، كما من فنون الإتصال وطرائق السياسة النافعة الفاعلة... كسب معارك دالة ضد الدولة العبرية، كما ذهبنا، هو من المؤشرات الحاسمة على عودة الهيبة والكرامة وروح الاتحاد المحصِّن والمنتج إلى الشعوب العربية... ثم دار الكلام حول ما له صلة بالعالم العربي وحركاته التمردية ومسؤولية أمريكا البوشية في إنهاك مشرقه وخلق جيل جُبل على العنف الأقصى درعا وعقيدة. وفي هذه القضايا وأخرى ذكرناها لماما ظهرت بيننا خلافات حول طبيعة التحالفات مع قوى إقليمية وأخرى غربية...

وبعد انتهاء وجبة الغداء، ودعت الصديقين المارونيين الذين بديا متعبين، وتواعدنا على لقاء قريب، وظل بصحبتي عبد القادر العراقي

الأصل، الذي تعرفت عليه في ندوات عربية، وبدا لي مثقفا ذا شأن وكاتبا موفقا. وكم عجبت حين سمعته يسِرُّ لي بصوت كسير:

- وحق صداقتنا القديمة يا أخي عبد الله، مآسينا في العراق والمنطقة كلها لم تُبق لي وقتا ولا راحة ذهنية لمتابعة مشواري الأدبي. هجرت الإبداع في الشعر والرواية بل هجرني، وصرت اليوم... هل أقول لك ما صرت؟

ـ قل يا أخي، وأمرك لن يبرح صدري...

تردد الصديق لحظات، وأجابني وهو يدخن بعصبية:

- صرت من يسمونه نيكَرو، أتعيش بقلمي في كتابة مقالات وحتى كتب لبعض أثرياء السياسة والشوبيز، كما أصلَّح وأحيانا أعيد كتابة دواوين شعرية ومجموعات قصصية لسيدات مترفات، يطمعن في الشهرة والجوائز... كُتاب التكسب والكدية في تاريخنا الأدبي القديم كانوا بنصوصهم يتعيشون، لكنهم يظلون هم أصحابها؛ أما أنا فأبيع ملكيتي لقاء مال يقيني شرّ العوز

والخصاصة... هل ترضى لي بهذا؟ صحتي ليست بخير، وإلا كنت بحثت عن عمل آخر يكفل حاجاتي ويتيح لي العودة إلى ما أحبه حقا وتحبّه، وسنتحادث فيه أكثر.

أعرضت عن الكلام في أمر يجرح كبرياءه ويؤلمه، فاكتفيت بالقول:

- هذي الشدة يا أخي سيعقبها الفرج، كما اقتضت سنةُ الحياة، وأنا موقن أنك ستجوزها وتنجز ما تفضل وتريد.

أحسب أن كلماتي المواسية أفرحته، فأقسم أن أتعشى معه اليوم في منزله حتى يعرفني على أهله، وأن يجول معي قبل ذلك في الحمراء ومناطق أخرى أختارُها.

***

أثناء أيامي البيروتية، نظم لي ناشري لقاءً مع صحافية مرموقة، ذات حسنٍ يا ألله! فاتحتني بقول منوِّه في حقي تتحمل وحدها مسؤوليته

- أنتَ، ما شا الله، كاتب كبير، متأرجح بين الخلطة والخلوة، ذو جوائز وتنويهات...

عقبت فورا:

ـ العفو سيدتي... الخلوة أو الخلطة صحّ، إنما بحسب الظرف والمقام. أما التنويهات والجوائز، لا فخر.

أتمت الصحافية تسجيل الاستجواب المطوّل لمجلة نسائية واسعة الانتشار، أما عن أسئلتها فلا تسألوا. طائشة هي وفجة. ولولا شفاعة حسن صاحبتها لكنت امتنعت عنها لكونها من صنف ما يطوى ولا يروى. لكني لبيت طلبها ومعه وصية جاءت في الأثر: رفقا بالقوارير، فأعملت ما استطعت من مراوغة ومخاتلة وبهلوانية. وبعد ذلك ارتأت الغادة ختم نصها بسؤال سبق إلقاؤه عليَّ من قبل، وهو من عيار ثقيلٍ عويص:

- وأخيرا، ماذا سيبقى منك للخلود؟

لولا حرصي على مراعاة قواعد المعاملة الحسنة، لكنتُ أطلقتُ العنان لضحكةٍ عامرةٍ عارمة، عوضَ أن أمد السائلة بهذا الجواب:

- ما سيبقى مني للخلود؟ دعيني أفكر... إيه في آخر المطاف منّي، صدقيني، لن يبقى شيء... أو ربما بضع كلمات تُروى مجردة عن

اسمي، منسوبة لمجهول أو مبنية للمجهول، من صنف: وكما قال الشاعر أو الكاتب وربما: كما جاء عند أحدهم، أو كما يُروى.

وإذ رأيتها تكفهر لجوابي، حاولتُ التهوين عليها، مضيفا بابتسامة عريضة:

- أو قولي واكتبي: لربما سيبقى للخلود استجوابنا هذا، خصوصا منه جوابي الفقيرِ الجافّ على سؤالك الختامي العُلوي...

بكلامي المخاتل لم أتوفق في تبديد عبوسها، فأضفت:

- إن شئتِ، سيدتي، أعرض الآن عليك تكليل الجلسة بإجراء قرعة للحسم في سؤالك: بطاقة أكتب عليها ما أتمناه يبقى بعدي لما تسمينه الخلود، ولو لأمد لا أعلمه، وبطاقة بيضاء فارغة... عليك باختيار البطاقة اللي فيها الجواب الفصل... إيه رأيك؟

أومأت متراخية بالقبول، فحبرتُ جملا أحفظها من إحدى كتاباتي المهملة، جاءت كالتالي: «أن أجعل من حياتي تحفة صغيرة وبالطبع غير مكتملة، هنا يكمنُ شغليَ الشاغل، أو قل معنى وجودي... لذا فرجائي، كل رجائي، ألا

تفسدوا عليّ عرسي بكبح جموحي وبما أتأباه ضدا على كلِّ شيء، أي عواصف الرمال والرياح العاتية التي قد تقولون إنها ستهب ولا ريب لتدمر تحفتي تيك وتصيّرها هباء منثورا» ... وبعدها وضعتُ كل بطاقة في ظرف مختوم وقدمتهما للجليسة. ترددتُ قليلا ثم أمسكت بواحد، فتحته فإذا به يأتيها بالبطاقة الفارغة. هتفتُ منشرحا فرحا: بهذا إذن نطق سهمي والسلام! شيعتها إلى الباب شاكرا لها عنايتها، ونصحتها بقراءة كتاب المرحومة خناثة الوردي في السرمد لتعميق معلوماتها حول الموضوع ذاته. انصرفتْ غير راضية على تواضعي، ولا شك عندي أنها ستخضع نصنا المشترك لتعديلات وتكيفات، هي في نظرها ضرورية في دنيا الإثارة والتسويق والبيع.

ما لم أستحسن قوله في ذلك الاستجواب، ولو بالإيحاء، هو أني قضيتُ وقتا، وأكثر مما يلزم، لفهم أن الخلود ليس في ختام الختم سوى إلا فرضية عملٍ وحياة، وفكرةٍ أصيلةٍ مهيّجة تقدر أَن تُسَكت بتعبير فريلن «الشهقات المديدة لكامنجات الخريف»، وأن ترجئَ ما أمكن إلى أجل ممدّد علامات الأفول، وكبساتِ ملكِ القبض، وتجريفاتِ النسيان والطمس. وبالتالي كلُّ نتاج يتوقُ إلى أملِ

في البقاء أو بعضِ الدوام لا يستقيم إذا لم يغذّه وتدعمْه رغبةٌ في الخلودِ طليقةٌ شديدة، مع انتفاءِ ضمانِ المحصولِ والنتيجة.

وهذا الكلام، لو نطقتُ به هكذا للصحافية الغرّة لاستشكلته وطالبتني بتبسيطه بعبارات عادية، أي على قد فهمها، وهذا ما ينسفُ لا محالة متنه ومعناه، وما أمجّه وأتأباه. وعليه، مع هذي الفاتنة الكاعبة، لا سبيل للتواصلِ الرفيعِ المجدي ولو في مستقبل الأيام... لَا سبيل!

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

بعد عودتي من رحلتي البيروتية، تجردت، أنا الكاتب المتفرغ، لصنع الفرج أو بعضه، فشحذتُ طاقاتي وما تبقّى لي من حِلم وقوة. وما إن انتفضتُ وتوثبتُ وتوغّلت، حتى فاجأني صوت كأنه الحكيم أو وليّ وقال: أنتَ في طيّ عمركَ مذّ بزغتَ من بطنِ أمك، وأنتَ في الرغبة وعند اليُسر عرضةً للبلايا والآفات، وأنتَ تذهب باللذات والمسرات، وتذهب بك الجائحات والتبعات. فالحذرَ الحذر!

وقال كلامًا آخر لم أقوَ على رده. ولما توقّف تأملت، ولتنبيهه دهشت.

عوضا عن رصاصات حقيقية، هأنذا إذن أطلق، رغم كل شيء، رصاصات وهمية على محدوديتي ماثلةً في مكامن ضعفي ونقائصي. والمحصلة لا ريب تحدسونها: هزيلة هيَ ومحزنة. وفي الختم، أضحيت كمن يريد طرد الضباب بمروحة، حسب مثل ياباني. وبالطبع، لا أحد يستطيع ذلك وإنْ استنفر وناضل.

إنما حذارِ أن يَظنَّ ظانّ أني أستسلم وأترك

الحبل على الجرار، أو أتقلى وحيدا في زيوتِ يأسي الفائرة، مريضا بالندم على اجتراحي زلاتٍ فادحة وتضييعِ فرصٍ ثمينة؛ بل إنه يحدث لي أن أُقْدم أحيانا على تمكين نفسي من لحظاتِ هُدنة، أبحث فيها عن ممكنات مفرجةٍ مفرحة، أترقبُ منها تفتقاتِ ونهضاتٍ محتملة وبلوغي مقام الوعي الغامر والتطهرِ من أكداري ولطخاتي. وعليه، كملفِّ مطوي أن أكون، إلا مع إعلان الحدثِ الوحيدِ الحريّ، ولوقتٍ وجيز، بإثارة لفتة بعضِ الغير: إنه موتي.

وهكذا، نكت وطرائفي ومستملحاتي وقصصي، التي غالبا ما أحكيها لنفسي، لهيَ بمثابة ترياقي ضد السّقم والإكتئاب. إنها سماد ريحي الطيبة وتزجيتي للوقت بالتي هيَ أخفٌ وأيسر؛ وإنها، كزوجتي الجديدة، شهادةُ تأمينٍ على ما تبقى من عمري.

هذي الزوجة الجديدة والخليلة القديمة، كلثوم، كنت دوما معجبا بابتسامتها الطبيعية الرائقة وكلامها الشائق وهدوئها المستدام، وأنهل منها ما يحسنُّ مزاجي ويعيد فوراتي واندفاعاتي إلى منسوبها المعقول. توافقنا على ترسيم قراننا لما أن اشتعل رأسانا شيبا،

وأمست هي لا تنشد إلا أن أشملها بشيء من المودة والعطف، لقاء إحاطتي بكلِّ محبتها وحنانها.

كلثوم، التي لا تلد ولا تحب ذكر مأساة زواجها الأول مع رجل أجلف خنزير، معها العلاقة باتت كامنة أساسا في الإشفاق والتحنان المتبادلين كما في التكافل والتعاضد الحائلين دون غلبة الكبوات الجسدية والنفسية، بيد أنها، هي الأقل مني سنًّا، تسهم أكثر وتعطي؛ عنها وعني، مما أقوله في مسودة مذكراتي بصيغة الإمام ابن حزم في طوق الحمامة، ولو من دون نية في نشرها كاملة: يا سيدة الأحزان المكتومة والبسماتِ المرسومة، صعدَ الوقتُ إلينا، فضعي صدركِ والحملَ كلهُ، حيثُ الحبُّ الفائضُ عندنا وِلتى، كرداءٍ عتيقٍ يضيقُ ويبلى، حيثُ الحزنَ بيننا يسعى كالأفعى، وينفثُ سمهُ في حمانا... شعشعَ الوقتُ الرتيبُ و أضحى بالعَيّ والفتورِ يرشقنا، لا نشيدَ ولا سلاحَ لنا لتهوين الوهْن في ربعنا، إلا التآزر والذود معا عن هيبتها وهمتنا...

تلك الزوجة، ذات الثقافة الدينية الراقية، صارت أحيانا تهمس لي: تجب الصراحة قبل

أيَّ شيء، وعليه ما دمتُ لا أستطيع شيئا ضد ترهل الجسم، فإني أبذل قصارى جهدي للنجاة من ذلك بملكاتي... عندئذ أراني أصوِّب عينيَّ إلى الأرض، مهمهما في السر، معبرا هكذا عن موافقتي الصامتة... الترهل، سجلته بالحجة المجسَّدة ما إن عاينتُ علاماته زاحفة على جسمها، وبالتتابع والقياس عليّ.. لكني بتُّ أهمس في أذنها متحمسا: يبقى في جعبتنا شباب روحينا وذكرى حبنا المتوهجة.

لم تكن كلثوم تقضي معي سوى أربعة أشهر أو خمسة، وبقية السنة تمضيها مجاورة في الديار المقدسة، حيث لها بعض الأهل. وكان هذا شرطها في عقد القران، ووافقتُ عليه ولو لم يُكتب.

أثناء عشرتنا تواطأنا، من دون توخي التخفيف أو المواساة، على نبذ الخوف بل الهلع عند البعض من التقدم في العمر، يصيب من أمسوا يزِنون حياتهم بالإخفاقات والخيبات، وهذا إجمالا وفي المحصلة، كما تقول، ليس والحمد لله حالنا. لذا صرنا معا عند مطلع كلِّ شمس نستقبل الحياة ونُقبل على ما تتيحه لنا من مسرات وطمأنينة، فنمتح منها ما استطعنا قانعين راضيين: رحلات إلى بعض

مدننا الجنوبية وأخرى إلى مدن أجنبية، جولات شبه يومية في الكورنيش وفضاءات أخرى، نكللها أسبوعيا بارتياد مطاعمنا المفضلة حيث نجالس أحيانا بعض المعارف؛ ثم تأتي علينا أيام أنقطع فيها إلى التحصيل والكتابة، وتهتمُّ هي بالقراءة وأعمال خيرية وأخرى منزلية بمعية خدوج خادمتنا الوفية. وقد دأبنا على نمط الحياة هذا سنوات تباعا.

أما حين حلول موعد رحيل كلثوم إلى ما وافقت عليه، فإني أصحبها إلى المطار وأودعها مغالبا حزني وارتباكي. خلال غيبتها، عدا الأفعال الاعتيادية، كم كنت أنطوي على رسائلها وذكرى أنفاسها عبر تواصلنا السمعي البصري بالسكاي، وأيضا على كتبٍ جليلةٍ نفيسة! وكم كانت ذاكرتي تغلي وتفيض، وترجع بي إلى واقعاتٍ حدثت لي سابقا، وتمثُلُ أمامي اليومَ طريةً خفّاقة، كأنها وليدةُ الأمس القريب! ومهما أنس فلن أنسى منها ما يلي تباعا، وأحرره سريعا ولو مجردًا عن تواريخه الدقاق:

رواية قد تجئ

- ... وروايتك الأخيرة سمعت بها ولم أقرأها. قل

لي عمَّ تحشي؟

فهمت أن السائلة من قطر عربي ينطق أهله الكاف شينا. عموما، أستهجن دائما أسئلة من ذاك الصنف وأنفر منها كثيرا. أما مع سائلتي في صالون فندق باذخ، اكتفيت من باب اللياقة بالتحديق في الفراغً، متشحا بجدية إرادية في البحث عن جواب. لكنْ بعد انتظارٍ غيرِ مثمر، ها هي تعيد الكرة بإلحاح شديد:

- نعم، تحشي ماذا روايتك؟

أجبت حذرا متهيبا:

- عن أشياء وأخرى...

ردّت بصوت شبه استنطاقي:

- نعم، إنما عن أي شيء بالضبط؟ لا يجوز تحشي عن أشياء وعن لا شيء... اذكر في كلمات زبدة الرواية ودرسها.

لولا جمالها المغري وأناقتها المعتبرة، لكنتُ بلا شك غادرتها مرددا بصيغٍ عدة جوابي الأوحدِ المفرد، السابقِ قوله. وعليه، أخذتُ أرتجل لها قصة لا علاقة لها مطلقا بروايتي، قصة هزلية

لا رأسَ لها ولا ذيل، لا شكلَ ولا متن، لا عُقدةَ ولا حلّ؛ زوّقتها بصور غريبة وكلماتٍ مستملحة، يشجعني اهتمام مستمعتي البالغ، وضحكاتُها الصريحة أو المكتومة، ومظهرُها المتلذذ السعيد.

فجأة، قاطعتني وأنا في أوج هذياني، وترجتني ألا أسردَ عليها بقيةَ روايتي العجيبة، وذلك لأنها، كما قالت: سأذهب فورا من هنا لأشتري الرواية في عدة نسخ لي ولأعزّ صديقاتي.

بعد أيامٍ سبعة، تلفنت لي السيدة متهجمةً عليّ، متهمةً إيايَ بارتكاب خيانة في حقها، ثم أمرتني أن أعترف بنصبي عليها، وأن أكفّر عن فعلتي المشينة بكتابة القصة التي رويتُ لها، والغائبة تماما في روايتي الورقية، ثمّ إرسالها في أقرب وقت إلى علبتها الإلكترونية.

لأسباب تفهمونها لم أستطع البتة تلبية أمر الخصيمة، ليس جراءَ سوء عناية أو إرادة، وإنما لانتفاء المحفزاتِ الملهمةِ المسعفة.

عاجزا عن نسيان تلك الحادثة المؤسفة، شرعت أتخيل أحد تطوراتها الممكنة. مثلا:

المرأة نفسُها، وقد مُسخت كائنا مطلقَ الدمامة، فائقَ العدوانية، اختطفتني تحت التهديد بمسدسها، وسجنتني مقيّد اليدين والقدمين في حجرة مغلقة مظلمة حيث خيّرتني بين الموت برصاصة صامتة وبين كتابة القصة التي امتنعتُ عن تحريرها... وهنا، كما أُقرّ، يقوم موضوعٌ مغرٍ لروايةٍ أخرى قد تجيء.

وسعيا إلى تيسير المخاض فالوضع، ملأت فراشي بدفاتر، بعضها مدلّي من السقف بقنبٍ سميك، ووفرتُ من الأقلام المتحركة المطواعة ما يكفي، فطفقت أترصد أو قل أتصيد أفكارا وصورا، ولو تبدت ارهاصاتٍ وومضات، وأحبرها مرة قبيل نومي، ومرة بعيد استيقاظي، ومرة أثناء شرود ذهني وتيهانه. وعلى هيئتي هاته وهيئات أخرى أمضيتُ زمنا، ثم أخذتُ أتلهي عنها بشؤون مغايرة، أو بالخوض في ضجيج الحياة اليومية، صابرا على رتابتها وملالتها، منتظرا الروايةَ أن تنموَ وتنضج، فلا أراها، حتى إشعار آخر، إلا متأرجحةً بين التمنعِ العنيد والوعد بأن تجيء...

*

بين قلم وريشة

في معرض تشكيليٍّ شعريّ مشترك بيني وبين فنانة موهوبةٍ خجولة، قلتُ هذي الكلمة من باب التقديم:

حضرات السيدات والسادة،

في هذا التقابل الحبّي، تنهض اللوحة وتَثِبُ في وهج حيويّ، ومعها تتماهى وتتواطأ القصائد المجسَّدة بكاليغرافيا أندلسية أو مغربية رائقة مقروءة. إنُّه ارتقاء ثنائي متواجد يدعونا إلى إدراك شفاف للكائنات والأشياء، بل أعمق من هذا إلى السعي الصعب نحو حقيقة ما نحنُ عليه تجاه التقلبات المتنوعة التي تتربص بنا وتُجهدنا، ولكنها تبدو لنا أيضا مُنشئة، منعشة، عُلْوية... التأرجح بين هذين الأقصيين هو المبدأ الأساس لكلِّ حياةٍ تسير إلى زخمها وترقّيها في زحمة المفارقاتِ والنقائض... جملةُ تلك الرؤى الشعرية النابضة والأطياف التشكيلية المتناغمة، المنجنبية جميعها إلى السمو، المتحدية للثقالة بشتى صنوفها ومعانيها، فلتكنْ لكم إذن نهضات وأملا في استخلاص واستثمار هذا النصيب من التعالي الثاوي في إنسانيتكم.

باسم الفنانة المقتدرة ناهد النهري وأصالة

عن نفسي، نتمنى لكم سفرا بصريا بهيجا، بين ريشةِ الألوانِ والأشكال وقلمِ الكلمات والصور... ألف شكر على حضوركم البهيج.

ومباشرة من بعد، تقدمت إلينا زائرة عصريةُ القوام والهندام، فسلمت وسألت: هذي اللوحة مثلا، ماذا تعني؟

عن سؤال في منتهى السطحية والبلاهة كهذا، غالبا ما أجيبُ عابسا أو مبتسما بحسب مزاجي والمقام: لا شيء تعني... التفتتْ إليّ شريكتي مستنجدة، فما كان منّي إلا أن تحلَّيتُ باللياقة والصبر، فأجبت: اللوحة، مولاتي، تحيل على حليفتها، أي القصيدة المعلقة بجانبها... ألقتِ سائلتي نظرة على أبياتها الأولى فيما الفنانة تنسحب على رؤوس قدميها لاستقبال زوار تعرفهم. ولما أنبأتني الزائرة متأسفة أنها تفهم ألفاظ القصيدة دون معانيها، عاملتها بالحسني، كما مع نسوةٍ وشخصياتٍ فخامات، فلفقتُ لها جوابا حلزونيَّ التركيب، فائقَ الخواء، وسلّمتها إياه في تغليفٍ مزخرف وحُلة قشيبة لا غير، ففغرت فاها وشكرتني بحرارة يا عجبا! ـ على كوني نفعتها في فهم كلِّ شيء. عندئذ نعتُّ لها طاولة الكوكتيل، لكنها ظلت ثابتةً لازقة،

ترمقني تارة وترنو إلى المعروضات طورا، حتى إذا هممتُ بالانسلال أقبل عليّ نفرٌ مختلط سائلين معلقين، فلم يكن لي بدّ، بعد أن سكتوا، من أن أفوه ببضع جملٍ أعلم أنها إذا صعُبت ولو قليلا فقد تروقهم أو تخرسهم، قلت:

مهرجان الألوان والأشكال والكلمات هو هذا المعرض! تشرَّبوا بتحفه عبر ذاتياتكم، لعلكم تخرجون من هنا لا كما دخلتم... فلتكن عرسا لأعْينكم ووجدانكم، ومدخلا إلى تفتق حصصكم النورانية الكامنة في بواطنكم. وحالئذ يكون قلم الكلمات والمجازات وريشة التشكيل الزيتي قد فعلا فيكم فعلهما، آمين...

ثم تركت الجمع متأملين، وهببت لإغاثة شريكتي من استفساراتِ واستيضاحاتِ زوّار على شاكلة من قابلت، أو لمؤانستها مع آخرين، وهم قلة، يمعنون النظر في القطع المعلقة، يتذوقونها، يتفاعلون معها ولا ينطقون إلا بما قلَّ ودلّ...

*

انتفاضة العجوز

اعترضت طريقي امرأةٌ عجوز، مقوسةٌ الظهر، لم يبقَ من شعرها المبيضّ إلا عشرُه أو أقلّ، فخاطبتني بلهجة التوبيخِ والعتْب، محركةً عصاها:

- قراءتي لنصوصك أفسدت عليَّ أيام عطلتي، يا هذا!

مغالبا ذهولي وخوفي، سألتها:

- وكيف يا مولاتي؟!

- تشاؤمك المروع، قالت، ومدحك للمرارة والموت! صفحات أمثالك تلوِّث الأذهان، وتُلحق الأذى بالأُوكسجين بل وبطبقة الأوزون، يا هذا!

استفسرتها متحرجا:

- وما العمل، سيدتي؟

بصوت حادِّ زاجر أجابت:

ـ أن تُخليَ الكتابة منك وترفع عنها يديك...

لم أجد بدا من الردِّ عليها بلهجةِ الاعتذار:

- لكني، يا قارئتي المبجلة، لم أطلب منكِ

حمل نصوصي ولا مجاراةَ جُملي.

رفعتِ العجوز عصاها في وجهي مهددةً، فهربتُ منها كما، في عزِّ الليل، يهربُ طفلٌ مرعوب من جنيةٍ مخيفةٍ شمطاء.

أياما بعد ذلك، علمتُ أن معيّرتي دأبت على مشاكسة بعض المارين أو الجالسين من الكتاب والفنانين، وأن فعلها هذا كان طريقتها المبتدعة لمخادعة وحدتها المريرة، وممارسة لعبة التواري مع هرمها الهائل وتلاشيها الزاحف.

أما آخرُ خبرٍ عن العجوز ورد عليّ فهو كالتالي: في مطلع يوم صيفيٍّ جميل، رآها شاهد واحد على الشاطئ، سألَته: هل البحر عميق يا ولدي؟ أجابها وكله يقين أن زمن الانتحار قد فاتها: أنتِ، سيدتي، وقدرتِك على المشي فيه... فاقتربت من الماء وتوضأت منه، ثم ولجت البحر بلباسها وما ملكت، وظلت تسبح حتى تعدت الخط الأحمر واختفت تماما، فلم تخلّف لرؤية الشاهد المشدوه سوى أشيائها الطافية على الموج: قبعتها الصيفية ومظلتها الشمسية وعكازها. وبهذا شهد الرائي أمام شرطة الشواطئ فالمحكمة.

وماذا يمنعني الآن من أن أتخيل نهاية القصة على نحو مغاير؟ مثلا: الشاهد المسكين في غرفة تحقيق، يخضع لاستنطاق قاسٍ، بقصد أن يعترف بإعراضه عن إغاثة امرأةٍ مُسنَّة تغرق؛ ثم بغتةً تبرز العجوز أمام عينيه فيغمى عليه، وحين يفيق تأمر المستنطقين بإطلاق سراح الظنين وإلغاء التهمة بحجة أنه لا يحسن العوم، وأن الحوتَ والأسماك عافت جسمها، والموجَ هداً ولان، فسبحت نحو شطِّ النجاة والأمان...

نعم، ماذا يمنعني من أن أتخيل ذاك وغيره كثير؟

تفكر ساعة، كما جاء في الأثر، خير من قيام ليلة.

هي ساعاتٌ طوال أمضيها كل يوم معملا التفكير في سيناريو حياتي، وكيف فيها تأرجحتُ مليا بين الدوران والتسلسل، معلِّمين بوقفاتٍ لكشفِ حساباتي، منطويا على ذاتي، وأحيانا على أنيسةٍ من جنس آدميتي. ويلي التفكُّرَ - التذكُّرَ أو يمازجه التأمل في أمور وقضايا قد أكون من قبل لامست بعضها أو نزرا يسيرا منها، لكن من دون سبر غورها هي وغيرها. والجريرة عليّ أنا الميّال كما كنت إبَّان فترات إلى الجرْي وراء أحداث الدنيا المتدافعةِ المتزاحمة، الطامعُ في المسكِ بخيوطِ نسيجها وعجينِ منطقها، فأدركتُ القليل وفاتني الكثير.

صرفت قسطا من عمري باحثا عن نقط ارتباطٍ بعالم الخلاء، حيث قد يسعني إفراغُ كلِّ عبءٍ وكلِّ ألمٍ ظاهرٍ أو خفيّ؛ عالم يتيسر لي فيه التطهّر بالماء المباركِ الحيّ، ماءِ مرتفعاتِ الوجود النّيّر الدفيق... وأثناء بحثي، كم مرة

أغمضتُ عيني، طلبا للتعالي والذوبان في سُرّتي، وللمس نواتي الصلبة ومنتهي معادلتي! لكني في الغالبِ، لم أدرك عبر أمواجٍ وذبذباتٍ كثيرة سوى بنيتي المقيمة، وأشباح مستنفرة، ساخرة، وقحة، حاقدة، واحرّ قلباه!

واليوم، وقد بلغتُ من العمر زهاء ثلثيه، هأنذا أخيرا أرسمُ المرمى وأغيرُ البوصلة، عساني أنجو بثلثي الباقي، واضعا العين واليد على الجوهرِ والأصلِ والأجدى، دون العرَض والفرع والزّبد. ساعات للإطلاع والقراءة، وسواها لقرع أبواب العزلة الذكية والغطس التأملي الناشط.

في قرع تلكم الأبواب، كان عليّ افتتاحا أن ألقيَ تحية المحبِّ المحاسب على فريدرك نيتشه، وعلى ما ظل في كتاباته يجذبني ويغري بي. وهذا بعضٌ مما في هذا الشأنُ يعنّ لي:

وإذن سلامٌ على طلعتك العميقةِ القلقة، يا ذا الفكرِ الخصيب المنقِّب في الدهاليز والمطامر وفي المرتفعات والأعالي، يا أنتَ الذي بكتاباتك الأخاذة، المضادة لهمجية العصر

وتقالة الوجود، تحكي نقاهاتكَ المديدة وتخطياتكَ الذاتية.

لقد حدث مرة أن سألتكَ في المنام: أكلُّ هذي المظالمِ والظُّلمُات، وهذي المآسي والشقاوات، وهذي الكسور والانهيارات، وتريدني أُسقط من حسابي تلك الأخرى؟ قوَّست حاجبيكَ الكثيفين وقلتَ مستغربا: الأخرى؟! أجبت: نعم، حياة أخرى تكون هي الأجملَ والأعدلَ والأسمى، وسواها من الأوصاف الحسني. قلتَ: هذا محض سراب ووهم! رَدَدْتُ: إن كان هذا هكذا -وأنَّى لي معرفته! - فإنه إذن طامتنا العظمى، فلا أنا فزتُ ولا أنت، وإنما في العدم موعدنا ولقيانا، يحشرنا ويسحقنا سحقا. قال: فرضُكَ قمار وجُبن! قلت: بل رهانٌ يحرك الفكر وحدٌ وسط بين الجبن والتهور؛ هذا ولا شيء يقيني من عللِ شتي اعترتك، ولا من أن أدخل مثلك مشفى للأمراض النفسية، لما إذ هويتَ مغمى عليك في تورينو، بعد أن عانقتَ فرسا كان يعنّفهُ مولاه. وكل ما أصابني وما قد يصيبني مجددا من أرزاءٍ وكبوات إنما ينمي معرفتي بضعفي الآدمي وعجزي عن تخطي ذاتي إلى الإنسان الكاملِ الأعلى. لذا أؤثر لحياتي اللياذَ بفرضية إيمانيَة تُبعد عنّي موتا

يأتيني، وفي ذهني وكياني أبخرة رديئة، وملءَ صدري وحنجرتي غصصٌ موجعةٌ خانقة...

تحشي أيها المتوحدُ الشامخ على قول نعم للحياة، وهذا ما غالبا أفعله. لكن كيف لي ولك ولأيِّ ابن أنثى أن يقول للموت: لا؟! وإذن نعم للحياة إيّان فيضها وفورانها، ونعم للموت حين تعتلُ الأعضاء والأوصال، وتضمُرُ الطاقة الحيوية والملكات. ولقد جنّبك الزمان شر الشيخوخة التي لو بلغتَها، لربما كنتَ ليَّنت بعضَ مقولاتك ومواقفك ونقحتها.

نيتشه ذو الفكرِ الفائق والجسمِ العليل!

في فصل الفقراء والمعوزين، أفضُّل أيضا توديعَك وهجرَ رياحك. لأني أريد البقاءَ معك في فصولٍ أخرى من سفر الحياةِ والصحة... أؤثرُ الرجوع من عليائك إلى أولئك الذين أسميتهم الرعاع والضعفاء والمنهارين. فالأُذن التي وهبتني الحياةُ إياها هي من الإتساع والحساسية بحيثُ تقدرُ على مسايرةِ قصتهم عقدةً عقدة وخيطا خيطًا: قصةِ اتصافهم بالضعف... فللضعف جينيالوجيا كما للدين والأخلاق... هل تسمعني؟

وبعد، يا ذا الفكر المبدع والرؤية الخارقة، سأظل ذاكرا مشاطرتك غوته إعجابه بالشاعر العظيم حافظ شيرازي، ولثقافة العرب عموما؛ كما سأظل حافظا أكثر النصك في الدجال عن حضارة الإسلام، سيما وأن بني قومك وحتى المتخصصين في نتاجك أقبروه أيام حياتك وبعدها وغيبوه، كأنك في تحريره اقترفت إثما منكرا، وعن الجادة زغتَّ. أقرأ نصك هذا وأتأمله، وفي كلِّ مرة يزداد عجبي، وأندهش لكونه عنك صادرا وباسمك موقّعا، وهذي سطور ساطعة منه:

«لقد حرمتنا المسيحية من حصاد الثقافة القديمة، وبعد ذلك حرمتنا أيضا من حصاد الثقافة الإسلامية. إن حضارة إسبانيا العربية، القريبة منا حقا، المتحدثة إلى حواسنا وذائقتنا أكثر من روما واليونان، قد كانت عُرضة لدوس الأقدام (وأؤثر ألا أنظر في أيِّ أقدام!) - لماذا؟ لأن تلك الحضارة استمدت نورها من غرائزَ أرستقراطية، غرائزَ فحولية، ولأنها تقول نعم للحياة، إضافة إلى طرائقِ الرقةِ العذبة للحياة العربية...»

ختاما، بتحفيز منك أقول لأهل الثقافة والقلمِ من حولي:

إليَّ بمُهَلٍ لأغرّد خارج أسرابكم، لأتنفس بكلماتٍ أسْطُرها لكم، وإلا فالربوُ يتهددني ثم اليأس. أوكدها:

معشرَ المثقفين والقلميين وسواهم، إياكم أن تموتوا!

تردون: الأعمار آجال، وتتعددُ الأسباب والموتُ واحد.

أجيب: هل يخفى عليّ أنّ كلَّ نفسٍ ذائقة الموت، وأني مثلكم نفسٌ وأني ذائقه! لا، ليس في هذا المناط تندرج وصيتي وتكمن، ولا حوله تحوم، وإنما قصدي أن أحذركم من الموت العبثي، أيّ بأمراضٍ عليكم فيها ما بذرتم وسقيتم وما حصدتم: الكحولية وتلويث البواطن بالأدخنة الرديئة، والتلهي عن الضعف والهشاشة بالغيبة والنميمة، وبالتنابذ وسوء التواصل، وباعتناق سيرة الغلِّ والحسيفة، إذ أنكم بكل هذي الأوصافَ والأفعال تكونون في الحياة معوّقين بل كأعجاز نخلٍ خاوية...

ألستم ترون أن أكثركم قد فقدوا تقريبا النزوع إلى المساءلات الجذريةِ الجريئة، ومعه فقدوا

أيضا قدرة المبادأة والإدهاش. فهم على الدوام هناك حيث نتوقعهم ونترقبهم، كما لو أنهم عناصر مبرمجة بنحو أو آخر. لهذا لا نجد بينهم إلا نادرا رجالا ونساء خارقين للعادة، مُبهِرين، مثلا: محافظٌ معارض لسلطان الماضي وهيمنة السلف على الأحياء، أو حداثيٌّ مقاوم لكل تغريب إن كان مؤداه الاستلاب والولاء التبعي والحَجْر وبالتالي العجز عن المبادرة والخلق..

هذا، وهل تنكرون أن أغلبكم ينغمسون في الحيادِ والخمول، فيقيمون تحت قبابِ السهو والغفلةِ عن الشؤونِ والهموم، الإنسانية والثقافية منها والعامة؟ إنهم إجمالا يضاجعون الخوف (ولا حياة لمن يضاجع الخوف، يقول المثل) وينزعون، ولو من دون خوض معارك، إلى التقاعد المبكر والاهتمام بفلح حدائقهم الخاصة، فيصُّح عليهم وصفك يا نيتشه للمنحلين المنهارين: «إنهم أناس متكلسون، تالفون، لا يخشون إلا شيئا واحدا: أن يصيروا واعين». وهكذا يمسون محتمين بمربعاتهم وحيطانهم، داخلين أفواجا أفواجا في «أسواق رؤوسهم»، مصابين بتلاشٍ باطنيّ وانكماشيةٍ صماء وانعزالية عقيمة جدباء، كما لو أن سنواتٍ جليدية أو أثقالَ جاذبيةٍ سالبة

أدّت إلى خصيهم وضربهم بالرهبة والضمور. إنهم إذن لمنطفئون! يصحُّ عليهم وصف أبي الحسن الششتري: «افهموا ذي المقاصدْ/ يا أُهيْلَ الإراده// إنَّ من ظلَّ قاعِدْ/ كيف تكنْ لو سيّاده// السعود للمجاهد/ وله الحزق عاده...»

*

لي سوى نيتشه أصدقاء أُخر عبر الأزمنة والأمكنة، أرتاد آثارهم في خزانتي، وغالبا ما أتمثلهم في ذهني ووجداني، ومنهم أبو حيان التوحيدي فيما أريد الآن اختصارا كشف الغطاء عنه وتبيينه ولو لماما.

مع محللتي السابقة الذكر، التي لم تحلل فيَّ شيئا، لو كان وقتُها يسعني لما استنتجتُ من أجوبتي السريعة على أسئلتها التليغرافية أني قريب من بروفايل الميزنتروب أو كاره الناس، نظرا لقلة إقبالي عليهم في وسطي وإقبالهم عليّ. والراجح أنها أوّلت سوء هذه العلاقة كدافع تعويضي لميلي الملحوظ إلىِ الجنس الآخر. والأصح أني بلوتُ أيضا صداقةَ أمثالي، وجربتها خلال فترات متقطعة من شبابي وكهولتي. وآيتي في ذلك نصيحة ابن

عطاء الله السكندري «لا تصحبْ من لا تنهضكَ حاله...». وهكذا فإني لا أحتسب الزملاء وأنصاف الأصدقاء وأشباههم، علاوة على محترفي الزلفي والنفاق، والمتطبعين بالغدر والعقوق المقيت، ومستنقعي العلاقات والقيم، وأرهاطٍ يخذلون من يحامي عنهم، وسوى ذلك كثير؛ وبالتالي لا يبقى ممن تحقُّ عليهم صفة الصداقة سوى قلةٍ قليلة، تدوم مع بعضهم العلاقة إلى أن تستنزف طاقتها أو تبلى وتخرب، وقد تقْصر بسببٍ أو آخر، كالموتِ المفاجئ، والتباعدِ الناجم عن تباينِ المصائر وتضاربِ السبل والوجهات والمصالح.

وكأمثلة على بعضِ ذاك: هذا صديق أعززته كأخٍ، تهادينا المحبةَ والنصح وأحسنَ ما لدينا، وكنت معجبا بقوة شكيمته وموهبته الأدبية، لكنه مات منتحرا صباحَ يومِ عيد، من دون ترك إنباء بظروفه ودواعيه، حاولت تقصيها فلم أجد أكثر مما أعرفه: توالي دورانه على نفسه المصدومة وجسمه المعتل، وذلك جرّاء إخفاقات غرامية وزواجية حدّث عنها رفاقه الأقربين وراسلني في شأنها، ومما قال عن أشدها وطأة وتأثيرا كما وصف:

«[...]يا عزيزي عبد الله، هذي مضيفة فائقة

الجمال، في أعالي أجواء الطيران، لاحظتْ ميلَ نظري إليها، فسألتني متلطفة مبتسمة: هل تودّ شيئا سيدي؟ تأمّل وجهكِ الأمن الوضاء، أجبت، حتى أغالب اضطرابي اللامعقول بقدر ما هو واقع. ردت هادئة مطَمئنة: لكن، ليس هناك مطبات هوائية، والريح طيبة رفيقة... قلت: بل حسنكِ الأخّاذ يا آنستي يزحزحني وعن طوري يخرجني... أبدت المضيفة ابتسامة مشفقة، وعادت إلى مزاولة مهامها المعتادة. أما أنا فلزمتُ الرزانة وحسنَ الأدب، منطويا على كلماتها الدافئة الزكية، آخذا في مراودة نومة لعلها تجودُ عليَّ برؤيا توافقُ الموقفَ والمقام... ولقد شعرتُ أو ربما توهمت أنها بيدها الناعمة تلامس خدي ثم بملاءة تدثرني. وشاءت الأقدار أن صادفتها في حفل زفاف أحد خلاني، فتعارفنا ووثقنا الصلة حتى أفضت بنا سريعا إلى زواج لم يدم أكثر من سنة حافلة بالمتاعب والمشاحنات...»

وهذه حالة ثانية، مما جاءني منه في تبليغي عنها:

وهذي امراة ما زلتُ بوعيها الفائق أعجب وانبهر. خاطبتها يومَ صادفتُها: أنتِ حسناء مثلَ

كوكب! سألتني متراخيةً ساخرة: مثلَ كوكب. ما هو؟ أجبت: القمر طبعا، البدر التمام... أفواج الشعراء عبر العصور تباروا في إنشاد جماله العليّ، ونوره الباهر، وتناغمه الساحر في المجرة الشمسية، وجميعها صفات هي للعينِ والقلب فتنة ومسرّة... غير منفعلة بمديحي الغنائي، بادرتْ هذي المرأة إلى تلقيني درسا ذا ذكاءٍ ثاقب وفطنةٍ شماء. قالت: تنويهاتك، يا سيد، سمعت مثلها من قبل. لكن إعلم أن جمالي القمري، حسب زعمك، لن يتأخر اليوم الذي فيه ستمدحه من بعيد برسالة هاتفية أو إلكترونية. لأنك وقتذاك إذا منّي دنوت، ستجدني أشبه بمشهد قمري قاحل، غيرِ ذي خضرة ولا ماء... كلامها العجيب هذا زاد من انغماري في حبها. مندفعا طلبت يدها. قالت: نجرب. جربنا فأتت قسمتنا بما لا سعد فيه ولا مردَّ له، فافترقنا...»

وفي سجل صحاب السوء، هذا صديق شملته بعطفي ومودتي، فاكتشفت بعد مدة أنه نصّاب محتال وخؤون مداوم ور عديد، ينبطح ويلحس الأرض من تحت الأقدام، لقاءَ قضاء حاجاته ومآربه الخاصة. وقرين هذا وزيادة، عرفته لمدة وجيزة، كان تخصصه الطعن في الظهر ونصب الفخاخ، والإساءة إلى من

أحسن إليه؛ يقول من عاشروه طويلا إنه لا يجد نفسه في وعاء راحتها ومتعتها إلا حين يستميت في إلحاق شتى أنواع الإذايات بالآخرين وزرع بذور الشقاق والفرقة بينهم، فأطلقوا عليه أسماء، منها الكيع والمستقِنع والخنزير...

وأخيرا وليس آخرا، هذا صاحبٌ حميم، ذقنا معا الحلوَ والمرّ، وسعدنا بالساعات الممضاة في النضال السياسي والمغامرات الغرامية العابرة، حتى إذا أنهى دراسته العليا في معهد للتجارة بباريس، تفتق ميله إلى الغش والسطو فتحوّل إلى وحشٍ مالي، شريعتُه في ربح الصفقات وجلب الأرباح الضخمة لشركته يلخصها هاتفا: الأسواق أدغال تفرض قوانينها على الإقتصاد كلّه، أبرزها: إما أن تأكل أو تُؤكل، ولا قيّم عنده إلا قيم البورصات، وما سواها كالأخلاقيات خرافة وهراء... عند كل فرصة ربحية ذهبية، يتدوش عوض أن يتوضأ، يصلي ويقصر، ويختم برفع عقيرته بالأدعية له، كيما يكسب صفقات مهمة ويغتال معنويا منافسين خطرين... قيل لي إنه إذ جاءه نعيُ أمه، خبطَ بيديه على منضدته وبقدميه على الأرض صارخا: لم تجد هذي العجوز يوما آخر لتموت! وذكرني سلوكه العاقُّ الحقير هذا

بسوء معاملته لعشيقاته أيام شبابنا، إذ كان يتباهي بقدرته على تغييرهن كما يغير قمصانه أو جواربه، وأيضا بموهبته في تزويج العوانس بأدعيته، شريطة أن يمررن سلفا تحته. وقد حكى لي عهدذاك عن واحدة نبذها ونسيها تماما إلا من كلمة تلذُّذ كانت تجار بها وهو يضاجعها: ماحْلاه! وعن أخرى فرّقها عن زوجها أحدِ منافسيه الأشداء بغية إذلاله وإقصائه، ثم عبث بها ولم يتزوجها كما وعد، وحجته أنها إذ خانت زوجها، ترتكب خيانة أخرى يكون هو ضحيتها.. شعاره في عشرة النساء، الذي ظل يجهر به: لا لتعدد الزوجات، نعم لاتخاذ العشيقات.

وفي آخر مرة تقابلنا، كان بمعيتي لا يفتر عن إجراء مكالمات وتلقي أخرى، منها واحدة، كما أخبر، مع سيدة أعماله، أشارت عليه ببيع سهوم وشراء أخرى، والترخيص لها بعرض أرض له ببادية الرباط على البيع، لكَونها دخلت في المدار الحضري، فأذن لها بالتصرف في السهوم، واستمهلها في أمر الأرض ريثما يتم تدمير دور الصفيح القريبة منها وإتلافها. وبعد ذاك ببضعة أيام، بادرتْ إلى قطع الصلة بصديق سار سريعا في منظوري من سيئ إلى أسوأ، وأبطره الجشع وعبادة المال حتى

فسدت إنسانيته بفساد أخلاقه. وأمثاله في هذا الزمان كُثر، لا يعون عيوبهم ولا سبيل لهم لإصلاحها إلا أن يحصل بمعجزة أو مدد غيبي، وهيهاتَ هيهات!.

وذات يوم، بعد سنين طويلة، عثرت مصادفة على إيميله الأخير في علبة المحذوفات، جاء فيه: تعيب عليّ سوء معاملتي للنساء. وهل تظن أنك معهن ملَك الخير والإحسان؟ ألم تكن كزير تبدّل هذه بتلك، وتجمع بين الخليلات قدر جهدك؟ ألم تكن في أسفارك بالطائرة آخر الراكبين، حتى تتخير مقعدك جنب جميلة أو مليحة؟ تقنيتك هاته أخذتها عنك مدة، فما جنيت سوى علاقات قصيرة بائسة... أما أنت!

لم أجب حينذاك على الملبِّس اللكيع، إذ أنه ألصق بي حالة صديق قديم فقدت أثره، كنت حكيت له قصة خوفه المرضي من السفر بالطائرة، وخلافا لمن مثله كانوا في الأجواء العليا يلتهمون مسكنات أو يسكرون، كان هو يستلهم سكينة أعصابه وخاطره من وجوه دانيات، ناضرةٍ باسمة، ومن كلمات صاحباتها الطيبات، قد توقفها غطسات بعضهن في القراءة أو في نوم عميق، أو قد تتبعها دردشات في مواضيع راهنة ومتفرقات. وغالبا

ما ينتهي كل شيء بنهاية الرحلة، إلا من حالات جدّ نادرة يكون لها ما بعدها لزمن مّا. وهكذا تعرّف ذلك الصديق على زوجته...

صحاب السوء! هم إجمالا من ذوي النفوس العليلة العدوانية، يميلون في علائقهم إلى نفي من لا يواطئهم ويجانسهم طبعا وتطبعا، أي الذين هم من أولي سعة الصدور وانفتاحها وذكاء القلب ورقة العقل وفطنته، يرومون دوما التقصي الجاد لمساوئهم ويسعون حثيثا إلى تهوينها فالشفا منها، جُعلنا من قربائهم وأقرانهم.

مضت عليَّ بضعِ سنوات أعقبتها أخرى من صنفها، وأنا أقطع تباعا العلائق المتعبة الدميمة، حتى بتُ أقرُّ على لسان التوحيدي: «وقبل كل شيء ينبغي أن نثقَ بأنه لا صديقَ، ولا من يتشبهُ بصديق»، كما زكّيت نقده لأرسطو القائل: «الصديق هو أنت، إلا أنه بالشخصِ غيرُك»، مؤثرا تصديق المتنبي: «خليلْك أنَت لا من قلتَ خليّ/ وإن كثُر التجملُ والكلامُ». هذا مع أن أرسطو نفسه أتي عليه وقتُ صاح فيه بما معناه: «يا أصدقاء، بل ليس هناك أصدقاء!»

وطال عهدي بتلك الحالة وتجدّد، حتى إن صحابا قدامي باتوا يقولون إني صرت من صنف الدِّببة، أو شديد العارضة، أعضُ بالنواجذ على المبادئ وأغالي، وغير ذلك. وهكذا جعلتُ كفايتي في صداقة معتزليْن خارج مدينتي، تُنهضني حالمها وكتاباتهما، وأتراسل معهما من حين لآخر؛ كما جعلتُ كفايتي أيضا في أصدقاءٍ أباعد، فضلا عن الذكيات المستحقات، وهذا من حيث الإختيار والإقتناع، وليس ابتغاءَ التعويض والسلوان.

وكم آسف لكونِ الناموسِ الذي يسودنا هو الندرة!

نادرةٌ هي الصداقاتُ الخالصة الوفية!

نادرة هي التي تحوّل الذوات إلى ينابيعِ حياةٍ طافحة بالحسن والأريحية، وإلى شعلٍ تندلعُ حنانا وشوقا ومحبة!

وقد عرفت أقواما كُثرا تأرجحوا في التلهية عن سلطان الندرة بين المهادنة والتمرير وتزجيةِ الوقتِ في أمكنةِ اللغوِ والتهتُّكِ والتخدير.

في دائرة الأصدقاء الأباعد، أذكر ما كان لي من مراسلات في شؤون شتي مع واحد ليبي

مقيم في سيدني وآخر يمني، أبرزها في شقّ ِ الذكر والأنثى -وما أدراك ما الشق! - وعصارتها: ضلَّ وأضلَّ، كما أكد الصديقان، من تكلم في النساء (كما في الرجال) بصيغة الجمع الموحَّد والكتلة المتراصة، وعليه لا مديحهنَّ على هذا النحو يجدي ولا الهجو.

أدليت بدلوي في الأمر، متجنبا صيغ الحسم والقطع، فقلت: لاغٍ هو حكم شوبنهاور حين يقول: النساء ذوات شَعرٍ طويل وأفكارٍ قصيرة»؛ ولاغٍ أيضا اعتبار نيتشه المرأة عقيلةً الشيطان؛ «الناس، عنده، ينتقمون من كونهم يحيون»، ومن جهة كراهته لهن، فلن يتوانى في ادعاء أنهن يثأرن من كونهن نسوة لا غير. ولو نظرنا مثلا في حالة نيتشه على حدة، لوجدنا ما يفسرها في علاقات صاحبها المأساوية مع أمه، وأدهى منها مع أخته الرهيبة، إليزابيت فورستر، التي كان يبغضها، وسعت بعد موته إلى تقوية عضد إيديولوجياً النازية الصاعدة بمفاهيم من فكره، مبتورةً ومنتزعة انتزاعا من مناطها وسياقها؛ هذا مع أنه فسخ علاقته بريشار فاجنير بسبب تحيز هذا الموسيقار للرايش الثالث وتكييف توليفات من موسيقاه لوحشية النازية وجبروتها؛ أما مع لُو سالومي فقد فشل

عشق نيتشه لها، وتبخر حلمه بمعاشرتها، ومن ثم نشأ ميله إلى ارتياد بيوت الدعارة حيث المرأة عبارة عن سلعة للمتعة، فأدى الأمر به إلى الإصابة بالسِّفلس... وهكذا تولّد نزوعه الميزوجيني وترعرع، وفي كراهة النساء تطرَّف إذ عمّم.

أما خطاب المديح، فلا يخلو من أن ينطلق من حالة حبٍّ ووفاء للزوجة الواحدة ورفيقة العمر، أفضت بالشاعر لوي أراغون في غمرةِ عشقه لإلزا إلى إعلانه الشهير «المرأة مستقبل الرجل»؛ كما لذلك الخطاب أن يتحول إلى غزلٍ حضريٍّ تعدديٍّ سافر، يتعبّدُ المرأة ويمحور الحياة حولها، وإلى حدٍّ ما يفجر فيها المكبوتات ويغالي، مثلما كان الأمر مع عمر بن أبي ربيعة، وفي كثير من شعر نزار قباني مأخوذا بسحر جمالهن وفي لجج علائقهن: «عشرين ألفَ امرأةٍ أحببت / عشرين ألف امرأة جرّبت/ وعندما التقيتُ فيك يا حبيبتي / شعرتُ أني الآنَ قد بدأت...» وعلّق الصديق اليمني: عهدي برقم الألف كافٍ للدلالة على التعدد والكثرة، أما العشرون ألف فمبالغة خارقة عصية على القبولِ والذوق!

لا لا، في شأن حيويٍّ كالمذكور، يحسن

التخصيص عوض التعميم الذي صنوه أحيانا التعتيم، يتحدث المرء فيه بلغة الحالات والعينات، كما في النفسانيات التحليلية، فيتقي التخليط بينها واجتراح الإدغام وضيْمَ بعضها على بعض. وعندئذ تتجلي صفات الشخصية المفردة وتقدَّر بما الها وما عليها، وإن كان من جهة التصوير يحسن دوما مراجعته لتعديل الصورة عند اللزوم... وألح الصديقان على أفضلية هذي المقاربة التجريبية، ملتقييْن في هذا الاستشهاد القرآني:

{{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}} (النور - الآية ٢٦).

وكأن صوتا هتف بنا: بالمثال الواحدِ الدال يتضح المقال، فمثُّلوا مثلوا.

رغَبتُ الصديقين البعيدين في الاستجابة، فجاء الليبي بمثال ادعى أنه في ذاكرته راسخ لا يحيد، وينسيه تماما ما سواه، قال:

في ذلك السياق، جالست ذات مرة واحدة رومية، رأسا لرأس، والعين في العين،

والساق على الساق. وهي، حسب نظري وتقييمي، دون المعدل في القد والخِلقة والذكاء. فاتحتني:

- لتكتبني، اختر بين المدادين: الأسود أو الأبيض. إما هذا أو ذاك، ولا محل للتخليط ولا لأيّ حلّ ثالث مرفوع.

شددت للأمر حزامه وتجردت لها قائلا:

- ما يواتيك سوى الأسود.

قاطعتني متحدية:

- ساورني شك في فحولتك، وها أنت بددته باليقين.

كاظما غيظي ومسيطرا على أعصابي، أجبت:

- لن تكوني أبدا عشيقتي المشتهاة ولا نصفيَ الآخر.

تلفظتُ في حقي بكلمات لاذعة وأخرى نابية. ولو أن سبابها صدر عن واحدةٍ حسناء لكنت انقضضتُ عليها وفعلتُ بها ما يفعل الثور بالبقرة، أو عن رجلٍ لكنت جدعت أنفه ومسحت الأرض به مسحا. وبالتالي تعففت

ودلفت إلى الخارج، فيما هي ترغي وتزبد وتصيح: تبخّر المداد بلونيه كأنْ لم يكن، وامحت العلاقة ورُفعت الجلسة تماما ومن دون رجعة...

أما الصديق اليمني فآثر الإكتفاء بمثال واحد زعم أنه يغنيه عما عداه، قال:

هذه امرأة رجوت من الخلوة بها التمرن على الصبر والأناة وشيئا من آداب التصوف. والحق أنها أوتيت من الحسن ما لا عينٌّ رأت ولا أذنٌ... إلخ. تخلع الحجاب، فتتراقص من حولها أضواء... أضواء بولات كهربائية ملوّنة، فتسحر الغرائز والألباب، ويأتيها هرولةً المسحورون من شيب وشباب، فرادى وزرافات، ينشدون التفيؤ بظلها ونيل شيء من كرمها وكراماتها... في جلستي بحضرتها، بدا لي الشيطان يسيّج قربها، ويحوم حولنا ويغري. فكان عليّ إما أن أهزمه فأهلك تحت سطوتها بالزوابع والتبعات؛ وإما أن أدعها تسود وتحكم، فتكون لها الغلبة عليه وعليّ. وهكذا ضربت صفحا عن الاحتمالين، فهربت ناجيا بجلدي ولبِّي، تاركا الساحرة تؤوب إلى تبرجها وهالتها في انتظار تدفق عبّادها عليها.

أما أنا فالأمثلة عندي لا بأس بعددها، لم أعد جراءَ امتلاءِ ذاكرتي وربما اضطرابها أميز ما منها يعنيني فأنسبه إلى غيري، أو يخص غيري وقد أعزوه إليّ... لكن هناك حالات تفلت من الانتحال والتخليط، وعلِقت بقلبي ربما بسبب طابعها الروحي أو قل الأفلاطوني، ولكوني ظللتُ لذكراها أنفعل وأسعد، ولو لم يكن لها توابع ولا غد، ومنها:

هذي غادة قبطية عاشرتها مدة وجيزة، أسميتها سريعة الدمع وسيدة الحزنِ الناعم. والله إني سمعتها مرارا تحذِّرني: لا تمحضني، إني بالدموع ملآنة... وتعللُ ذلك بكون صرخة الألم خيطا رفيعا يربط الولادة بالوفاة، إذ بها تُبدأ الحياة وبها تُختم. وأشهدُ أن للرفيقة قدرة خارقة في حفظ الكثير من المراثي وإنشادها على نحو يُدمع العين وترقُ له الأكباد، منها تخصيصا قصيدة الشاعرة المخضرمة الخنساء في رثاء أخيها صخر، وأخرى لابن الرومي في رثاء ابنه الأوسط، وثالثة للمتنبي في رثاء جدته من أمه؛ هذا علاوة على شعر الكمد والأسى عند أبي فراس الحمداني وأبي العلاء المعري وابن شهيد القرطبي، وغيرهم. ولقد كان أحبَّ شيء إليّ أن أراها تبكي، إذ تلمع عيناها

ببريق جذاب وحمرة شفقية بهيجة، فتترقرقٍ الدموع على خديها الأسيلين، لآلئَ مشعةً دافئة، محفزها على ذلك ما كنتُ أحكيه لها تباعا من قصص رومانسية كئيبة وأخرى فكاهيةٍ ساخرة.

وحدث يوما -من باب التحبب لها- أن كذبت عليها إذ أنبأتها أني أحلمُ بها مرارا، فاستطارت فرحا، وقالت وعيناها تفيضان من الدمع:

ـ أحقا ما تقول؟

أجبت دهشا:

ـ نعم... ما العيب في ذاك؟

- تحلم بي، إذن أنا موجودة!

أبديتُ علامات الاستغراب من استنتاجها، هتفت:

. طبعا أنتِ موجودة، وعلى أحسن صورة وأبهاها! وهكذا أراكِ في رؤاي المنامية وحتى

اليقظة....

- وماذا ترى؟

- متوّجة بإكليل نوراني أراكِ، وحول وجهكِ الريان هالة أخاذة، تختالين بفستانك المزركش الألوان في ممرٍّ أميريّ، وعلِّيةُ القوم على جنباته ينثرون عليك الزهور، ويهتفون لك بكلمات التبجيل والإعجاب...

انقطع خيطُ كذبيٍ الأبيض فجأة، فوجهتْ إليّ نظراتٍ مشرقةً لامعة، كأنها تطلب الاستزادة... قلت مماطلا:

- يلزمني وقت قد يطول لتطرية ذهني وذاكرتي. أعدك بأن تكوني في صدارة أحلامي بل محورها ولبّها... لكن يصعب جدا برمجتها والتحكم في مدارها... إلا أن أشحن بطارياتي البصرية والوجدانية. قد تسألين كيف؟ بإدمان النظر إليك وإدامته حتى تغمريني وتتغلغلي في كلِّ جوارحي وملكاتي وكياني...

لم يحدث ما شرطتُه، فلم ألحف وألحّ.

ودارت الأيام، فإذا بي ذات مساءٍ شتوي اكتشف، بعد غيبة، أن المرأة من سريعة الدمع انقلبت إلى عديمته. فهل غدوتُ فاشلا في حكيي أو أكرر لها الحكايا نفسها من دون أن

أعي؟ بهذا ناجيتها، فقالت بعد صمتٍ وتأمل:

- لا هذا ولا ذاك، إنما هي الحياة القاسية جمّدت الدمع في عينيَّ وحبّسَتها في داخلي... ليس البقاء على هذا النحو أو ذاك هو ما لم أعد أطيقه، بل البقاء في حد ذاته... الإحساس بقلة الوجود كثيرا ما يعتريني، حتى إني أرى اقترابي من موت فجائي، فأتهيأ له بقراءة كتب الوفيات وزيارة الأضرحة والمقابر.

ثم إن البعاد حلَّ بيننا، إذ أنها هاجرت خلسةً إلى حيث لا أدري، وحيدة أو مرفقة. فلم تترك لي غير بطاقة كتبت عليها من دون إمضاء: قدرنا، يا عبده، أن يمرَّ كلٌّ في الحياة مرَّ السحاب، وينسحبَ إلى حال سبيله وحصته من الوحدة والرجاء. حسبك أن تذْكرني كطيف امرأة صادفتها في إحدى رؤاك، فابتسمت لك وبادلتك كلمات، ثم غابت وامحت، لا حسَّ ولا أثر...

كذلك صار. فصدقوني ولا تلوموني إذا أنا رسّمت خاتمتي وفخّمتها معلنا: وللحقيقة والتاريخ أقول...

وهتف بي هاتف جوّاني: أيّ تاريخ وأيّ حقيقة يا هذا! تواضع يا من كُلُّك لآدم وآدم من تراب...

أتواضع إذن: جاء في الأثر «نهى نبينا الأهدى عن المواقعة قبل الملاعبة». وأنا وحقّ الحق ما واقعتُ تلك المرأة (التي لمعت في أيامي كقطرة ندي وضّاءة ثم تبخرت)، وإنما لاعبتها فقط، مع ما يحدث عرضا في الملاعبة والمباسطة من دغدغات وملامسات وقُبلٍ مسروقة أو خاطفةٍ مهداة. وفي إحلال ذلكَ نزلت من قبل الآية المحكمة ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾. واللمم كما قال بعض الصحابة: القبلة واللمس، وقيل: الإتيان فيما دون الفرج... وهكذا خرجتُ من صحبة سريعة الدمع فعديمته، وأنا أردّد مع الإمام ابن حزم طاب ذكره وزكا: إن التي قلبي بها علقٌ / قبلتها يومًا على خطر // فما أعدُّ ولو طالت سنِي سوى/ تلكَ السويعةِ بالتحقيقِ من عُمُري.. ومن هنا قد نستنتج أَن البوسة المسروقة ألذُّ وأحلى من القُبلة المشروعة...

أما دون قصتي مع سريعة الدمع، فلي -ما لم أذكره لصديقيَّ البعيدين- قصصٌ قصيرة جدا -وأخرى جدا جدا- كتبت عن عبورها السريع

وعبيرها الفواح كلمات شاعرية ومدائح، لم أنشرها قط. ولضيق الحيّز والوقت، لن أذكر منها الآن شيئا، حتى ما تيسّره كيمياء التذكر العجيبة.

***

لا تعقيب عندي على كلام الصديقين ولا تعليق. ففي هذا الباب، كما في سواه، كل إناء بما فيه يرشحُ، أي أن ذاكرتيهما نزاعة إلى اختزان السيئ بل الأسوء دون سواه. فهما إجمالا من أناس كثُرٍ يصعب عليهم أخذ كتاب الحبّ بقوةِ الوجدِ والجدّ؛ كما أنهما يُسقطان من حسابهما المرأة كمفهوم ومبدأ لمّا يستدعي المقام تشريع مواثيق وقوانين حول حقوقها الواجبة ووضعها الاعتباري.

أما عن مثالي المسوق أعلاه الذي سكتُّ عنه من قبل مليًّا وكان السبّاقَ إلى البروز في ذهني، فلي عليه تحشية، مفادها أنه الأروع والأجمل في مجمل علاقاتي الخليلية. ولا أحسب أنه تجلى لي عرَضًا أو بمحض الصدفة، بل لكوني في المسك به توخيتُ تخريجه للتخفيف عن ذاكرتي من أنيني جراءهُ وحنيني إليه. هذا ولست أبغي التخلص من

مثالي ذلك ومن حلوه المرّ، كما تخلصت من ذكرياتي مع اللائي كنت في حياتهن هامشا عابرا أو مجرد استطراد، أو بالعكس كنّ هكذا في حياتي؛ لست أبغي ذلك، واليومَ أكثرَ من ذي قبل. وقد يكون السبب أيضا في صعود مثالي وتقديمه تأملي في المسافة التي تبعدني عنه وما انفكت تدنيني من الذاكرة الأقلّ، وبالتالي من موعدي مع النسيان الأتمّ، أي مع أنايَ المنسيّ بعد أن تدقَّ ساعتي الأخيرة.

ساعتي تلك، لا أدعي أني أستبعدها معولا على الأنشطة الترييضية والتمارين الفكرية، كما أني لا أستعجلها وأستعديها عليّ. هو مقامٌ صحوٍ ويقظة أحبذُ بلوغه متجردا عن أيّ تهويل وأيٍّ تهوين؛ مقام أرصدُ منه حقائق هي من مستصفيات وجودي العينيّ محتكا بالزمان وصروفه والأمكنة وطبائعها. ولقد من هذا المنظور أدركت أن الناس إجمالا، وأنا منهم إلى حدّ مّا، يرددون جهارا: في الحبِّ الخلاص! تحابوا واهجروا الحرب...! لذا أراني أنأى بنفسي، كغيري، عمن أمام المصاعب والتعقيدات والكبوات، يتنكرون للحب بين الذكر والأنثى، كما لو أنه مرضٌ ووبال ليس إلا، فيقفون عند مرِّه دون حُلوه، وشوكه دون

بهائه، سالبين الحياة من ملحها ونوابضها، والوجود من الوجدِ والجود، لا ينفع في تليين قساوة قلوبهم وفظاظة طباعهم قول حزام ابن عروة: «وما عجبي موتُ المحبينَ في الهوى/ ولكن بقاءُ العاشقين عجيبُ»، لا ولا قول محيي الدين ابن عربي: «لنا أسوةٌ في بشرٍ هندٍ وأختها/ وقيسٍ وليلي ثمَّ مي وغيلانِ»؛ نعوذ من أولئك بأرباب الحبِّ أجمعين، وبحشود المحبين المتعاقبين، أحياءَ وراحلين.

هل تصوفت؟

على وجه اليقين، لست أدري. إنما ألحظ أن لي منذ مدة نقطَ ارتباطٍ بالتصوف متفاوتةَ القدر والتأثير، أولاها سِير المتصوفة وحكاياهم، التي غدت تدهشني وتستهويني بعجائبيتها أو بمصطلح عصرنا سورياليتها. أحدثها ما رويَ لي عن أحد الخلان الثقات، حمدان الثوري، عن الواثق ابن أبيه، عن بلال الطوزي، عن خالد ابن خمرويه قال ما أسوقه، والعهدة على الرواة لا عليّ، أنا الناسخُ الأمين، لا ناقةَ لي في المتنِ ولا جمل، ولا دخل لي إلا في تهذيب النحو والتركيب، وتسوية المبنى والأسلوب، بحسب الجهد والاستطاعة:

[...] ولما أتم المتجردُ اليقظان إصلاحَ جسده، واقتدر على إذلالِ وحوشٍ ضارية، آثر الاختفاء على أن يرى البلادَ تَكثرُ عليه، والعبادَ ينصاعون إليه. وما زال كذلك يبعثُ رسائلَ الغياب حتى هذا اليوم، فلا يُعلم هل أمسي يتسربُ ويتغلغل بين الأدغال وأعالي الكهوف

والغيران أم بين الترائب والصخور والوديان.

ولما عاد مجدَّدا إلى الظهور لحظاتٍ، صاح كبيرنا بألسنتنا: مرحبا بكَ أيها الشيخُ المبارك! لابدّ أنك تنطق بالحكمة وتقرأ للنهار تعاليمَ الليلِ والمصير. فامدُدْنا، جزاك الله، بما في مضمارك، واكشفْ لنا عن أوراقِ أضوائك.

وبوغتنا إذ سمعناه يقول بصوتٍ جهوريٍّ دقيق: لا ضوءَ ولا هم يحزنون! فكالضفدع ضاع في الطحين على ظهره خطأً، كنتُ في كنفِ الغيب أُمضي إجازتي، وأقيءُ العياءَ والغبار. وبعد أن تخلصتُ ثمَّ انتهيت من نشر جسمي في الريحِ ونفضه، هأنذا أعود بينكم لأُبلسم جراحي وأعيدَ تركيبي ضدَّ ما أنتم وما تبغون. قلنا: وما عسانا نبغي؟ قال: النساء والطيوب والخيلِ المسومة والذهب والفضة، وأكلَ التراثِ أكلاً لمّا وحبَّ المالِ حبّا جمّا. فإيايَ وطيشَ أهوائكم، وإيايَ وبوارَكم وخرابَ دنياكم، وإيّاي وأقوالَكم وأقلامَكم. وعليكم بتجفيف ذكرايَ من أيامكم وبطيِّ صحيفتي طيا، ذلك أقومُ لكم وأجدى إن كنتم تعقلون...

وفيما نظراتنا تتلاطم حيرى محتدمة، مستفسرة، التفتنا إلى الشيخ فألفينا غيابه

ملءَ مكانه، لا جسمَ ولا أثر. عندئذ تشتتنا صامتينَ مرتجفين...

أما نقطة الإرتباط الثانية، فلي أن أصوغها كما يلي: شكّك البعض في تصوف الجنيد بسببِ عافيته وبدانته. وقد ينسحب عليّ هذا الظن في طوريَ هذا، ولو أن الفرق شاسع بين الشيخ الأجلّ قُدّس ذكرهُ وبين مخلوق مثلي، خبرتُ أمورا كثيرة، معرفةً وتجربة، إلا التصوف وآدابه فقد أبعدتني عنه مشاغل وفجوات، إذ أني في الدنيا لم أكن غريبا حقا ولا سالك سبيل، مع أن نصيبا يسيرا من زاده وإشراقاته كان لي، ولِمَعَا بدت لي من قبل في بعض نوماتي أو أحلامي اليقظة، وتبخرَّ معظمها، عدا نتف علقت بذاكرتي يا عجبا! - ولا تدلُ إلا على ميلي إلى تقمص شخصياتٍ من أهل الحال والخرقة، والكلامِ بألسنتهم قدرَ الإمكان.

في واحدة أقول: ولقد أبليتَ البلاء الحسن لمّا أردتَ بي نفعا، وظلّلتني، ونعتَّني وبعثَّني شاهدًا، ووعدتني بالفتحِ القريبِ، يا حيّ! فاشرحْ صدري أشرحْ كتابَك، وأنشرْ كلامك، وأذكرَ جاهك، يا واهبَ الماءِ الزلال للروح الظماي، والأقواتِ للقلوبِ الشغوفة.../ وفي أخرى: أمّا الآن يا مخلوق، فاذهبْ إلى ملتقى

الظلال، واغطسْ أعضاعكَ في النهرِ الدفيق، ثمَّ استقم وصوّب ناظريكَ إلى النور، فإن قدرتَ عليه لمحتني، وإن عجزتَ فعدْ أدراجك وانظق بلسان خميرتك وخمرتك، وبزخمِ طاقتك وعريكتك، عساكَ تسير وبعد السيرِ ترقي.../ وفي أخرى: إذا استكنهتَ صمتي فقد أتتكَ رعودي صادعةً مُبرقة. وإذا ارتعدتَ لرعودي، فلن تُبصرَ في مداها إلا الحيرةَ والحسرةَ والروحَ المنكسرة. فاصبرْ على ما تراه، لعلّك ترصدُ محجَّة إنسانِ الوصولِ والكمال...

وكم كنتُ أغبط النفري على رياضته الأثيرة: العبور. إنه كان يعبر كلَّ شيء: النّفسَ والعقلَ والعلمَ والمعرفة. ويقفُ موقفَ عابرِ العالَمين جميعهم، من الخائفين والزاهدين والعابدين. ويعبرُ حتى العابرين، ليأتي إلى مولاه فارغاً متجردا من كلّ وهمٍ وكلِّ معنى، حتى إذا أصبحَ في حضرتهِ العليّة، توقفَ عن كلِّ جوازٍ وكلّ عبور، بفعل ما تغمره به المجاهدة من أنوارٍ وشاراتِ الوقوف، فيقول العابرُ المتوقف: «نورك يحفظني من خواطفِ الأمر والنهيِ عنك...»

مقصدي في مراودة الطريقة، على سبيل التجريب، كان إلى ولية تسمى الشريفة،

شاعت بين بعض الصحاب مناقبها وكراماتُها. قالوا: إذا تحدثت في المحبة تهشمت قناديلُ الزاوية كلها، وتوقّفتْ في الأجواء الطيور لإصاخة السمع إليها...

قبيل مغرب هذا اليوم، يممت بيت مطلوبتي بحي عتيق، ترقبني عيون وتتفرسني أخرى. تسلمتْ مني خادمتها حق الزيارة، وقادتني إليها في غرفة، أثاثُها شموعٌ موقدة ولحفٌ وكتبٌ وحصائر. عيّنت لي الولية من على كرسيها الجرار مكان جلوسي قبالتها، حدجتني بنظراتٍ فاحصةٍ ملتبسة من عينين ملطختين بالكحل، وفاهت تباعا بعناصرَ في حالتي المدنية:

ـ فلان ابن فلان... صح؟

. صح...

- سنّك لا يهمني... صحتك لا بأس... صح؟

- صح...

- تهوى من النساء من تشاء وتُبعد من تشاء... صح؟

- تزوجت اثنتين ولم أشرك...

- خلّفت متوفية في حادثة سير وأخرى مطلقة؟

-صح...

- المطلّقة قبل تسريحها هادنتك وأجّلت التفرغ لمبارزتك ريثما تنهي كتابة مذكراتها أو ديوانها الشعري... صح؟

ـ لا أعلم...

أذكر أن مطلقتي هاته كانت من المتشاعرات الفاشلات، كثيرا ما تنسحب سريعا من جلساتنا بدعوى تلبية نداء ربّة الإلهام لتحبِّر ما تجود به عليها من صور ومجازات... وقطعت خيط التذكر لما سمعت الولية تسألني:

- وما أتى بك عندي؟

- طلب الفتح من الله ومنك، يا ولية الله.

- وما يُغلقك؟

- تغلقني جراح ذاكرتي، وتقلقني هموم حالي ومخاوف على مآلي.

ترددت أصداء أذان من صومعة قريبة. وبعده سألتني إن كنتُ من المصلين، ومن دون انتظار جوابي أردفت:

- الصلاة تطهّر الذهن من براثينه وتبدّد الخوف والمخاوف. قم ورائي...

ركعتْ، سجدت، سلّمت ثم عادت إلى قعدتها. فعلتُ مثلها متعجبا من عجلةِ صَلاتها وغرابتها. سمعتها تهمهم بكلمات طلسمية على مدار سبحتها. ولما سكتت استجمعتُ جراءتي لأستفسرها عن صلاة ما هي بصلاة، لكنها بادرتني بالقول، كأنها قرأت في خاطري:

- هي صلاة الخوف، يا عبد الله، لا كالصلوات الخمس، تؤديها ولو بحذائك، سواء توضأتَ أم تجاوزت، وفي أيِّ محلّ وأيِّ خلاء حللت، فأكثر منها تُزِل خوفك ومخاوفك أو تقلّل... انتهت الجلسة وإلى أخرى.

غادرت البيت متبوعا بنظرات بصاصين، وطلبت الصحاب الثلاثة في مقهاهم المعتاد. من دون سلام لُمتهم على ما فعلوا بي، فضحكوا ملءَ أشداقهم وتغامزوا، ثم وسّطوني بينهم، متناوبين على تهدئتي بالإعتراف أنهم جميعا

وقعوا في شركٍ كان لا بد أن يشملني، حتى تطيب الأسمار وتحلو بالممازحة والمفاكهة، قتلا للوقت والهم.

سألتهم عن سر معرفة المرأة بهويتي وشيء من حياتي، فهتف كلٌّ منهم: أنا المبلّغ... وعن صاحب فكرة الفخ قالوا كلاما كثيرا توقِّعه قهقهاتهم، مفاده أن الماكر المحتال، واسمه الحاج المهدي ولقبه سلطان التالفين، له دخلٌ مع الولية المزوَّرة. تناقل الناس أيامِ صولته في أراضي الجدب والانتظار خبرَ عودته كالمهديِّ إلى مسك مقاليد الزمان وإحلال أنوار العدل محل الظلم والظلام؛ فكانوا يتهافتون عليه تهافتَ الفراش على الأضواء، وتشرئب إليه أعناقهم حتى تتوترَ أوداجُها وتتعرّق. ولما ظفر به رجال الأمن، لوحظَ أنه ضربَ الرقم القياسي في نص الفخاخ لبعض عباد الله، فخلعوا عنه، عدا لباسه الداخلي، جبته وخرقته، واستحلفوه أن لا يعود إلى ما كان فيه، ثم أطلقوا سراحه...

وختم الصحاب بتوجيه دعوة المهدي إليِّ، كما إليهم، لحضور حفل شاي وحلوى عشيةَ الغد في مقهى مرحبا، وذلك للتكفير عن سيئاته الماضية، واحتفاءً بحريته المستعادة. كظمتُ

غيظي وغادرتهم للتو، فيما أصواتهم تردد: ما تنسَ موعد الحفل... وكان ذلك سببا في قطع صلتي بهم.

بعد مضي شهرين تقريبا على القطيعة، اتصل بي واحدٌ من ذلك الرهط، عبد اللّاوي، نعي لي وفاة اثنين منهم أثناء غيبتي. وأهم من هذا، كما أكّد، أن الحاج المهدي مريض ويتشوق إلى لقائي، ولو مرة قبل موته. ارتأيت أن أستجيب إرضاءً لشغفي بالقصص السوريالية ومتابعتها إلى متمها.

في منزل متواضع بحيٍّ شعبي، استقبلني الداعي بعبارات الترحيب البالغ، وهو طريح فراشه. أجلسني قربه وأمر مرافقي بإعداد الشاي وشيء من الأكل. إتكأ على مخداته وقال بصوت متهدج:

- لا آخذ من وقتك أكثر مما تسمح به حالتي... أرحل إلى دار البقاء وفي جعبتي من المعلومات والأسرار ما لو أفشيتها لزحزحتْ بعض السادة المتسلطين عن كراسيهم وأحدثتْ لهم قلاقل ومتاعب... لكن ما الجدوى والفائدة، وأنا قاب قوسين من نفض يديّ من هذي الدنيا الدنية والالتحاق بالرفيق الأعلى!

سألته مترددا:

ـ الأسرار والمعلومات سلمها لي... أنظرْ فيها.

- أخاف عليك، يا عبد الله، من تبعاتها الوخيمة ومن وحشية المعنيين بها، وأنت بخلافي ما زلت صحيح البنية والعريكة. ثم ليس لهذا طلبتك، وإنما لترفق بالمرأة التي زرتها منذ مدة، فلا تشي بها ولا تفضحها. هي مثلي من أشراف، لا فخر، دارت عليهم دوائر الزمان وأفلسوا... مارست البغاء أيام شبابها وجمالها إلى أن توسطتُ في إرجاعها إلى الطريق القويم، رغَّبتها في طلب العفو والتوبة من ربنا الرحمان الرحيم، كما فعلتُ أنا ابتغاءَ محوِ آثامي وزلاتي... هل إذن تعدني؟

شددتُ على يديّ الرجل وقلت:

- وحقِّ ربنا المعبود، يا حاجّ، لم يخطر ببالي أبدا إيذاء الولية أو التبليغ عنها، صدّقني.

انشرحت أسارير وجه الشيخ، قال:

- لا أشك في صدقك ونبلك ... وهبت الشريفة المسكينة مالي، وهو قليل، لعلها تروّجه وتتعيّش به رزقا حلالا، فيقيها مما لم تُخلق له،

ويبعدها عن الزوار المزوَّرين والسماسرة... قبل أن تنصرف، هذا شيء من كلام توبتها في بطاقة، خذه عساه يقنعك أنها اليوم تسير على النهج السوي، وأنها ليست جاهلة، كما يشيع بعض المغرضين السَّفلة.

صفق الحاج مرتين، فأقبلَ الصاحب بصينية متلفظا بكلمات مبهمة، شربتُ كأس شاي على عجل، وقمت مودعا، داعيا للعجوز بالصحة وطول العمر.

في طريق عودتي، انزويتُ في ركنِ من مقهىٍ معتم، والليل يرخي أولى سدوله مرفقةً بمطر رذاذ. فكرتُ لحظاتٍ في حالتيْ الحاج والولية وبؤسِ حياتهما المرهِقة، ثم فتحتُ البطاقة فألفيتها كحرزٍ مكتوبة حروفها بالسماق وقلم قصبيّ، وهذا ما جاء فيها:

أنا الفاسدةُ الآثمة

أؤوبُ إليك يا ربّي مكسورةً نادمة

طامعةً في تبييضِ صحيفتي

بعفوكَ الواسعِ وصدقِ نيتي

مولايَ فتُبْ علي وجدْ بغيثٍ

وإن شئتَ فاجعلْ لي في عشقيَ أية

قلتَ لي آيتُكِ أن تتدرعي بالصبرِ على الشدائد كلِّها والأرزاء

آيتِك أن تتشدي الصفوَ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار

آيتِك أن تحجِّي إلى كنهِ السكونِ وقعرِ القفار

حتى إذا أدركتِ المصبَّ في ذروةِ البَهاء

أو تلاشيتِ دونهُ في أدراجِ الهباء

جددُّت كأس حَبكِ المترعه

وألقيتُكِ مفتونة ولهي في أحضانِ الأولياءِ.

وضعتُ البطاقة في جارورة، متحاشيا إطالة النظر فيها، كما لو أنها جلطة رورشاش، متعددة المعاني والإيحاءات، يقرأها الناظر حسب حالته الوجدانية، فيتغاضى عنها إن أربكته ونفّرته أو يُسقطُ عليها ما تمور به نفسه وتغلي. إنما رجاءُ التوبة والغفران فيها قائم لا ينكر. وهذا ما أكده الصاحب الواشيُّ

الناعي عبد اللّاوي، إذ أنبأني في مصادفة جمعتني به أن الولية الزهراء وهبت نفسها الله وما يرضاه من عملِ الصلاحِ والخير، فحوَّلت بيتها إلى زاوية يلتقي فيها من أهل الصفاء والخرقة شيوخ ودراويش، بقصد إقامة حفل السماع والأذكار ليلة كل جمعة، يصحبهم مريدون ومن شاء من عامة المؤمنين. ولهم جميعا أن يشاركوا في رقص الحضرة إذا رغبوا، وأن يتكرموا على صندوق الزيارة بما قدروا، يُنفقُ ريعُه، بإشراف الولية، على معدمين ومتروكين ومن بهم خصاصة. وقبل أن يودعني بشّرني بدخوله في زمرة التائبين ومضمار أهل الله، وفي خدمة زاوية الزهراء، ثم دعاني قبل انصرافه إلى زيارتها متى استطعت.

في ليلة الجمعة التي تلت ذلك اللقاء، بُعيد صلاة العشاء، يممت زاوية الولية للتفرج وإشباع فضولي، فألفيتُ قاعتها الوسيعة غاصة برجال من شتى الأعمار، جالسين على الزرابي والحصائر، وعلى جانبها سماط يزخر بأطباق الرغائف والتمور وأباريق الألبان، ولمحت خلفي مقصورة خاصة بالنساء؛ أما الولية فتبرزُ للجميع على منبر عتيق، ماسكةً خيزرانة، مرتديةً عباءة بيضاء وحجابا أخضر

يغطي رأسها دون وجهها ذي العينين الكحيلتين والخدين المتوردين. وضعتُ في الصندوق صدقتي وآويتُ إلى ركنٍ قريبٍ من باب الخروج.

الفضاء يعبق بروائح العود القماري منبعثة من مبخرات ضخمة، ومن حين لآخر صرت ككل الحضور أتلقى من خدم رشاتِ ماء الورد، وحتى الصاحب عبد اللّاوي أتاني مبلّلا من مزهريته رأسي ووجهي، ومهللا مرحبا.

بإشارة من الولية سكن الجمع وعمَّ صمت مهيب، أعقبه صوت نسويّ لم أدرك مصدره، يجوّد آياتٍ بينات بحنجرة ملؤها الدفءُ والنعومة. وما إن توقف حتى ارتفعت العقائر بالمدائح والأذكار، تبينتُ في مقاطعها نظْم «البردة» والمنفرجة»، ثم أعقبتها حصصٌ في السماع الصوفي غايةً في حسن الإنشاد والتأثير الوجداني، تخللته بين فينة وأخرى أصوات أنثوية عذبة لا تُرى صاحباتها...

لقد حضرتُ في أيِّام خلت سهرات مثل هاته، لكنها كانت رجالية صرفه. وما ضاعف عجبي بها أني شاهدت، وقد ساد الهدوء القاعة، أشخاصا عليهم سموت المتصوفة يتناوبون

على أخذ الكلمة بالميكروفون، ويصيح كل واحد بمقطع أشبه ما يكون بالشطحات أو الواردات، وهذا بعضٌ مما تناهى إلى سمعي ومنحني إياه من بعد مكتوبا عبد اللّاوي:

قال الأول بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه المكرمين:

في حضرة مولاتنا المنيفة، الزهراءِ الشريفة، الزاهدةِ العفيفة، أمَّض الأيتام والسائلين وأبناء السبيل، مؤنستهم ومعينتهم بفضل اللّه ومن أتاهمُ اللّه بمدده ونعمائه... رأيتُ بأم عينيّ فعلَ الزِّمان بالبشر، رأيتُه في هيجانِ الأسى عليهم والنّدم، ورأيتهُ في زحفِ الفتورِ والهجرِ والسَّقم، ورأيتهُ في ترهّلِ الأجسام واندحارِ الأعضاء وانطفاءِ النظر... ورأيتكِ، مولاتي، في منامي تنبهينني، وأنتِ تلوكين حشيشةَ الفناء: أنتَ -وحقِّ المعبود- في إصلاح حياتك أو في إفسادها مذ وعيتَ الدنيا، مذ تخيرت بين عبورها بالتي هي أحسن وبين الانغماس في زخرفها وأوهامها...

وقال الثاني بعد ترديد ديباجة الأول:

من تضرعاتي يا وليتي: يا معذّبي! مهما سلطتَ عليَّ وأقمت بين أضلعي ليلا مترامِيَ الأطرافِ كالمصير، فسأظلُّ أقرأُ الرعدّ في العرفانِ والطريقة، وفي النصِّ والفريضة. جسمي ورمحي في التراب، وفي الغيبِ رأسي يتلو عليكَ أخبارَ عواصمِ الآلام التي تقتلُ أبناءها وهم عُزُّل... أنا الهذيانُ المؤرِّقُ في طريقِ الهُدى، أنا من نعتَّني وشيّعتني عبر امتدادِ شوقي إليك، وحصرتني في المدى البرّاني بين الانتظار والانكسار... يا حيُّ! في هذا الربع لا نملَ ولا عصافير، هل في جوعي ما يرضيك، أنت الغنيُّ عن العالمين، أنتَ الجبار المتعالي؟ ... يا عزيز! لن أنفكّ أحدثكَ عن غربةِ الروحِ والجسد، حتى ترفعَها عني أنا الصَّدفة في بحارك، أنتَ المالئُ وحدَك وجداني والشعلة في رأسي وكياني...

وقال ثالث من دون مقدمات:

ما زالت، يا مولاتي، طبقاتُ الرطوبة والحزنِ تحاصر النفسَ كلها، وما زالَ الجسمُ ينظرُ صوبَ الأرضِ ويهبط. من ينقذني من الكبواتِ والضمور؟ مَن يحولُ بيني وبين التردي، وبيني وبينَ الرماد؟ قيل لي، مولاتي، أنا المستنجدُ

اللهفان: ضعْ روحك بين راحتيك بل ضعْ مصحفا فوقَ رأسك، وانتظر أن يرِد عليكَ الفيضِ مبشرا ببعثك... أمّا بوليسنا المتنكّر بزيِّ المتصوفة، فقد لاحقوني عبرَ أحوالي إلى أن عثروا عليَّ في حقول الصخر، أصطاد الطيور وأحتال على طعامِ الحشرات، مرددا: تمحّي اللذاذات وتبقى من الحياة آثارٌ وبصمات...

ظلت الولية معتصمة بصمتها، تنقل نظراتها بين الجمعِ وحِجرها. ولما أشارت بخيزرانتها، وقف الحضور في صفوفٍ متماسكةٍ متراصة، فلم يتركوا لي من فعلٍ سوى الإنضمام إلى رقصهم والإسهام في هدير حناجرهم مردَّدة ما تجيش به أحشاؤهم وصدورهم: «الله حيّ»، وتؤججُ فورةَ حبال الحناجر تكبيراتٌ وإنشاداتٌ مسموعة وزغاريدُ النساء. وبعد ساعتين أو أقل، شعرت أني استنزفت جهدي وطاقتي، فانتهزتُ ميلَ الجمع إلى استرداد الأنفاس، ففككت ارتباطي بهم، وهرعت إلى الخارج، قاصدا بيتي كيما أغتسل وأنال قسطي من القوت والراحة.

صبيحةَ الغد، شعرتُ بإرهاقٍ شديد جرّاء ما شاب نومي من ضيقٍ في التنفس، وارتجاجٍ في الصدر، وخفقانٍ في القلب. طلبت من

الخادمة أن تأتيني بفطوري إلى فراشي، حيث آثرتُ المكوث كيما أباشر التداوي الذاتي ببعض الأعشاب والسوائل المهدئة، جريا على عادتي. وبعد أن سكنت، نظرتُ في الموبايل فإذا فيه رسالة من عبد اللّاوي يعرض عليّ المشاركة في حفل ليلة الجمعة القادمة، أتوّجها بمقابلة خاصة مع الشريفة. ناديته للتو والتمستُ منه أن يبلغ الولية آيات امتناني وشكري لدعوتها الكريمة، وأنّي ملبيها إن شاء الله ما إن أتماثل للشفاء من وعكة طارئة، وأتخلصَ من بعض المشاغل المستعجلة.

بعيد بضعة أيام تحسنت حالتي واستقام مزاجي، سيما وقد آمنني طبيب وزودني بدواء واحد ونصائح سهلة الإتباع، كما وردت عليّ رسائل مطَمئنة من حرمي البعيدة حسّا، الدّانية روحا. ولما آنست من نفسي القدرة على زيارة الشريفة، استشرت عبد اللّاوي فأيد ورحّب.

صباحَ يومِ اثنين قادني إليها. انتظرناها مدة في غرفة حتى تكمل جالسةً صلواتها، ثم بإشارة منها أقعدتها خادمة على كرسيها الجرار قبالتنا. نهضتُ لأسلم عليها بتقبيل رأسها، غير أنها بحركة من يدها أوقفتني حيث

كنت، وأومأت إلى مرافقي بإيماءات عدة، فسرها لي في أذني بأن الولية قررت فجرا أن لا تكلم الناس اليومَ إلا رمزا، وعقّب أن من الأحسن إرجاء اللقاء إلى موعد آخر، تكون فيه الشريفة غير مضربة عن الكلام. نهضتُ مسلما عن بعد، وتبعتُ الرجل إلى حيث شيّعني آسفا...

بعد ذلك، لم يتمَّ لي أيُّ لقاء مع الولية، إذ أتاني نعيها من عبد اللّاوي، فما كان مني إلا أن حضرت مراسم جنازتها في يوم مشهود، شيعها فيه إلى مثواها الأخير جمهور حاشد غفير، قلما رأيت نظيره من قبل. فسبحانَ اللهِ التَّواب الرحيم! وُبعيد إتمام الدفن عرفني الصاحب بشيخ ومريده، قال إنهما يقطنان تطوان ومن أقرب المقربين إلى المتوفاة. عزيتهما كما يجب، فدعاني الأكبر إلى حضور الذكرى الأربعينية في الزاوية، فقبلت.

عند حلول الموعد، استقبلني الداعيان على انفراد في حجرة تعبُّدِ المرحومة، فزاد تعرفُ بعضنا على بعض، وتجاذبنا أطراف الحديث، غلبت عليه -يا عجبا! - السياسة في ربوعنا، وأظهر كلاهما أن لهما بها إحاطة لافتة وفيها خبرة وتجربة. قال الشيخ:

ـ قد بلوت، يا عبد اللّه، لفترة محدودة نظام السياسة وأركانه وأقفاله. فلي أن أشهد أننا فيها عابرون، كأشباح في تمثيليات عابرة، متناوبون على تشخيص أدوار نمطية جاهزة ومعرَّضة للتلاشي والزوال. وإذا ما برزت رؤوس ولمع نجمُها، ولو بمقدار، تُمسي بالضرورة مرشحة للاستقطاب، أو إن عصت للإطاحة والعزل إذا تعذر القطع...

وأردف المريد:

- عن السياسة ومشتقاتها، يا أخي في اللّه، عدد ممن اكتووا بنيرانها، وخلقت لهم شغلا في أجسادهم، كما هدّد به من قبل الحجاج بن يوسف، قالوا: تركُ محترفيها يقبضون على المقاليد كلها ما ظهر منها وما بطن، ويدبرونها كما بدا لهم وشاؤوا، بتحكمهم وعنفهم، فلعل هذا الخيار المعتد بالآية الكريمة: {قُلِ اللَّهُ ثمَّ ذَرهُم في خَوضِهِم يَلْعَبُون} وهو الأصوب للنجاة من مخاطرهم ومهلكاتهم، وحتى لا نصير من عبيدهم وخصيانهم. وعنّا نحن أقول: ما أضيق العمر في رحابهم! وما أوهن الحياة وأهونها في خلطتهم! لذا فلا مناص من التعلق باهتمامات وقضايا مغايرة أعزَّ وأنفع، ومن تعليق الأمل على طاقات وأهوية جديدة،

وعلى ما يحبل التاريخ به من مخاضات وتقلبات هي من طبائعه وصلبه...

سألني الشاب وهو يلامس لحيته السوداء:

- والربيع العربي، يا أستاذي، لا شك لك فيه نظر وموقف؟

صمتُّ قليلا ثم أجبت:

- سئلتُ مرات عنه، يا أخي، أسئلةً ملغومة بالتشكيك فيه بل بالتشنيع عليه، فكان دائما لُباب جوابي ومسكُ ختامه، مع تنويع في الجمل والعبارات: الربيع العربي؟ ربيع يانعٌ رائع، ثورة على ظواهر العبث العربي. ربيعٌ حلحل أوضاعا فاسدة، وحرّك مياها راكدةً آسنة. تحدى الخوف ونقّله من شرائح الشعوب إلى صفوف طغاة الحكم وأزلامهم؛ ربيع أصدقَ قولة الشاعر المفكر محمد إقبال «قيثارتي مُلُئتْ بأنات الجوي/ لا بد للمكبوتِ من فيضانِ»، وغير ذلك من الإيجابيات الحاسمة... أما السلبيات، فقد أفضتُ القول فيها لبعض السائلين، أوجزها في غياب زعامات قوية جاذبة، وانحسار الإبداع في جملة من التوجهات التنظيمية، كما في وضع

شعارات كان يحسن أن تتسم بشحنة رمزية أكثر بلاغة وتأثيرا...

- صدقتَ والله يا أستاذ... أذكر الآن من تلك الشعارات واحدا: «ارحل» الذي ما كان له أن يُرفع ويردّد، لكونه يسيء لأدبياتنا الرحلاتية العظيمة، ولحدث الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، التي نؤرخ بها، والهجرة والرحلة سيان، والموت رحلة إلى الدار الأخرى، والمتوفي راحل... وكبديل عن شعار «ارحل» اقترحت على الشباب من حولي لفظة «إزهق» الواردة في الآية الكريمة: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}، فلقيَ اقتراحي الترحيبَ والتبني من لدن الكثير. وأمرُ الطغاة بالزهق يعني جرهم من كراسيهم ليمثلوا أمام المحاكم القاضية باسم الناس والمواطنين...

عقبتُ ناظرا إلى الرجلين:

- لكن، ككل الثورات، سيعرف الربيع العربي أكثر فأكثر هزات وتعثرات وانتكاسات، إلا أن شعله الجوانية، كالفينيق، ستنبعث من رمادها، تؤججها أزمات اجتماعية مستفحلة ووعيٌ شعبي متعاظم، تواق إلى التحرر

والإنعتاق وعيشٍ آمنٍ كريم، وإلى غيرها من المقومات التي من دونها لا تقدم ولا رقيّ ولا نماء... ولو تمثل المشنعونَ المستهترون هذي المقومات وقدروها حق قدرها، لما ذهبوا إلى الزعم أن ذلك الربيع كان من صنع وتدبير البنتاغون ووكالة المخابرات الأمريكية. إنه زعم مجحف رديء يسترخص دماء الشهداء، ويجعل من شباب انتفاضات شعبية عارمة وكل فاعليها مجرد دمي وكراكيز... عقيدة أولئك القوم: ليس في الإمكان أبدع مما كان، سواء جهروا بها أو أضمروها، ومن ثمة دبّ في عقولهم وأفئدتهم حنين نوستالجي إلى أنظمة فاسدة مفسدة أسقطتها الثورة. وليس لهم أن ينفوا هذا، اللهم إلا أن يكونوا عالقين بطوباويات جوفاء تعشش في صدورهم ورؤوسهم، ولا صلة لها بالتاريخ المديد ولا بالممكن السياسي...

بقدر اهتمام الشيخ ومريده بأقوالي، أظهرت اعتنائي بأقوالهم. وكنا سنسترسل في التحاور لو لم يدْعُنا داعٍ إلى حفل الذكرى التأبينية ومشاركة الطلاب في تلاوة الآيات والأذكار فالأدعية. وحين حلَّ وقت الانصراف، سألت عبد اللاوي عن مهنة الرجلين، قال إن الأكبر طبيب جراح والأصغر مهندس معماري.

تعجبت.

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

أمام تراكم الأيام وتزاحمها، وتظاهر الرتابات والملالات المتناسخة، عندي للتخفيف من ضغطها وعسفها حيلٌ وترابيق!

فكما أن بعضهم يهوون رؤية تحليقِ الطيورِ أو مرور القطارات وحتى قطعان الحيوانات، يحلو لي أنا من شرفتي الظليلة أن أرى -من دون أن أرى- الناسَ بين غادين ورائحين أو ثابتين، وأن أتخيل حول ذاك وذاكَ وتلك قصصا، الغالب على ظني أنها ليست قصصهم، عدا ما يتيحه البصر ولعبة المصادفات.. إنه عمل أقترفه وأمارسه من زاوية هوايتي الكتابة روايةً وقصةً وحتى شعرا، ألجأُ إليها كملاذ أخير، أؤَوّل فيه نتاج غطساتي التفقدية، بين زحمة الوجوه ودحاسِ الأبدان ومصطدمِ الذاتيات والأهواء.

كذلك تفرغتُ لتصويب النظر إلى ما يحفل به الشارع والميدان أمامي من حياة آدمية، مسخّرا عند الضرورة مكبّري البصري، ساهرا على أن يجريَ مخيالي كطاقةِ حدسٍ وتحسس، لا كآلة بصِّ وتجسُّس. فماذا أرى،

ماذا أري؟

تلك امرأة شمطاء، لكنها لا تضرب بالحجر ولا تؤذي أحدا. صارت في الشارع والحي كلّه جزءا من الديكور، إذا غابت يوما تساءل بعض الناس عنها. وسيلتها في التواصل مع الغادين والرائحين جرذ بلاستيكي تشهره بغتةً في وجوه النساء (وحتى بعض أشباه الرجال)، تختارهن بمعاييرها الخاصة لتفزعهن وتنتزع منهن صرخات ذعر وولولات. وحين تتعب من لعبتها تشرع في حراسة سيارات رابضة على الرصيف أو تسهم في تنظيم حركة السير لما تقوى وتشتد، مستعملة صفارة وإشارات بهلوانية غريبة، والبوليس، مهما تغيرت طواقمهم، سكوتٌ عنها متغاضون، بل متساهلون معها متمازحون...

ثم إن المرأة العجيبة غابت عن المشهد أياما متتالية بلغت أكثر من شهر. استخبرتُ عنها من أثق به ومن لا أثق، فمن زاعم أن حراس السيارات تآمروا عليها ونفوها؛ ومن مدعٍ أنها، دفْعا لملل الناس من ألاعيبها، درجت على تغيير أماكن بل مدن بأخرى؛ أما الرواية التي استوقفتني حقا فهي الذاهبة إلى أن المعتوهة تسببت بجرذها في إصابة امراة

بالإغماء وكانت حبلى، فنُقلت جراءه إلى عيادة حيث أجهضت واغتمت. وقد يكون زوجها، وهو رجل جاه وسلطة، اختطف الحمقاء وعذّبها في قبو سري عقابا لها، ثم فجّر رأسها برصاصة الرحمة قبل أن يوارها التراب... هذا ما إخاله وأرجحه إلى أن يظهر عيانا ما يكذبه ويدحضه...

وذاك رجل له رأسُ مجرم في حالة تخفّ وفرار، يبدو هذا من قبعته ونظّارته السوداوين، ومن مشيته المخاتلة وميله إلى محاذاة الحيطان، ومن الذوبانِ في الجمهورِ العرمرم.

الراجح عندي أن جناية الرجل بالغةُ الفداحة والخطورة، وليست أقلَّ من إزهاق روح ذبحا أو تغريقا، إن لم تكن شنقا حتى يُطيل البحثُ فيها بل يعطِّله بخلط الأوراق، وتلبيس السبل، وتعريض ملفها إلى التقادم والطّيّ. وفي تقديري المرئي أنه من القتلة المأجورين، يتعيّش من هذي المهنة المرعبةِ المقيتة، لا يعرف أدنى شيء عن مسخريه، ويتقاضى ثلثَ أجره مقدما والبقية بعيد ارتكاب الجريمة، وذلك عبر وساطات سرية معتمة؛ أما إن تخاذل أو أخطأ الهدف مرتين، فلْيتوقع اغتياله

برصاصات صامتة في الرأس، اللهم إلا أن يعيش كجرذ في بالوعة، أو يختفي في كهوفٍ نائيةٍ منيعة...

وذاك رجل آخر أشبه ما يكون بهاربٍ من مستشفى أو مستودع للحمقى، يمشي مكبّا على وجههِ ووقع حاله، كأن عيونا تترصده واقداما تتقفاه لتُكْمِنَ له وتُوقعه في شرِّ أو وبال. وظل هكذا تحت تغطيتي إلى أن غاب في مسجد ولم يخرج منه.

الفرضيات والتخمينات التي يجوز سحبها على ذاك الهارب اللّاجئ كثيرة متنوعة، لكنّ أقربها إلى الاحتمال أنه مصاب بداء نفسيّ لعله الفصام، هذه التركيبة الكوكتيلية من علل أخرى، تلوثُ علاقة المعتلّ وتفسدها مع الواقع والمحيط والأغيار، فلا يجد لنفسه متنفسا إلى حين إلا في أوقاتٍ معلومة، يقلّ فيها الجمهور، فيتوضأ على عجل، ثم يصلي وحده في ركنٍ مظلمٍ معزول، ثم يهمس بقراءة أسماء الله الحسني وسورة «الناس» خاتمةَ القرآن عشرات المرات. وما إن يأخذُ تقاطرُ المصلين في الارتفاع حتى يجد له مخرجا ينفذ منه كالشعرة من العجين، متوجها إلى بيته في بادية المدينة، لا لغوَ فيه ولا ضجيج، فيقبع

منقطعا إلى نفسه، وقد خفّت هواجسُها المستبدة وأحلامها البدائيةُ الضالعة...

وذاك عجوز يشبه حيّا ذا رجلٍ في قبر، فتارة يخلّصها بعد لأْي، وتارة يعجز. وكل من أراد مدَّ يد المساعدة إليه يهشُّ عليه بعصاه، دفاعا عن حرمة هرمه وحقه في تمديد جهده إلى أقصاه، معولا على ما تبقى من أنفاس حياته، وعلى الله ذي القوة كلها والحول، لا منازعَ له ولا صِنو. وظل على حاله تلك حتى فقد توازنه وانهار، فتحلَّق حوله نفرٌ من الإنس ناظرين مستلطفين. وبعد لحظات أقبلت سيارةُ إسعاف، فنقلته وهو مغمى عليه، ميتا أو حيا وربما بين بين. ولما تلاشت صفارة السيارة، قفزتْ إلى ذاكرتي صورة عجوز آخر قوُّلته ذات مرة: أدركتُ ناموسَ الجذبِ الأرضي بفضل تداعي أعضائي فسقوطِ جسمي. أما سقوطُ حماسي وآمالي فلم يُرني شيئا آخر غيرَ قانونِ قهرِ الوقتِ والسلطان، يواكبُه فساد صدورٍ كثيرة ورؤى شتى...

استلقيت على أريكتي محدقا في زرقة السماء وغماماتها المتناثرة، المغمومة أو الجدلي، بحسب نظرة الرائي وحالته. ثم جددتُ رشفي شرابا منعشا يعيدُ الصحوَ

للذهن والوضوحَ للنظر. عندئذ لمحتُ عن بعد شابا يتحرش بفتاة يبدو أنه شغُف بها حبّا، فلم يفارقها إلا وهي تصرخ وتستنجد، إلا وهو بمعية شرطيين يقودانه للتحقيق معه في المخفر. فلما مروا من تحت شرفتي أدركت أن المتحرش هو مجنون الحيّ وشاعرُه المزعوم، الذي صاح ذات يوم متعجبا -أو هكذا ربما تخيلته-: أنا شاعر مفلق حتى في ساعاتي الضائعة. سئل: كيف؟ أجاب: لأن كلّ ساعاتي ضائعة، وبالتالي فأنا شاعر ملء وقتي، وشاعر محترف يصحُّ وضوؤه وتُجزي صلاته في كنف الشعر المقدس ...

وأيضا في معرض الوجوه وسيلها، لمحتُ رجلا مكوَّرَ الخِلقة، أصلع الرأس، فائضَ البطن، رجلا ذا وجه يخفي آخر تحت ألف سرٍّ وسر، يلزمني لحل شفرته زمنا طويلا وخيالا أطول. وهذا ما لا طاقة لي بي حاضرا، وقد يظل عملا مؤجلا لا ملغى...

الذي يستطيع قيادة مركب المخيال على النحو الأحسن، لن يكون مؤرخا محترفا بل روائيا واعدا، حارثا للهوامش والبواطن، متمثلا قضايا الإنسان الحدية وأسئلته المحرقةِ القصوى، وغيرها كثير، وذاك ما زلت أتوخاه

وأتوق إليه، والشرط عندي في هذا أن أبقيَ بدني وذهني متسمين بلياقة لا بأس بها. وهكذا، صبيحة كل يوم صرت أنفِّذ ما قررت: متى استيقنت أني خرجت من النوم يقظا حيا إلا وعددت اليوم الجديد، كما على سنة عقلاء قضوا، مغنما وفضلا زيادة، فأضيف إلى حركاتي الاعتيادية إجراء فحوص على دمي وضغطه، وقلبي ووتيرة نبضه، وعلى كلِّ عضو وطرف في جسدي، وذلك بغيةَ الإطمئنان إلى أني لم أبلغ بعد حد الإنذار بمرضٍ داهم. وحتى إشعار آخر، نتائج الإختبارات تحاذي إجمالا المعدل ولا توجب السقوط. أما من جهة الملكات الذهنية، فلا أعراض مقلقة، بل ولا حتى هلاوس وهذايانات إلا ما أثرته منها إراديا وعن طيب خاطر.

لي مع أبي حيان التوحيدي، صديق العمر، صلةٌ أخرى بل أصرة: فعلى شاكلته، مع وجود الفارق، رأيت فيما يرى النائم أني أحرق كتبي، غير آسفٍ ولا متحسرّ. زماني كزمانه «تدمع له العين حزنا وأسي، ويتقطع له القلب غيظا وجوي». وتختلف الأسباب وتتنوع، لكن الشعور إجمالا لهو من خميرة متأخية ومنبعٍ واحد. ولقد رغبت مثله في أن أترجم حلمي إلى فعل، يشجعني عليه ذكرُ صديقي لمن سبقوه إلى تحريق تأليفهم أو غسلها بالماء: أبو عمر بن العلاء، داود الطائي، يوسف بن أسباط، سليمان الداراني، أبو سعيد السيرافي، وغيرهم. ومع أبي حيان، البالغ آنذاك التسعين حولا، يتعلق الأمر بنُسخٍ تبقّت لديه، وربما بأخرى (قد تكون في التاريخيات وسواها) لم يحصل تداولها أو حتى طبعها... أما عندي، فلا يتعدى الحرق المرجوعات من سوق الكساد وضمور القراءة، ومخطوطات شعرية ومسرحية وسينارية عزفت عن نشرها، فأطعمتُ بها على مهل نارَ مدفئتي، منتشيا بأحسن خدمة تسديها قبل استحالتها إلى رمادٍ وهباء. والمصير نفسه يجوز لنصف

خزانتي أن يلقاه يوم أقرر تنقيتها والتخفيف من أحمالها وزوائدها.

بعد مرور شهور على اقتراف فعلي ذاك، خامرتني فكرة جسيمة أخرى سرعان ما حققتها. نعشٌ على قد طولي وعرضي، صنعته من خشب مقوى، وصبغته بالأحمر، إلا غطاءه آثرتُ له الأخضر... نعشي: أخذتُ متى فرغت أتمرنُ فيه على قطع التنفس ما استطعت، وتوهمِ خروج روحي منّي فمماتي... ماذا عن وطني وأناسه الأحياء من بعدي؟ وماذا عنّي وقد هجرتُ الدنيا بلا رجعة؟ هل العالم إلى الأحسن يصير أم إلى الأسوأ؟ وهل ثلثي ساكنته الفقراء سيرتقون يوما إلى العيش الكريم، فيكفّون عن الإهتمام بنهاية الشهر، فيما آخرون من المترفين يتناظرون في أمر نهاية الكون؟ وهل لربِّ القوة كلها والقدرة أن يمنَّ على إحدى عينيَّ بل نصفها بتمديد حياتها مدة يحددها بجوده وكرمه، وذلك كيما أرمق طقوس جنازتي ومن حضرها من خصوم ألداء منشفين متلذذين؟ وهل...

قاطعني هاتفٌ محجوب، لعله جوانيّ، وقد استرددت أنفاسي: كُفَّ يا هذا عن سؤالات تفيض عن ضيق الحيّز واحتقان الحال، وبعيدا

عنهما عبثا تطيرُ وتحلّق. الأحرى بك أن تنظر في شؤون مالك لا في دنياك ومُقامك، وإلا فانهض وسر إلى بقيتكَ وحتفك، سائلا في مدار إدراكك، مجيبا حسب طاقتك وزادك...

عارضتُ الهاتف موضحا أني لست مثل دراكولا أو فرانكنشتاين، أُمضي النهار في تابوتي خوفا من أنواره الكاشفة، وأذهب في الليل الدامس بنابَيّ الحادين لأمتص من دم الحسناوات؛ لا، إنما أنا إنسان مسالم، أنشدُ الخير لبني قومي من الجنسين، لا أعتدي ولا أبغي، ولا يهم عندي في أيِّ هيئة أكون. فما أفكر فيه اليوم -موتي- خامرني أحيانا متقطعة من قبل، لكن ليس بدرجات الزّخم والكثافة التي أريدها لي الآن في نعشي، مجموعا مع ذاتي، منتعشا. الآنَ الآن، التفكير فلسفيا يكمن في تعلم أن نموت، كما قال القدماء. ولحسابي، لكي ينشرح صدري وأقبضَ القدر من قرنيه، وجب أن أتعلم الإستخفاف بالموت، كما كان نهج الفاتحين الأُوَّل. وحتى لا يخطفني ملَكُه على حين غرة، فأضطرَّ حتفَ أنفي إلى الوقف عند «أشهد أن لا إلاه...» فأموت ميتة جاهلية، وثنيا مشركا، هأنذا إذن من باب التحوط والاحتراز أردّد الشهادة كاملة، مسبوقة بقول الحي الصمد الذي لا تأخذه

سِنةٌ ولا نوم {فَتَمَنُوا الْمَوْتَ إِن كُنتُم صَدقينَ}}، ثم على لسان الولي أبي بكر الشبلي: «ألفُ عامٍ ماضية في ألفِ عامٍ واردة، هو ذا الوقت، فلا تغرنّكم الأشباح».

وعليه، فليس لي أن أنهض وأسير إلى بقيتي وحتفي، فهذا الحتف متربصٌ بي واتٍ إليَّ لا محالة، وتلك البقية تتضاءل فَيَّ وتضمر، ومن دون مشاورتي ولا إذني. وفي كل حال، أنا زادي وطاقتي، لا أعلو عليهما، ولا على إدراكي وحقله ومكسبه؛ إنما في وضعي التابوتي أحاول أمرين بل ثلاثة: الاستعداد ليوم الهمود النهائي؛ الإحساس بالوقت وقد تقلصَّ وانكمش فضغطَ وأكره؛ تخيلُ تحوّل أنايَ الحيّ، الذي أتعبني لزوقه وحملُه، إلى الأنا الجثة وليمةً تنهشها جحافل الديدان وتكشطها كشطا.

هي أمورٌ إذن أبتغيها لحسابي الشخصي، بعيدا عن قصة عذاب القبر ومرويات المعاد الشائعة المعروفة. وبعد تجريبها، أعود إلى قاعدتي سالما بذاتي، جانيا قطوفا نافعة، وقدرا من اتساعِ الرؤيا واقتدار العبارة.

هيَ هي، وما هيَ سوى نزر يسير من

فتوحات أهل الفكر الكبار وأرباب التصوف الأبرار، الأتين إلينا من مغامراتهم في الأعماق والأجواء بحقائق سُنيّة وأشكالِ ِبهية، وجميعها تحوم حول إكسيرِ الوجود، ومركزِ دائرته، وحجرِ زاويته، وقطبِ رحاه... طُيّبنا بذكرهم وذكراهم ونُعّمنا. انتظرت هاتفي اللّامرئي أن يجادلني فيما ذهبتُ إليه وأوجزت قوله، فلا كلمة منه ولا همسة. أظنه انسلَّ من خميرتي كالشعرة، خوفا على نفسه من جراءتي الطليقة في تحدي الموت، وتحررِ ذهني من رعبه وخبط غزواته وعنف صولاته... ليت أن الهاتف ظل مني دانيا، منصتا إليّ، الأشنف أذنيه بما يعِنّ لي من خواطر وأفكار، أُدرّب ذاكرتي على حفظها، حتى إذا يقنتُ من صدورها عن الروية والبصيرة استقمت، فهياتُ أقلاما وورقا لاستقبالها ونسخها ملءَ الوقتِ المتاح والفورةِ الممكنة.

لو أني لم أكن سنينَ عديدة مثل السواد الأعظم من الراكضينَ المهرولينَ اللاهثين وراء قضاء الحاجات والأغراض الذاتية الصرفة؛

لو أني اتعظتُ وألقيتُ القبضَ عليّ في حالة كحالتهم، وأَمَرَتُني أن أثبتَ وأرسوَ حيثُ لا زحامَ ولا دحاس، لا هرجَ ولا مرج، مختليا

بنفسي، مجالسا إياها، محاسبا، باحثا متأملا؛

لو أني طوال أعوامي المتعثرة أو المهدورة فعلت هذا وهذا وذاك وما ماثل، إذن لكنتُ

غير ما أنا اليوم عليه، لكنتُ ميالا إلى استصفاء الوقتِ وإبداعِ الحدسِ والفكرة، وإلى رصِّ الأُس بالأعمدة، ومزاوجةِ الفلحِ بالبذرِ والريّ، وملاحمةِ الذكاءِ بالإرادة، والقولِ بالفعل؛ ولكنتُ دوما وقّافا على الجوهر دون العرَّض، واللباب دون القشور، وعلى أمهات الموارد والمراجع والأصول، ونصِّ الزمان والدنيا، نصّ النصوص؛ ولكن تقوّيتُ بكلِّ هذا وسواه وانتعشت، فانتفعتُ ونفعت، ومن حولي، مع غيري، نشرتُ ما يُسهم في إضعافِ أربابِ الظلمِ والظلام، ويُقرنُ الحياةَ بالمعنى والعدَل بالجمال ...

وبغتة عاد الهاتف من غيبته وتخفيه، قال: لم أسمع منك إلا الحسرة على ما فاتك والندم، وإلا إشاراتِ ومناوشات في وجه من إذا لَهّا عنك وأمهلك لن ينساك ويُهملك. فمن أنانيتك وغطرستك خذ حذرك، ثم زنْ وادركْ حدّك وبُدّك، وقسْ حماسكَ واندفاعك بما من عمرك تبقّى لك، وارعَ نفسك في ظلِّ عقلك، واعتبر

بمن مثلك غلى وفار فما أفلح وما فاز، بل دار في شقه الضيق معربدا بالتحدي والوعيد، حتى فاجأَته سكتة قلبية أو دماغية، فعصفت به أو أردته طريح العجز والأسرّة.. عبثا تنطوي على نفسك، وتأوي إلى نعشك محاكيا أناك الميت، وأنت إنما ترقب أن تهدأ الأزمات وتلين، بيدَ أنها تشتدُ كثيرا وتنفرج غرارا، وتتراجع لكي تعودَ أقوى. وأخوفُ ما عليك الخوفُ منه أن لا تهجرَ وضعك وتمارينك إلا غائرَّ العينين، مقوَّسِ الظهر، متهالكَ الأعضاءِ والمفاصل، مهزوزَ الإحساس والكيان...

كرة أخرى لاذ الصوت بتواريه، فخرجتُ من تابوتي منتفضا. فككت أجزاءه وأودعتها في مخزن، ثم أخذتُ أذرع مكتبي خطواتِ خابطة متعثرة، مُبديا شارة النصر في وجه هاتفي الهارب، ناعتا إياه بالخاسئ الخاسف، المتقاعسِ المتخادل؛ ثم رفعتُ عقيرتي بإنشادِ كلاَمٍ قفزَ إلى ذهني مناسبا رائما من أحد نصوصي المتروكة: خندقتُ على نفسي وتعاقدتُ مع الثبوتِ، أستحضرُ روحي وأجالسُ الفكرة، علّني أصيرُ فكرة أو أيَّ عطاء. فيا فقراء، إن لم يؤتَ أُكُلي، حقّروا خطابي، ويومَ موتي لا تسيروا وراء نعشي...

طمعا في هدوءٍ مستحق، آويتُ إلى شرفتي والوقتُ يميل إلى الغروب، فما إن استويتُ في قعدتي واسترحت، حتى أخذت أراجع وريقاتي في ما سميته لمعي الأخيرة. مزقت ما لم يرقني منها، عدا بعضها قد يصلح لمحاولة أخرى، ومنها هذي الوريقة: إذا استيقنت أن السياسة في بلادك مهلكة تعرّض جسمك وحتى صحتك العقلية لمخاطر الإعاقة والتلف، فعِفتها ونفرتَ منها، حالئذٍ ابحث لك عن بدائلها الأرحبَ فضاءً والأهنأَ للنفس والأريح للذهن والأغنى معنًى ودلالة؛ هذا وسواه من الفضائل واللطائف لا تجده في السياسة الجارية ولا في عالم المال والأعمال، بل في حقول المعرفة والتحصيل والإبداع، حقول الإنسانيات وشتى ضروب الفنون والآداب... فارعَ حماها، وأكثرْ من ارتيادها واللياذ بها تنميةً لمواهبك واستعداداتك، ودفعا بها إلى تجلياتها وأقاصيها. وإذا ما جاءك منها الإثمار والعطاء، فإنك إذن لمن الفرحين المقبولين، ومَنْ إذا سعدوا أسعدوا، وإذا أيسروا وهبوا، وإذا أحبوا أوفوا وأخلصوا، وفي تشييد صروح الحياة المجدية النضرة أسهموا وفلحوا...

سرحت بنظري في الشارع وفروعه، فأبصرتُ

رجلا يمشي متثاقلا كما أمشي، متأبطا محفظة مثلي، وعلى رأسه قبعة كقبعتي، يحملق تارة في الأرض وأخرى في السماء كما صرت أفعل، ثم يجلس في سطح مقهى، يشرب شايا، مدخنا سيجاريبو ومستطلعا جرائد ومجلات كما على طريقتي، لاهيا عما حوله من وجوه ودبٍّ ودبيب، كما أمست عادتي. ولما تكررت الرؤية نفسها مرتين، هرعت إلى المقهى لمقابلة شبيهي، فلم أجد له أثرا حيث أبصرته، ولا في أيِّ وجهة أخرى قصدتها. وأجريتُ بحثي عنه في الأيام التالية، لكنه انقطع عن الظهور تماما، ومن سألتهم عنه في مكانه نفوا رؤيته، إلا من معتوه ادعى أنه يعرفه، ونعاه لي، فنفرت منه وتطيرت، ثم هرولت نحو بيتي.

عادت خدوج من عطلتها الأسبوعية، وعدت أنا مجددا إلى أعمالي الاعتيادية، وأضفت إليها في شرفتي حصص استحمام بأشعة الشمس التي صار هيكل العظمي في مسيس الحاجة إلى دفئها ومقوياتها، وعلاوة على ذلك كثّفتُ في جولاتي الخارجية من زيارة قبور أموات ما زالوا بذاكرتي عالقين...

ومن هنا، للتخفيف من هلعي، كلمت

بالسكاي مطولا الحاجة كلثوم في أمور تخصنا وأخرى، منها أنيٍ التمست موافقتها على تمليك خدوج شقةً هبة منا، فذكرتني أن هذا قد تم منذ أكثر من سنتين بمباركتها، ثم سألتني إن كنت بخير، فطمأنتها كثيرا فيما الصورة تشحب والصوت يضعف.

شيءٌ واللهِ مربكٌ غريب!

أن أنسى حدثا إحسانيا أردت أن أمرّ في قضائه مرَّ الكرام، وليس أن يغشاه نسياني ويطويَه. دفعا لخوفي من أن تكون ذاكرتي آخذة في وطءِ النسيان المركب، علامةِ مرض ألزايمر الرهيب، شرعت جاهدا في إحضار وثائق الهبة، فعثرت في قاع صندوق على عقدها مرفقا بشهادة الحيازة للموهوب لها. ورويدا رويدا تصاعدت إلى ذاكرتي تفاصيل دقيقة، منها استمرار خدوج في إرسال دموع الفرح أياما طوالا، حتى احمرت عيناها ونهيتها عن ذلك؛ ومنها بعض أدعيتها لي ذات السيل الدفيق وختمها متوسلة: يا ربِّ أدخل سيدي الجنة، فما أوجدتها إلا لعبادك من أمثاله... حينئذ تنفست الصعداء، إذ خرجت من اختبار ذاكرتي سالما مطمئنا، ولو لأجل لا أدريه.

ذات يوم جمعة، قصدت المقبرة حيث مدافن زوجتي الأولى عائشة والأستاذة خناثة الوردي والولية الشريفة والحاج المهدي، وفيما أنا أترحم على أرواحهم جميعا وأتصدّق على القراء والمساكين، إذا بالمعتوه الآنف الذكر يبرز لي ويدعوني إلى زيارة قبر الرجل الذي بحثت عنه في المقهى، ليعرِّفني به لقاء صدقة مجزاة ومؤداة مسبقا. أعطيت الأحمق ما استطعت، وسرت خلفه حتى أوقفني قرب قبرٍ وقال: هو ذا مطلوبك.. إذا أردت تتأكد، أعنيِّ على الحفر وإزالة التراب عن وجهه... للتو أَمرته أن يغرب عن ناظري، ثم دلفت إلى الخارج دائخا مرتعدا.

عرجت على مقهايَ المعتاد قبالة منزلي، جلست قريبا من عجوز أعلمُ أنه يؤثر الخلوة ويتضايق من جلساء القرب، لكنه في هذه المرة لم يبدِ تضايقا أو يغيّر مكانه. ردّ علي سلامي مقتضبا وعاد إلى الغطس في همهماته المتصلة. وما إن أكملت رشف شايي وتهيأت للذهاب، حتى أخذتُ أتبين من صوته الخفيض كلاما بعضه خواطر وبعضه

مناجاة، منه ما نسخته في جريدتي: كل السبل والخواتيم تفضي إليك يا ألله. أهلي وأناسي ذهبوا، وأنت نعْم العوَّض والوكيل. لا أنيس لي ولا سند إلاك. ولولا توجهي إليك فارغا من مشاغل الدنيا وهمومها، لكان العياء من نفسي قاتلي والسأم. تفشي إعراض الناس عني فأعرضت عنهم باللياذ إلى عونك الفائض وملكك الكريم. غمرتَني بظللك النوراني ونعّمتني حتى غدوت لا أعبأ بالغادين والرائحين والقاعدين، وأكاد لا أحسهم ولا أبصرهم...

غمض صوت الشيخ، فآثرت تركه يأنس بقرب ربنا ويسعد، وانسحبت خفيفَ الظلِّ والوطء.

في الغد، متشوقا إلى مجالسة عجوز الأمس، بكرت إلى مقهاي متأبطا محفظتي وصحفي. وفي انتظاره تناولت فطوري وانكببت على قراءة مقالات انتقيتها. ولما تعبت منها سرحت نظري، فإذا بي أراه قابعا في ركن آخر، يململ شفتيه ولا يلتفت إلى ما حوله. قصدته على الفور، استأذنته بعد التحية في مجاورته فلم يجب. وبعد مضي وقت مشحون بالصمت كسرتْه متسولة ملحاحة، رمقني ممتعضا كأني قطعت عليه صلاته، قال:

- صرفت المسكينة بصدقة، وأنت إيش تريد؟

أجبته بمنتهى التودد:

- مكالمتك يا شيخ والاستفادة من حِكمك...

- ما عندي حِكم ولا أيّ شيء ينفعك. ما تغترّ ببياض لحيتي ورأسي ولا بهندامي. لكن تكلم وإن سكتُّ عنك فجزني.

سألته عن هويته وشغله ومذهبه في الحياة وآرائه في أمور شتى سردتها مقتضبة، وبعدها سمعته يقول تعبا:

- عزلتي المتصلة قوّت فراستي وحواسي. لا، لستَ من البصاصين والمخبرين. ومع هذا لن يأتيك منِّي إلا ما يعيدني إلى ما كنتُ فيه، وأنت عنه غريب. كلامي من نجوى وشكوى أبثه إلى مولاي، وأبقى وحدي صامتا أترقب ما قد يجود عليّ به من آيات قربه ورضاه. وأنت بهرَج أسئلتك تزعجني وتعكّر صفوي، فجزني مسالما واهجرني.

قمت للتو وهجرتُه هجرا جميلا، وفي ربوع الحيّ سرتُ تائها.

بعيد يومين علمت من نادل المقهى أن العجوز وُجد ميتا في حديقة عمومية ونقله من يعرفه لدفنه في مولاي بوسلهام مسقط رأسه. وقال الناعي إنه لا يعرف عنه أي شيء. تابعت سيري في الكورنيش، وحين أتعبني المشي قفلت راجعا إلى بيتي حيث كلمت زوجتي كلثوم مطولا بالسكاي، معبرا عن شوقي إليها من دون أن أحثها على القدوم إليّ. سمعت منها كلمات مفرحة مريحة، ثم استأنفت كتابة لُمعي أو حُشاشاتي الأخيرة في شكل رؤوس أقلام لمقالات واعترافات قد أنشرها إذا سنح الوقت وانشرح الصدر والخاطر. وبعدها اقتنت بما تيسر وشاهدت فيلما غراميا تافها لتزجية الوقت وترويض النوم.

ظهيرة اليوم التالي بعد أوبتي من جولتي الصباحية، وجدتني على مدخل منزلي - واسعداه! - وجها الوجه مع من رجوتُ كثيرا حضورها وإغاثتها في اليقظة كما في نومي المرتج، وتمنيتُ قربها ورعايتها في ظرف عصيب يحوجني إليها: حرمي كلثوم، هيَ ذي إذن شاخصة أمامي ببهائها وهمتها، مرتدية قفطانا أنيقا، متّشحة بسمت الورعِ والحكمة. تعانقنا واقفيْن، وتضامنا جالسيْن، محاولين ريَّ غليلنا الشوقي باللّمم، فتمازجَت أنفاسنا،

وبالكلمات الطيبات والمشاعر الحارة تناجينا.

- رأيتك، يا عبد الله، فيما يرى النائم، تناديني أن أرجع إلى كنفك وحضنك، ورأيتُني أناديك، كم أناديك! وهأنذا ألبّي النداءين. ودّعت أهلي في مكّة والمدينة، وأنا هنا منذ الآن معك، لن أبرح قربك، إلا أن يناديني الله إلى جواره... أرعاك وترعاني، أعينك وتعينني على إكمال دور العمر سالميْن غانميْن، راضييْن بما يشاء الله لنا، لا خوف علينا ولا نحزن. ولك الخيار في أن نستقر هنا أو تصحبني ولو مرة إلى مكة، ومعنا خدوج، حتى تقضي أنت وهي فريضة الحج.

كانت كلماتها تيك وأخرى مثلها تنبعث من فيها كالماء الزلال، تسقيني راحَ الراحة وتتنزلُ عليّ لطائفَ وشفاء، فيغلبني البكاء أنا عصيُّ الدمع، فأحجمُ عن كلام لو نطقت به لكان دون كلامها رقةً وروعة. اغتنمتِ المتنوِّرة اللبيبة صمتي، فأطلعتني على هداياها لي، شكرتها متلعثما، سألتني عن نتائج آخر تشيك - أوب أجريته، أومأت أنْ لا بأس، وفي نيتي أن أصارحها ذات يوم في شأن أهم متاعبي الصحية. أغمضت عيني واسترخيت على الكانبي، فيما الحاجة هرعت إلى قضاء

أغراض منزلية. سرحت بفكري في عد متاعبي تلك: أذنٌ صماء، رؤية زاحفة نحو الضعف، افتقار عظامي إلى المانيوزيوم وفيتامين دي، ضغطُ الدم وقلبٌ يبث أحيانا علامات عياء، وأشياء أخرى منها النقرس وشوية هلوسات... حين شعرتُ بجلوس زوجتي قربي قطعت التنفس، كما تدربت عليه في نعشي، فجسّتْ نبضي وصاحت بي أن أفيق فلبيت مسرعا حتى لا يحدث لها مكروه، ثم أوقفتني وقادتني إلى غرفتنا بمنتهى اللين والرفقِ.

على الفراش الحلال، دعتني إلى تناول أدوية كنت غفلت عنها، ففعلت. بعدئذ مدّدتني، دثّرتني واستأذنتني في إعداد عشاء خفيف لنا. لكن سرعان ما غرقت في نوم معتم عميق، لم ينجلِ عنّي إلا وكلثوم تبادرني صباحا بقبلات على وجهي الذي ٍوصفته بالمتورد، ثم أزاحت الستائر، مرحبةً بأنوار الشمس ملءَ الغرفة، ثم هبّت لإعداد فطورنا في الشرفة. عندئذٍ تناولت قلما وورقة لضبط رؤيا منامية ما زالت تعلق بذهني، إذ رأيت أنّي على سجّادة طائرةٍ أتوسّدُ نهدًا ملائكيا، هو الأبلجُ والأحلى؛ وأني بين الأفْقين والسّحْبِ الحُبلى، أُلقي السلامَ والتحايا على أقواس

قزح اللألاءة بأهاتِ الحبيبات المؤنسات، وبأدمعِ العوانسِ والمتروكات...

خبأت بِطاقة الرؤيا لما أن أقبلت كلثوم مبشورةً سعيدة، فساعدتني على تنظيفي في الحمام وتغيير لباسي وتحسين هندامي. وحول طاولة الفطور رغّبتني في اقتيات ما أعدّته مع خدوج من ألبان وعصير فواكه ورغائف، فتفتحت شهيتي كما لم أعهد من قبل، واستمتعت بالإنصات إلى حبيبتي وهي تصف جمال هذا اليوم الربيعي بعباراتٍ شائقةٍ رائقة، تُصحبها بإنشاد مقاطع من أغاني فيروز التي تحفظها وتحسن أداءها، لا يلهيها عنها مناولتي أدويتي ولا عن حنوها عليّ بالعناق والتقبيل، بينما أنا أبدي لها علامات الرضى والراحة، مغالبا شعورا متزايدا بالإرهاق. سألتني إن كنت أريد شيئا. التمدد، أجبت، والنوم. رافقتني إلى فراشي، أحاطتني، كما طلبتُ، ببعض كتبي، ضمتني إليها طويلا واعدةً إياي بجولات يومية على الساحل وفي فضاءات المدينة كما تعوّدنا، استأذنتني في مغادرة البيت قصد التسوق وقضاء حاجات، وبعدها انصرفت وعلى محياها ابتسامة لا أشرقَ منها ولا أرق. وحين غابت عنّي تناهى إليّ صوتها طالبة من الخادمة أن تظل قريبة

مني.

على الفور، سحبت بطاقتي المخبأة منتويا إغناء متنها بعناصر أخرى من رؤيايَ المنامية، لكنّ ذاكرتي لم تسعفني ولو بلمع وشظايا، فاستسلمت لنوم لم أعرف له مثيلا من قبل. سجلت ما إن أفقت غرابته التي لا توصف، تشوبه سكرات ويقظات خاطفة متناوبة، شعرت خلالها بثقل لساني ويبسه، وببرودة قارسة تدب بطيئا من أخمص قدميَّ إلى رجليّ؛ ثم تداولت عليّ صورُ وجوهٍ عرفتها وأحداث بارزة من شريط حياتي، تلتها أصوات من مناحي جدّ نائية، تترجاني أن ألحق بها ولا أتأخر؛ وبعدها تكتلتْ بقية حواسي وتضافرت على إشعاري بانضوائي في بالوعات وسراديب تتسابق بسرعة جنونية، فتطيش برأسي وتعبث، حتى إذا توقفتْ تبينتُ طيف خدوج يحوم حولي، ثم صوت حرمي كأنه آتٍ من قعر بئر عميقة، تُجري مكالمات، تستغيث بطبيب؛ ثم وأنا في غمرة العلامات المنذرة وتكالبها عليّ تيقّظت فجأة، فحبّرت ما عاينت وعانيت، ثم سرعان ما بدا لي قلمي ينزف دما ويضحو ريشة في مهبِّ ريح رهواء، ثم ينعدم في لجج ظلامية متلاطمة كثيفة...

وقتها كانت المرأتان تلحظان مذعورتين انسحاب الحياة من جسم عبد الله، فتملآن الفضاء صياحا واستغاثات، وعيونهما تذرف دموعا حارة غزارا...

عن المؤلف:

بنسالم حِمَيش؛ مفكر وأديب، وزير الثقافة الأسبق. حاصل على شهادات عليا من جامعتي الرباط وباريس. يكتب بالعربية والفرنسية في البحث والإبداع. ترجمت بعض رواياته إلى عدة لغات. اختار اتحاد الكتاب في مصر روايته مجنون الحكم ضمن أحسن الروايات المئة للقرن العشرين. / محاضر في عدة ملتقيات عربية وأوروبية وأمريكية. / عضو في عدة جمعيات ومؤسسات عربية وأوروبية. رئيس سابق لصندوق دعم الانتاج السينمائي المغربي. / عضو سابق في المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان. من الجوائز والتنويهات: جائزة الناقد للرواية (١٩٩٠) / جائزة الأطلس الكبير (٢٠٠٠) / جائزة نجيب محفوظ (٢٠٠٢) / جائزة الشارقة لليونسكو (٢٠٠٣) / جائزة نجيب محفوظ لاتحاد كتاب مصر (٢٠٠٩) / ميدالية تنويه من جمعية الأكاديمية الفرنسية للفنون والآداب والعلوم (باريس، ٢٠٠٩) / الجائزة الكبرى لأكاديمية تولوز الفرنسية ٢٠١١/ سميت روايته «معذبتي» في القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية العالمية.

للكاتب بالعربية:

في الدراسات الفكرية والتاريخية:

* في نقد الحاجة إلى ماركس، بيروت، دار التنوير، ١٩٨٣.

* معهم حيث هم (حوارات فكرية)، بيروت، دار الفارابي، طبعة ٢ في ١٩٨٧.

* كتاب الجرح والحكمة، بيروت، دار الطليعة، (ط. ٢)، ١٩٨٨.

* التشكلات الإيديولوجية في الإسلام، ط. ٢، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٠.

* في الغمة المغربية، طنجة، دار شراع، ١٩٩٧.

* الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ، ط. ٢ مزيدة ومنقحة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٦.

* في معرفة الأخر، منشورات الزمن، الرباط، ١٩٩٩.

* التراكم السلبي والعلم النافع، الدار البيضاء، ٢٠٠١.

* نقد ثقافة الحجر وبداوة الفكر، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٤.

* العرب والإسلام في مرايا الاستشراق، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١١.

* في الاسلام الثقافي (تحت الطبع).

الأعمال الأدبية:

* مجنون الحكم (جائزة الناقد للرواية)، ط.٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٢.

* محن الفتي زين شامة، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٣؛ ط٢ مزيدة، الرباط ٢٠١٤.

* سماسرة السراب، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ١٩٩٥.

* العلّامة، دار الآداب، ط.٢، بيروت، ٢٠١٢.

* فتنة الرؤوس والنسوة، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٠.

* زهرة الجاهلية، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٣.

* أنا المتوغل وقصص فكرية أخرى، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤.

* هذا الأندلسي!، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٧؛ ط ٢، ٢٠١١.

* معذبتي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠ (ط٢).

* امرأة أعمال، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٣.

دواوين:

* كناش إيش تقول، الدار البيضاء، ١٩٧٩. / ثورة الشتاء والصيف، الرباط، ١٩٨٣./ أبيات سكنتها وأخرى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٧./ ديوان الانتفاض، دار شراع، طنجة، ٢٠٠٠. / افتراعات، دار رياض الريس، بيروت ٢٠١٠.

* سيناريات لأفلام تليفزيونية مع القناة الثانية: أمواج البر، ٢٠٠٢/ علال القلدة، ٢٠٠٣/ علاش لا؟، ٢٠٠٥/ ابن خلدون (في انتظار الإخراج).

للكاتب بالفرنسية:

* De la formation ideologique en Islam, Anthropos, Paris, 1983 ; rééd., Rabat, 2006.

* Au pays de nos crises. Essai sur le mal marocain, Casablanca,1977.

* Le Calife de l'épouvante, Le serpent a plumes, Paris, 1999.

* Ijtihad, la face voilée de l'Islam, Paris 1987, rééd., Rabat, 2006.

* Ibn Khaldun, un philosophe de l'histoire, Paris 1990, rééd., Rabat,2006.

* Etre en vie et autres fragments, Eddif-Non lieu, Casablanca-Paris, 2007.

* Le livre des élans, Rabat, 2013.

* Ma tortionnaire (sous presse).

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com